

الطبعة الثانية

أشرف الخمايسي



14.2.2014

# مَنَافِي الرَّبِّ

رواية

الحضارة للنشر

أشرف الخمايسي

مَنَافِي الرَّبِّ

(رواية)

أشرف الحمايسى: مَنَافِي الرَّبِّ (رواية)

الحضارة للنشر  
7 شارع أبو السعود - الدقي 12311 - القاهرة

Al-Hadara Publishing  
7 Abou El-Seoud Street  
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 37 61 94 39  
Mobile: (20-122) 316 48 67

E-mail: ask@alhadara.com  
E-mail: hadara@idsc.net.eg  
www.alhadara.com

الطبعة الثانية: مايو 2013

رقم الإيداع بدار الكتب 2013/ 3490  
I.S.B.N. 978-977-476-161-8

الغلاف تصميم: حسين محيي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مَنَافِي الرَّبِّ

إلى الإنسان



على الرُّغم من أن الموت  
كان يتعمّد أن يطل  
على الإنسان من كل  
ناحية في حياته،  
ويصدر صخباً مثل  
صدى لا ينتهى تردُّده،  
إلا أن الإنسان عاش  
حياته يتمتّع بأبهج ما  
أُتيح له منها، وكانت قَمَّة  
انتصاره على الموت، أن  
حوّله إلى ملاذ أخير  
يسعى إليه إذا قست  
عليه الدنيا.





## الرُّؤْيَا

الجو ضبابي، ليس واضحاً تماماً إن كان الوقت نهارة أم ليلاً، لكن الذي اتَّضح تماماً لـ”حجيزي“ أنه يجلس مستنداً إلى ناقته المنيخة، في صحراء تحفُّها بساتين نخيل متفرقة، وأنه يأكل أول ثمرة من تمرات ثلاث كانت في كف يده اليسرى.

وفور أن انتهى من أكل التمرات الثلاثة، سمع صوت ”سعدون“ يعلو من فوق سطح المسجد بأذان الفجر، فصحا من التَّوْم، وحلاوة التمرات مازالت عالقة في فمه.

همس فرحاً: هل عاد ”سعدون“ ليؤدِّن للصَّلوات مرّة أخرى؟

وهمس: عموماً هذه رؤيا حق، طالما أنها لامست الفجر، ولها تفسير.

اندهش عندما رأى نفسه يخرج من بيته، فالأيام أيام صيف، وهو في الصَّيف ينام غالباً على المصطبة الصَّخرية أمام البيت، ليس بداخله، لكنّه لم يهتم بالأمر طويلاً، لأن تفسير الرُّؤْيَا شغل عقله، حتى أنه بدلا من أن يذهب إلى المسجد كعادته ليصلِّي الفجر جماعة، انطلق إلى الصَّحراء، ومشى فيها طويلاً، وراعه أنه عادة بعد الفجر بقليل، يبدأ نور الصباح في إضاءة الدنيا، لكن ها هو قد مشى طويلاً طويلاً في الصَّحراء، وما زالت الدنيا عمّة، وكأنها ظلام قلب الليل.

ووصل إلى جبل ضخم، في سفحه تراصت أشجار فواكه مختلفة، بينما ارتشقت فيه العديد من الكهوف، أمام أحدها وقف الرَّاهب ”يوائس“ في فتحة مدخله، طويلاً، نحيلاً، عجوزاً، تنسال لحيته البيضاء مثل حرير، ويُرقص الهواء الشُّعيرات الثَّابتة في صلعته اللَّامعة، يقف مستنداً إلى عصاه التي اتَّخذها من أغصان شجرة، كأنه ينتظر قدومه.

ارتفع صوت الراهب ”يوائس“، عميقاً، جَهْورياً: يا ”حجيزى“، أكلت آخر ثلاث تمرات من زادك، يبقى لك من أيَّام حياتك ثلاثة أيَّام، وتموت.

وارتفع صوت ”مزيد“ بأذان الفجر، قوياً ومشرقاً، فانفض ”حجيزى“ في فراشه، لكنَّه اعتدل كما يعتدل أى رجل عجوز، ببطء وحذر، بينما عيناه تلمعان بما رأى في منامه، وقلبه يدق بعنف.

هذه رؤيا عجيبة، وقاسية، لم تترك أيَّة فرصة للتفسير، أو لمحاولة تأويلها بشكل يساعد ”حجيزى“ على الهروب من هذا المصير الذى رسمته له، الموت.

\*\*\*\*\*

كان نائماً على المصطبة الصَّخرية أمام البيت عندما داهمته هذه الرؤيا، يُفصِّل النوم على هذه المصطبة في ليالى الصيف، وفي بعض الليالى يرغب فى النوم على حصير مغطى ببشكير قطنى فى الخلاء وراء البيت، وممرات قليلة جداً يصعد الدَّرَج الضَّيق إلى السطح، لينام على الدِّكَّة التى تعلوها سقيفة صغيرة من جريد النخيل المحفَّف بحرارة الشَّمس.

وفى داخل البيت له غرفة نوم، ينام فيها مع زوجته ”سريرة“، لكنَّه هجر هذه الغرفة منذ أعوام لا يعرف عددها.

لذلك إذا حل الصَّيف ينام فى هذه الأماكن.

وفي الشتاء لم يكن متوقفاً له سوى مكان واحد، "الدِّكَّة" التي خلف بؤابة البيت، حيث المكان متسع، لكنّه رغم اتّساعه محكم الغلق، ومسقوف جيّداً، ثمّ إنه دائماً يكون دافئاً، إثر النّار التي كانوا يشعلونها للتدفئة في "قروانة" خُصّصت لهذا الأمر، فلمّا تحبو في نهاية السّهرة، لا يخبو دفوؤها، ويتغطّى "حجيزى" ببطّانية ثقيلة، وينام.

لكنّ لما داهمته هذه الرّؤيا القاسية، كان الفصل صيفاً، واللييلة حارة، وكان نائماً على المصطبة الصّخرية أمام البيت.

عيناه هما اللتان استجابتا لهول الرّؤيا بسرعة بالغة، فانفتحتا من نومهما بسرعة ونشاط، ومن دون التّكاسل المعتاد لعينين تنفتحان بعد استيقاظ عادي، لكنّ بقيّة جسده لم يكن يملك المواصفات المناسبة التي تمكّنه من هبّة سريعة تتناسب مع هول هذه الرّؤيا، كان جسده عجوزاً، وقديماً جداً.

كان يسمع ولده "بكير" وهو يتحدّث أحياناً مع بعض رفقاءه، ويتباهى : "حجيزى" عمره أكثر من مائة عام.

ويتباهى "بكير" لأنّ آباء كثيرين أعمارهم أقلّ من سبعين سنة، ومع ذلك رقدوا في البيوت من غير حركة، واستسلموا لأنواع شتى من الأمراض الخسيسة التي يحلو لها اصطياد هؤلاء العواجز الضّعفاء.

لكنّ "حجيزى" عمره مائة عام، وما زال قادراً على رعى الأغنام، والمشي بها إلى المراعى البعيدة في الصّحراء، بل وما زال يستطيع ركوب الجمال، والسّفر إلى "موط" في رحلة ذهاب وعودة قد تستغرق أياماً طويلة.

ورغم كل ذلك، لم يكن هذا الجسد القديم مستعداً لهبة سريعة إثر استفاقة خاطفة بسبب رؤيا قاسية.

لذلك اعتدل "حجيزى" ببطء وحذر.

صوت "مزيد" صافياً وهو يكمل الأذان: الصلّاة خير من الموت، الصلّاة خير من الموت.

اندهش "حجيزى"، وشعر أنه ما زال يكمل أحداث الرؤيا، وإلا لماذا يقول "مزيد": الصلّاة خير من الموت؟! أنا أسمعها في كل فجر يقول الصلّاة خير من التّوم!

صياح الديوك على أسطح البيوت في "الوعرة" يتردّد مع أذان "مزيد"، وكذلك بناح ممدود لكلاب ناعسة يشبه عواء ذئاب، كما أن عصافير قليلة بدأت تشقشق في شجرة "المجيز".

أمسك "حجيزى" بعمامته ووضعها متهاككة على رأسه الأصلع، وكان يقول لنفسه: أنا مستيقظ الآن أم أنا نائم؟

ظهرت الحيرة على وجهه. وتمتّى في قرارة نفسه لو أنه ما زال نائماً، وأنه يحلم، حتى تجرى به رؤياه في مجرى لا يكون تفسيره عند الصّحو حتمية موته.

أدار رأسه ونظر إلى التّاحية التي رأى نفسه ينطلق منها منذ قليل إلى الصّحراء، حيث جبل الرهبان، وكهف الرّاهب "يوانس".

"يمكن أكون عدت الآن من عند هذا الرجل، طيب كيف؟! المسافة بينك وبين جبل الرهبان أطول من ارتحال يومين على التّوق! ثم هل هناك أحد يعود من مشوار فيجد نفسه نائماً على المصطبة؟! يجوز فقط في الرّوى

والأحلام! طيّب، هل يظل الواحد في الأحلام يفكر إن كان مستيقظاً أم  
نائماً؟!“

عينا ”حجيزى“ ليستا أكثر من ثقبين، تدلّى عليها جلد متهدّل، لكنّه كان يرى  
بهما جيداً، فنظر حوله في محاولة أخيرة ليتأكد من أنه هل هو مستيقظ الآن  
أم نائم.

رأى البيوت في غبشة الفجر، ورأى شجرة ”الجميز“ أمام بيته، ورأى كلباً  
يمضى بنشاط في التّاحية البعيدة من الطريق.

همس: أنت صاحٍ يا ”حجيزى“، لا تكون البيوت والأشجار والكلاب واضحة  
مثل هذا الوضوح في الرّؤى.

كانت قدماه تتحسسان الأرض بحثاً عن حذائه، عندما فُتحت بوّابة البيت،  
وخرج منها ”بكير“.

شاب في أوائل أربعينيات عمره، يرتدى الجلباب الأبيض القصير ذى الأكمام  
الطويلة، وسروال أبيض بالكاد يصل إلى عقبيه، يضع عمامة، بدت ملقاة  
على رأسه كيفما اتفق.

خرج ”بكير“ ليصلّى الفجر، كان يغالب النّوم، لكنّه اندهش لمّا رأى والده  
”حجيزى“ مازال جالسا على المصطبة، هو عادة يسبقه إلى المسجد.

قال ”بكير“ بصوت نعلان: صباحك خير يا ”حجيزى“.

همهم ”حجيزى“ وهو ينحنى للأمام ليقوم واقفاً: خير صباحك.

لكن ”بكير“ كان نعلاناً، فلم يستطع أن يمد الكلام مع والده ليعرف منه  
سبب تأخره هذه المرّة عن الدّهاب إلى المسجد، فكّر في أن الأمر لن يعدو  
أن أباه قد أخذته نومة عميقة أخرته عن الصّحو، فمضى مبتعداً.

كان المسجد قريبا، ليس أبعد من مائة خطوة من خطوات ”حجيزى“ الصيقة الآن.

\*\*\*\*\*

عادة ”حجيزى“، بعد أن يسمع أذان الفجر، النهوض وهو يتم بدعاء الإستيقاظ من النوم، الذى تعلّمه مؤخراً من الشيخ ”مزيد“ إمام المسجد ”الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه الشُّور“، ثم يضع قدميه فى حذائه.

فى كل مرة يضع قدميه فى حذائه، يشعر بألم شديد يجتاحهما، كان الحذاء قديما لدرجة حوّلت جلده المتبيّس إلى ما يقارب قطع من صفائح حديد رقيقة، تؤلم من غير أن تخدش، ورغم كرهه لهذا الحذاء، إلا أنه يصر على اتعاله، ثم يمضى بخطوات متثاقلة إلى المسجد.

كان المسجد مثل ”حجيزى“، قديما، وكان مثله، رغم قدمه ما زال قادرا على القيام بمهامه.

يدخل أوّلا إلى إحدى دورات مياهه، تلك التى هى عبارة عن مجرد فتحة صرف تؤدّى إلى بئر لا تمتلئ أبدا، على جانبى هذه الفتحة لبنتان من الطُّوب الأحمر تُثبَّتتا بالأسمنت، يضع الإنسان عليهما قدميه، ثم يجلس يقضى حاجته، وبعد أن ينتهى، ينظف نفسه من ماء يملاً ماجورا فخّاريا، يطفو عليه ”كوز“ من مخلفات علب السّردين الفارغة، التى تم تهيئتها لهذا الغرض.

يخرج من دورة المياه، فيخلع حذائه، ويخطو إلى الميضأة.

يفتح صنبورا، فيأتيه الماء من الصّهرج الموضوع فوق سقف المسجد، ويتوصّأ، وبعد أن يفرغ من وضوئه، يجفّف أعضائه المبتلة بطرف جلبابه،

وهو يهمس: "أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله"، ثم يذلف إلى صحن المسجد.

يلقى السلام على المصلين الجالسين ينتظرون إقامة الصلاة، فيردون تحيته بأصوات مستكينة ناعسة، ثم يشرع في صلاة ركعتي الفجر، وما إن ينتهي منها حتى يكون الشيخ "مزيد" قد أقام الصلاة، فيصطف المصلون القلائل في صفين أو ثلاثة، ينضم إليهم "حجيزي"، ويعلو صوت "مزيد" بتكبيرة الإحرام: الله أكبر.

لكن هذه المرة، صحا "حجيزي" وقلبه هلوعا، فنسى أن يقول الدعاء الذي علمه له "مزيد"، ومضى إلى المسجد مدووشا وكأن مطرقة ضخمة ضربت رأسه.

ولم يدخل إلى دورة المياه، ولم يتوضأ، وإنما دخل المسجد من بابه الرئيسي المطل على الشارع، ولم يلق السلام على أحد، وإنما وقف في منتصف المسجد ورفع يديه، وقال: الله أكبر.

ودخل في الصلاة.

صحن المسجد ضيق، وجدرانه المبنية بالطوب اللين غزتها الشروخ، كانت الشروخ تبدو أكبر من حجمها الحقيقي بسبب لون الجير الذي طليت به الجدران حديثا، اللون الزهري الفاتح، لون السماء الصافية في ضحى شتوى.

علت هممة في المسجد غير معتادة من المصلين، هؤلاء الذين يجلسون في كل فجر هذه الجلسة، ينتظرون الصلاة، وهم يغالبون الثعاس، فيسيطر عليهم الصمت.

”حجيزى“ يصلى وهو يُنقل عينيه ما بين المنبر المبنى بالطوب اللين أيضا، وبين ”مزيد“ الجالس مستندا إلى جدار المنبر، معطيا جنبه الأيمن للقبلة.

”مزيد“ ينظر إلى ”حجيزى“ وهو يتسمم، والمصلون تعلقو همماتهم أكثر وأكثر، وثمة ضحكة نبتت بين المهمات.

”حجيزى“ وهو واقف يصلى، أدار رأسه ببطء ينظر حوله بعينين حائرتين، فرأى عيوننا ترمقه بغضب، وعيونا ساخرة، وعيونا ضاحكة.

”مستحيل أن أكون مستيقظا. أنا مازلت في الرؤيا“.

كان ”مزيد“ يشير إليه بذراعه الأيمن، كأنما يريد أن ينيبه إلى شيء، وكان يشير إلى أسفل منه، إلى قدميه، لكن ”حجيزى“ مشى نحو ”مزيد“ ببطء يناسب المشى في الرؤى، وعندما وصل إليه قال ”مزيد“ هامسا: يا عم ”حجيزى“ تدخل المسجد والحف في قدميك؟!

نظر ”حجيزى“ إلى قدميه فوجد الحذاء، فابتسم، وقال لنفسه: الحمد لله. أنا إذن مازلت أحلم.

وانقلبت عينا ”مزيد“ من عينين باسميتين إلى عينين متعجبتين. ثم انفتح فمه مشدوها لما سمع ”حجيزى“ يقول له: لماذا كنت في الأذان تقول الصلاة خير من الموت؟!

لم يكن ”مزيد“ قد قال ”الصلاة خير من الموت“، فقال مندهشا: أنا قلت الصلاة خير من الموت؟!



ونظر حوله، ورفع صوته يسأل الجالسين في المسجد يهيمون: أنا أذنت  
وقلت الصلّاة خير من الموت؟!!

ولم يرد أحد بكلام، وإنما ردّوا بالصمت، بينما نظراتهم تتصادم مستغربة.  
وعاد "مزيد" ونظر إلى "حجيزى" مبتسما، كانت إبتسامته هذه المرّة محمّلة  
بكلام يعنى "يبدو أنك كبرت وخرّفت يا حجيزى"، وبينما يستدير ليضى  
مبتعدا، قال "مزيد": مالك يا عم "حجيزى"؟!!

وعندما وصل إلى باب المسجد ليخرج، سمع صوت "مزيد" يهتف بنفس  
التبرة المندهشة: إلى أين يا عم "حجيزى"؟! لم نصل الفجر بعد!  
نظر "حجيزى" للوراء، كان الناس قد لَووا أعناقهم برؤوس عيونها امتلأت  
بالحيرة. ثم خرج.

\*\*\*\*\*

لا يترك "حجيزى" صلاة الفجر أبدا في المسجد طالما هو في "الوعرة"، وله  
مكان في الصّف لا يتركه أبدا، خلف العامود الكبير، الوحيد، في وسط  
صحن المسجد، يصلّى بمحاذاة هذا العامود، ثم إذا فرغ من الصلّاة، يزحف  
على يديه وركبتيه مسافة خطوة واحدة، ليجلس مستندا بظهره إلى قاعدة  
العامود المربّعة، لكنّه لم يكن يفعل ذلك فور انتهائه من الصلّاة.

كان إذا سلّم التّسليميّة الثّانية، وهو ينظر إلى يساره، لا يدير وجهه للأمام  
قبل أن يتكلّم مع من يوقعه حطّه العاشر في الصلّاة إلى يساره.  
مرّة قال لـ "غنيمية": رائحة فمك رائحة جيفة كلب يا أبخر.  
ومرّة قال لـ "حمد": تقف تدوس بقدمك التي مثل حافر حمار على قدمي.

وفي مرّة قال لـ "سعدون": "تأكل تأكل تأكل ثم تدخل الكنيف تحراً ساعة!  
ثم مضى على يديه وركبتيه ليستند إلى العامود، وكان "سعدون" يقول: أنا لا  
أقعد أخراً في "الكنيف" ولكن تأخذني نومة.

ورغم أن "حجيزي" قد بدأ يهتمهم بتساويح أذكار بعد الصلّاة، إلّا أنه قطعها،  
وقال بغيظ: لا تحراً من مؤخرتك في "الكنيف"، وتبقى تحراً من فمك وأنت  
تصلّي بجواري!

ولأن "سعدون" هو أيضاً رجل عجوز جاوز الثمانين من عمره، فإنه لم يتحمّل  
كلام "حجيزي" وقال: ما أحد يخراً من فمه وهو يصلّي غيرك يا "حجيزي".  
حدّق "حجيزي" في "سعدون" مقتطبا جبينه، ثم قال: أنت يا "سعدون"  
كذاب وابن كلب.

اشتدّت المشاكسة بين العجوزين، وعلا صوتاهما، لكن بقي "حجيزي"  
مستندا إلى قاعدة العامود، وبقي "سعدون" جالسا راکها على ركبتيه، بينما  
صوت ضحكات خافته يخرج من صدور المصلّين القريبين منها، وهناك عند  
المنبر، بقي "مزید" جالسا مستندا إليه، يراقب ما يحدث حتى يتدخّل في  
الوقت المناسب.

حرّق "سعدون" بصوت غاضب: أنا كذاب وابن كلب!؟  
ثم أشار بسبابته إلى عجوز ثالث كان يصلّي إلى يمين "حجيزي" وهتف: اسأل  
"غنيمة" يقول لك.

لكن "حجيزي" أخذ يتمم ببعض التّساويح، وقد استغرق في الهمهمة، وبدا أن  
الأمر قد انتهى، وتبيّأ "سعدون" للقيام من جلسته هادئا، وكأنّه لم يكن

منفعلا منذ دقيقة واحدة، لكن وهو يحاول أن ينصب ظهره، سمع "حجيزى" يقول: "غنيمة" كذاب وابن كلب مثلك.

وما أن نصب "سعدون" ظهره، حتى سمع صوت "غنيمة" الذى يخرج يكركب: حاسب يا "حجيزى" ولم حديثك.

وعلت الكركبة الخارجة من حنجرة "غنيمة": يا شيخ "مزيد".

وبينا ينظر "مزيد" إلى "غنيمة" كان "حجيزى" يقول: "غنيمة" بالخصوص فى فه رمّة كلب.

وزعق "حجيزى": "غنيمة" بالخصوص أم نسيتم؟!

ضرب "سعدون" الهواء بذراعيه فترجح جسده البدين المترهل، ورفع صوته، وكان "مزيد" متّجها إليهم وهو يضحك.

قال "سعدون": يشتمنا فى بيت ربنا يا شيخ "مزيد"؟!

قال "مزيد" وهو يرقق صوته ناظرا لـ "حجيزى": ما ينفع يا عم "حجيزى" تشتم الناس فى بيت الله!

لوى "حجيزى" شفتيه، بما معناه أن الكلام لا يعجبه، ثم رجع يهمهم بالتسايح، واتّجه "غنيمة" بخطوات كسولة إلى باب المسجد، يتمايل بجسده المصوص وهو يتساند على ذراع "سعدون" السمين، وابتعد "مزيد" إلى النّاحية التى فيها أرفف عليها الكتب ذات الأغلفة السميكة المذهّبة، التى يقرأ لهم منها أحيانا فى الوقت ما بين أذان العشاء وإقامة الصّلاة، وقبل أن يخرج العجوزان من الباب، بالصّبط وهما يتساندان ليعبرا الحاجز الخشبى الواطئ، علا صوت "حجيزى": "عز" سندوها على "جاموسة".

علت برطمة "سعدون" وكرّبت حنجرة "غنّمة"، وهتف "مزّيد" بنبرة لوم:  
يا عم "حجّيزى"!

\*\*\*\*\*

حتى الشيخ "مزّيد" يترك المسجد ويذهب إلى بيته، ويبقى "حجّيزى" وحيداً، وليس معه إلا الشُّكون، فيسمع بجلاء شقشقة العصافير التي تنهياً ليوم جديد، وتنساب إلى المسجد نسّات لها رائحة البحر، يتعجّب لرائحة هذه النّسّات، فليس حول "الوعرة" بحر، ولا حتى بحيرة، حتى ترعة! فمن أين تأتي هذه الرّائحة المنعشة؟

"لا بد أن هذه الرّيح الطّيبة تسافر آتية من عند بحر العلمين".

شقشقات العصافير تبدأ في الخفوت، وتباشير نور الصُّبح تلوح وهي تزّيح الظّلام من أمام باب المسجد، الشّمس على وشك الشُّروق.

"من الذي بنى هذا المسجد؟".

يرفع رأسه ويتأمل السّقف، عالٍ نسبياً، وتحتّه تقاطعت عروق خشبية غليظة، تدلّت منها سلاسل حديدية قديمة خبا لمعانها، هل كانت هذه السّلاسل، زمان، تحمل قناديل زجاجية موشّاة بألوان متشابكة؟

ثم ترّع عيناه في تجويف القبّة، تجويف دقيق ومضبوط بالشّعرة، به فتحات مدوّرة متناسقة، هي التي يدخل منها الثّور الهادئ إلى صحن المسجد، وهي التي تنفذ منها رائحة ماء البحر، وعلى الرغم من أن القبّة تبدو من الخارج صغيرة نوعاً ما، إلا أن تجويفها يبدو من الدّاخل شاهقاً، ويسحب الرّوح.

"لماذا بنوه بدون نوافذ؟".

ينهض، ويتجه إلى الباب، يرفع إحدى قدميه ليعبر الحاجز الخشبي، ثم الأخرى، فيتلقاه الثور، واحمرار أفق الشرق، دقائق وتسطع الشمس.

صوت "مزيد" يتمايل في أذنيه: "اغلق باب المسجد بعد أن تخرج حتى لا تدخل البهائم".

يسحب الباب الثقيل وهو يبتسم، فقد كانت تلوح في عقله صورة الماعز المستندة على ذراع الجاموسة، "سعدون" و"غنيمة" وهما يخرجان من المسجد.

\*\*\*\*\*

خرج "بكير" مسرعا وراء أبيه، وكانت الدهشة التي أصابته وهو يرى "حجيزي" يترك المسجد قبل أن يصل إلى الصبح قد طيرت الثعاس الذي يغالبه وهو جالس ينتظر الصلاة.

- يا والدي!

كان "حجيزي" قد أيقن أنه مازال يعيش داخل الرؤيا، فلم يحدث أبدا منذ صار فتى يافعا أن ترك صلاة الفجر في المسجد، طالما هو موجود في البلد، ويتركها بهذه الطريقة الغريبة! عندما يحدث هذا فلا بد هو يحلم.

"أنا أخرج من المسجد وأترك الصلاة؟!"

"أنا كنت أصلي ركعتي السنة وقدمي في الخف؟!"

سمع نداء "بكير": يا والدي.

"حتى صليت من غير ما أتوضأ!".

انبسط وجه "حجيزي" من غير أن يبتسم، طالما أنه ما زال يحلم فهناك أمل في ألا يكون التفسير النهائي للرؤية هو الموت حتما بعد ثلاثة أيام.

”لكن هذه أطول رؤيا رأيتها في منامي! متى تنتهي؟! هذى بقت حكاية وليست رؤيا“.

- مالك يا ”حجيزى“ يا والدى؟ تركت المسجد قبل أن نصلى؟!  
”حتى صوت بكير مختلفا، عميقا كأنه خارج من بئر“.

وارتفع من عند باب المسجد صوت ”مزيد“ وهو يقيم الصلاة، فأمسك ”بكير“ بيد ”حجيزى“ يريد أن يستدير به ليعيده إلى المسجد، لكن ”حجيزى“ سحب يده، ومضى نحو البيت، بينما ”بكير“ هرول مسرعا عائدا إلى داخل المسجد ليلحق بالركعة الأولى، ووقف فى الصّف، وقلبه وعقله يضطربان من تصرفات ”حجيزى“.

\*\*\*\*\*

يا لروعة صدح العصافير فى الفجر. كان يسمعها دائما من داخل المسجد، فلم تكن نابضة بقوة كل هذا النبض، لكنها الآن شقشقات غزيرة تهمر مثل مطر اليتسول.

”حتمًا أنا أحلم“.

همس بارتياح: الحمد لله.

اتجه نحو المصطبة الصخرية التى كان نائما عليها، ومال ليطوى فرشته كما هو معتاد، لكنّه انتصب دون أن يطويها.

”هاه. أمانة جديدة على أنى مازلت أحلم، طوال عمرى أطوى فرشتى بعدما أستيقظ، وهذه المرّة لم أطوها“.

اتّجه إلى بوّابة البيت، بوابة كبيرة تتسع لمرور جمل مكتمل بأحماله، فدفعها ودخل متأثيا، كانت ”سريرة“ تجلس على ركبتيها وقد افترشت المصلاة تحتها،

تتلو التَّشَهُدُ وهي تحرك سبابتها اليمنى حركة رتيبة إلى فوق وتحت، بينما كفأها يرتاحان على ركبتيها، ووقف برهة يتأمل "سريرة".

"من زمن طويل لم أر سريرة وهي تصلي. وعزة جلال الله أنا في حلم".

ومضى يخرج من مدخل البيت الوسيح إلى صحنه الخلفي الشاسع الإِسَاع، المزروعة فيه شجرة تين عمرها أكبر من عمر أبيه "شديد"، الذي مات من سنين لا يعلم عددها.

- يا "حجيزى".

نادت "سريرة" بصوتها الذى شرخه الزمن، إذ أن "سريرة" امرأة عجوز أكملت عامها السبعين.

"بكير يقول هذا".

التفت "حجيزى" إليها ببطء ممزوج بالاندهاش، فرآها تنظر إليه هي الأخرى مندهشة، لكنّه لم ينتظر ما ستقول، هو يتوقّعه، وإنما هزّ ذراعه، ومضى إلى فسحاية البيت.

"ستقول لى لماذا جئت مبكراً من صلاة الصُّبح؟"

"ماذا أقول لها؟ إنتى أحلم!".

"لكنّها نادتنى باسمى! سريرة قالت يا حجيزى! أنا مازلت فى الرّؤيا".

وعندما وصل إلى التينة، جلس على "الدَّكَّة".

غبشة الفجر، ودجاجات تتقاذف تنط من فوق أغصان التينة إلى الأرض، ووجه "حجيزى" بدا الآن واجهاً، لقد ضرب ضارب قلبه: "أنت لا تحلم يا

حجيزى، ليست هناك رؤى بهذا الطول، الرؤيا حدث سريع وينتهى، بينما أنت الآن ترى تفاصيل حياتك“.

- يا ”سريرة“.

”وأنا أنادى سريرة باسمها؟!“

كانت ”سريرة“ قادمة تتوكأ على عصا من جريد النَّخل الجاف، بينما تحمل بيدها الأخرى إناء من الفخَّار مملوءًا باللبن الرَّائب، فطور ”حجيزى“ الذى يعشقه.

- ”مستعجل دائماً! اصبر“.

قالتها وهى متذمِّرة كعادتها، وستضع الإناء بجواره وهى تقول: ما فى مرَّة تأخذ الإناء من يدي وتريجنى!

وستستدير وهى تتوكأ على عصاها لتمضى عائدة إلى مدخل البيت، بينما تقول كلاما يسمعه ولا يفسِّره.

فى كل صباح، لا يأخذ منها الإناء، لأنه يريد لها أن تضعه بجواره وتجلس معه وتحكى له، لكنَّها لا تفهم، وهو لا يجب أن يوضِّح أموراً يجب أن تشعر بها امرأة الرَّجل من غير إشارة.

لكنه اليوم، ولأول مرَّة منذ زمن بعيد، هتف يناديها قبل أن تأتيه، كان يريد أن يحكى لها عن حاله القاسى الذى قلب كيانه.

\*\*\*\*\*

عندما يجلس ”حجيزى“ على الدكَّة تحت التينة، يكون الباب الجردى لحظيرة الأغنام على يمينه، ولَمَّا يجلس تبدأ الأغنام فى الحركة، وبعضها يطل عليه من



خلف شبكة الباب الجريدي، تكون الشمس قد أشرقت، ويكون "حجيزي" يدلّق في جوفه آخر قطرات من اللبن الرائب عندما يعلو ثغاء الأغنام والماعز فجأة، فهي تعرف أن "حجيزي" سيضع الإناء فارغا على "الدكة" ثم يتجه إليها، ليجذب الباب ويفتح الطريق لها لتنتقل من الباب الخلفي للبيت، إلى مرعاها البعيد في قلب الصّحراء.

لم تستدر "سريرة" لتمضي مبتعدة كعادتها كل يوم، كما لاحظ "حجيزي" أن الأغنام لا تتغو كالمعتاد، فقال وهو ينظر ناحيتها: مالها صامتة! قالت "سريرة": الشمس لم تشرق بعد، وأنت ما صليت الفجر في المسجد، خيرا!

وانتهت إلى أنه لم يمدّ يده نحو الإناء بلهفة مثل كل صباح.

كان يفكّر "يقول لها، أم لا يقول؟" عندما ظهر "بكير" ووجهه مربدًا بالانزعاج، وهروا ناحية "حجيزي"، وجلس بجواره وبينهما الإناء.

- مالك يا "حجيزي"؟! لماذا لم تُصلّ معنا؟!

لم يكن "حجيزي" يعرف كيف يقول ما هو فيه، فبقى صامتًا، وكانت الأمور تسوء بالتسبب إليه، وتمتّى، أكثر من أى وقت مضى، أن يكون كل ما يحدث الآن هو حلم، حتى لو كان حلما رذلا.

"حلم رذل خير من حقيقة رذلة".

- يا والدي، تدخل المسجد والحف في قدميك!؟

"سريرة" بلحقت عينيها، كانت عيناها، رغم ذلك، ضيقتين كخرزتين غطّاهما سحاب شفيف.

- تسكت يا "بكير" أم اضرب وجهك بالقعبة؟

وامتدّت يد "حجيزى" نحو الإناء المملوء باللبن الرائب.

وقف "بكير" يتحاشى غضبة "حجيزى" وقال: خلاص يا "حجيزى".

ثم قال: البشّيح "مزيد" وبعض رجال "الوعرة" جاءوا يطمئنون عليك.

- جاء معهم "سعدون"؟

كان "حجيزى" يسأل هذا السؤال وهو يمدّ يده نحو القعبة ليشرّب ما فيها.

التفت "بكير" إلى "سريرة" وقد فتح فمه مشدوها، وهمس متعجبا:  
"سعدون"؟!

ثم نظر إلى أبيه وقال: "سعدون" مات بالأمس يا والدى، وأنت غسّلته،  
ودفنته.

وارتعد قلب "سريرة"، وكادت تسقط على الأرض، ووقف شعر "بكير"، لمّا  
عوى "حجيزى" وهو يقوم ويمشى نحو الباب الخلفى: يا "سعدوون"، يا  
"سعدوون"، دفنوك يا "سعدوون".

ثم يدوخ ويقع.

## تَعَالَ انظُر لِعَظْمَةِ رَبِّكَ

كان "حجيزى" قد صَلَّى الفجر في المسجد، وجلس جلسته التي يُسَبِّحُ الله فيها، ويشم النسيم الذي لا يشك أبداً في أنه قادم من عند بحر "العلمين"، ويستمتع لشقشقات العصافير البعيدة، ويسأل نفسه عن كيفية بناء هذا المسجد، في هذا اليوم طراً على عقله سؤال: "ماذا تعنى كلمة النُّشور؟".

"الدُّعاء كله ماذا يعنى؟! والله الشَّيخ مزيد هذا يُعَلِّمنا كلاماً من رأسه له العجب، قال "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشور"، أقوله بعد ما استيقظ! لِمَاذا أقوله بعد ما أستيقظ؟! التَّوْم ليس موتاً حتى أحمد الله بعدما أستيقظ على أنه أحيانى!...".

ولم يكمل "حجيزى" تأمُّلاته، إذ أن "سعدون" ملأً بجسده البدن باب المسجد، يقف وهو ينهج، وجسده يرتعش، وقال بصوت متقطِّع: قُمْ يا "حجيزى"، تعال انظر لعظمة ربك.

وبينما هو يقوم، وضع السَّبَّحة في سَيِّلته، وقال: مالك يا آكل أهلك؟!!

خرج "حجيزى" من المسجد، ومشى بجوار "سعدون"، ودخلا في مدق بين بيوت مبنية من الطوب الرَّملى تتساند إلى بعضها، حتى وصلا إلى بيت "سعدون".

هسيس الصَّباح يطلع بطيئاً، ونور رضيع يجبو في مشارق السماء.

قال "سعدون" وهو يفتح البوابة الثقيلة: أمور ما يُجرِّبها إلا صاحب العظمة.  
دخلا البيت، وعبرا المدخل الصَّيق كدهليز، كلما عبر "حجيزى" هذه المداخل  
الصَّيقة لبيوت الـ "الوعرة" حمد الله أن بيته ليس مثل هذه البيوت، نعم هي  
تتَّسع بالداخل، حيث الأماكن التي يُحَقِّف فيها الزَّيتون والبلح في موسميها،  
وحيث الزَّرائب أيضا، وأحواش البهائم وغرف الخزين، لكنها ليست متَّسعة  
مثل بيته، ومثل البيوت الأخرى التي بُنيت حديثا على مشارف البلد.

ألقي "حجيزى" نظرة سريعة إلى هذه الغرفة التي مازال على بابها قفل كبير،  
وهمس محدِّثا "سعدون"، الذي يتقدَّمه إلى الحظيرة التي ليس بها إلا بعض  
طيور، وخمس نعجات: متى تفتح هذه الغرفة يا بني آدم؟ مضى على الذى  
حدث سنين طويلة.

لم يرد "سعدون"، وإنما فتح بوابة الحظيرة، وأشار إلى شيء لم يتبين  
"حجيزى" ملامحه.

اقترب "حجيزى" أكثر وهو يهمس: ما هذا؟!

نور السماء ضعيف، لكنَّه استطاع أن يميز دلوا من الصباح، وقد انكفأ فيه  
شيء ما.

وكان يقترب أكثر ليرى جيدا، ويقول: هه؟ ما هذا؟!

فقال "سعدون": عميت يا "حجيزى"؟!

فزعق "حجيزى": ما شقشق الثور بعد يا بغل.

- هذا ذكر الإوز، غرق في دلو المياه!

شهق "حجيزى"، وقال: ذكر إوز يغرق في دلو مياه؟!

قال "سعدون": هذه الطيور لا تغرق في البحور، لكن إذا أراد الله، تغرق في شبر مياه.

وقال "سعدون": رأيت العظمة؟!!

مدّ "حجيزي" يده وقبض على ذيل الطائر ورفعها، قال: أنا رأيت الحكمة.

كانت رقبة الطائر قد تيبّست ملتوية نحو جناحه الأيسر، وثمة فرع التصق بعينه، بينما منقاره مفتوح نصف فتحة، وكانت المياه تقطُر منه.

ونظر "حجيزي" في قعر الدلو، ثمة مياه قليلة ما كانت لتغرق الطائر لولا أنه انحسر في الدلو.

تلقت "حجيزي" ينظر في نواحي الزّربية، كان يبحث عن شيء.

- ألا تضع إناءً منخفضاً تشرب منه الطيور؟

أشار "سعدون" إلى جوارهما: ها هو الإناء، قلت لك أنت صرت أعمى.

كان "حجيزي" مازال ممسكا بالطائر الغريق، فرفعه إلى فوق، وأخذ ينظر في عينيه.

- عجائب يا "سعدون"، في عينيه نفس النظرة التي تكون في عيون الناس لما يغرقون.

اقترب "سعدون" وأخذ ينظر في عيني الطائر، وهمس: أنا لم أر عيون الغرقى من قبل.

نظر "حجيزي" إليه مقطباً جبينه: ما رأيت عيني "صالح" ولد "سعداني"؟!!

تفتّحت السماء فوقها بلون أزرق كثيف.

"سعدون" اربدّ وجهه فجأة، وقال: نعمل دور شاي.

وبينما يتَّجه إلى أحد الأركان ليأتي بالشَّاي والسُّكَّر، قال: "صالح" ولد "سعداني" أخرجوه من البئر بعين واحدة. ولم أرها.

أخذ يشعل النار في الكانون، وصمت طويلا قبل أن يتكلَّم، وكان يضع الكنكة في النَّار: يا أخي أنا قرفت من الموت وسيرته.

ثم سرَّع صوته فجأة، وجسده الصَّخْم ارتج، وأخذ ينادى بصوت مخنوق: يا "جميل"، يا أم "جميل"، يا وُلدي، يا أم "جميل"، يا "زليخة".

هروِل "حجيزي" وبيده طائر الإوز الغريق نحو "سعدون"، الذي جلس على الأرض منهارا، واستند إلى الجدار، ورفع وجهه إلى فوق: النَّار أكلت "جميل" يا "حجيزي"، ما أبت منه عينا ولا حتى إصبع رجل، يا وُلدي.

ربت "حجيزي" على كتف "سعدون": سنون مضت يا "سعدون". لماذا تتذكَّر الآن....

لم يكمل "حجيزي" كلامه، إذ أن "سعدون" ضرب الطَّائر الغريق بكف يده، فأطاره من قبضة "حجيزي"، وزعق: أنت أتيت بسيرة ولد "سعداني" يا "حجيزي".

غلى الشَّاي وفار، وتصاعد دُخان من الكانون يحمل رائحة شاي بسكَّر محترق.

"حجيزي" نظر إلى الطَّائر الذي طار ثم اصطدم باباب الزَّربية، وسقط منقلبا على ظهره، ورأى "سعدون" يقف يعمل شايا جديدا.

جلس "حجيزي" على الأرض واستند بظهره إلى الجدار: أنا أعرفك يا "سعدون"، أنت ابن كلب، أنا كنت قاعد في المسجد مع نفسي، وجئت تهرول إليّ وتقول تعال انظر إلى العظمة.

وأردف: أنا جئتُ إليك أم أنت جئتُ إليّ؟!

- احك يا "حجيزى" فى سيرة أخرى غير الموت.

مد "حجيزى" يده، وتناول كوب الشاي من "سعدون" وصمت.

كان نور الصباح قد انسكب، وملاً الأرض، وكان "حجيزى" قد أفرغ كوب الشاي بثلاث رشقات طويلة، ونهض واقفاً.

- أروح إلى غنمى أراها.

وبينما "حجيزى" يمضى يريد الخروج من بيت "سعدون" سمع صوته يخرج من حنجرته محشوراً: خلاص يا "حجيزى" أنا كرهت الموت.

كان "سعدون" يتكلم وهو ينظر إلى جثة الطائر المقلوب على ظهره، وقد التصقت ساقاه بريش مؤخرته.

وكان "حجيزى" يمضى نحو البوابة، فنظر إلى الحجرة المغلقة بالقفل، وحاول أن يجعل صوته عالياً وهو يقول: لو كنت كرهت الموت حقيقة افتح هذه الغرفة!

فنظر "سعدون" إلى الغرفة.

\*\*\*\*\*

"مهما حكينا من قصص ممتعة، لم نكن نستمتع بساعها مثلما كنا نستمتع بساع حكايات الموت".

خطا "حجيزى" من البوابة فصار خارج بيت "سعدون"، وما أن مشى خطوتين حتى توقف، وهمس لنفسه: ما قلت لـ "سعدون" الحكمة التي رأيتها.

استدار عائدا إلى بيت "سعدون"، لكنه ما أن خطا خطوة واحدة حتى تصلبت قدماه، وغامت البوابة في رؤية عينيه، وانسحب نور الصباح الرباني فجأة ليكون ظلام منتصف الليالي، وأنوار السنة لهب عظيمة تتقلب على جدران البيوت المتصقة ببيت "سعدون"، وناس "الوعرة" يجرون قادمين نحو بوابة "سعدون" وهم يتصايحون، وصياحهم يمتزج بهسيس النيران وهي تأكل البيت من الداخل، وخشب تعلو طقطقاته، وثناء مدعور، وصرخات امرأة ملتاعة: يا "جميل"، يا ولدى.

رأى "حجيزى" نفسه وهو يغالب تدافع الناس الداخلين والخارجين، ثم وهو يدلف إلى داخل الدار.

وعندما دخل راعته التيار الفتاكة، وراعه هزيمها وهي تتبلع نظام البيت ولا تبقى منه إلا الرماد، كانت النيران تزوم مثل ضباغ تخشى ضياغ الرّم، وأم "جميل" تصرخ صرخات الموت، وهي غارقة في التيار التي عبأت حجرتها، والناس ينظرون إلى جسمها الذى يذوب ويتراقص مع تراقص الألسنة المسعورة، بينما تحتضن جسدا صغيرا يتراقص ويذوب هو الآخر، ورغم أن العجز ملاء عيون الناس، إلا أن أيديهم العفيفة كانت تدفع، بكل ما أوتيت من قوّة، بالأواني، فتنتطق منها الرّمال مثلما تنطلق من بؤرة عاصفة.

"أين سعدون؟!"



أخذ "حجيزى" يُنقل عينيه فى وجوه الناس المحمّرة باللهب، يبحث عن "سعدون"، ويحترق الرّحام، حتى استطاع الوصول إلى عمق البيت، حيث الرّيبة.

التيران أفاعٍ عظيمة تلتهم كبد السماء، وتلتهم الأغنام، التى أفلح النَّاس فى فتح باب حظيرتها، تتقاذف فرعة، وقد أمسكت التيران فى أصوافها، إلى خارج الرّيبة، ثم تنطلق إلى الصّحراء من الباب الخلفى مثل سهام مُفوّقة. كان البعض يرمى بالرّمال على الأغنام محاولاً إطفائها، فإذا انطفأت نيران إحداها ظلّت تتقاذف، بينما ينبعث منها دخان برائحة الصوف المحترق.

"أين سعدون؟!"

غرفة الخزين، الغرفة الوحيدة فى البيت التى لم تكن التار قد مسّتها، كان باها مغلقاً، ومع أنه لا أحد من أهل "الوعرة" ينام فى غرفة الخزين، إلا أن "حجيزى" فكّر فى أن "سعدون" ربما يكون نائماً فيها، فدفع بيده باها المغلق فانفتح بسهولة، ولمح على ضوء التيران الجسد الصّخم ملقى على أحد الأجوّلة المملوءة بغلال الدّرة الشاميّة.

لأوّل وهلة ظنّ "حجيزى" أن "سعدون" ميت، فاقترب منه ببطء، وهو يفتح فمه متهيّئاً للصراخ، لكنّه لما اقترب منه تماماً لاحظ أن جسده يرتعش، كان "سعدون" مستلقياً على ظهره وذراعه مفرودتان ومرميتان متدلّيتان على جانبي الجوال الذى كان ينام عليه، وحُيّل لـ "حجيزى" أن "سعدون" فاتح عينيه، كان فى الحقيقة مسبلاً عينيه، وعرق غزير يتفصّد من جبينه، كأنه

يصارع وحشا، فصدره يعلو ويهبط من غير نظام، ويأخذ نفسه خطفاً،  
فيشخر مثل بقرة تذبح.

- "سعدون".

صرخ "حجيزي" وهو يلطم بيده وجه "سعدون" لكمة خفيفة، لكن  
"سعدون" لم ينتبه، كان يزوم، ويجرك رأسه كأنما يتعارك.

- "سعدون".

كان "حجيزي" ينادى عليه وقد قبض بيديه على جانبي رقبته، وأخذ يهزّه هزّاً  
شديداً، فاستفاق "سعدون"، واعتدل وهو يلهث، وهتف بصوت مخنوق:  
كابوس شديد يا "حجيزي".

أخذ "حجيزي" يمسح بطرف جلاببه العرق من جبين "سعدون"، ويقول:  
خيرا، خيرا.

قال "سعدون": رأيت يا "حجيزي" الثَّار تَأْكُل البيت. أَكَلت "جميل" وأم  
"جميل"، وكانت...

ولم يكمل كلامه.

هوى "حجيزي" برأسه إلى الأمام فسقط على صدر "سعدون"، وأخذ  
يعوى، ورأى "سعدون" من فتحة الباب ألسنة الثَّار، والثَّاس يروحون  
ويجيئون وهم يصرخون.

دفع "سعدون" جسده "حجيزي" عنه ووقف مبهوتا، وهمَّ بالخروج، غير أنه  
فجأة جلس مكانه مرّة أخرى بهدوء، وظلَّت ألسنة النيران تتلوى في بؤبؤ  
عينيه.

\*\*\*\*\*

وأذن للصلاة من يوم "الجمعة".

"الجمعة" الأولى بعد ليلة "الثلاثاء" الحزين، ليلة النار.

وكان المؤذن دائما هو "سعدون"، ولم يكن أذانه هذه المرة مثل أى أذان أذنه من قبل.

صعد الدرجات إلى سطح المسجد بتناقل شديد، وعندما صار فوق السطح غرق في وهج الشمس، ودارت عيناه تمسحان وسع الصحراء، وتصطدمان بالصخور الضخمة البعيدة، عجيبية الأشكال، التي نبتت من الرمال، صخرة تشبه نصف بغل خلفى من غير ذيل، وصخرة تشبه رأس ديك رومى من غير منقار، وصخرة تشبه صدر عذراء مدفونة منتصبه من غير رأس، وصخرة لم ير ما يشبهها، واقفة بعيدا بعيدا، ضخمة في حجم عمارة من عمارات "أسيوط" التي ترتفع لعشرة طوابق، وصخرة تشبه أم "جميل" وهي تضم إلى صدرها "جميل"، ترضعه.

وجرت مياه في عينيه، ورفع كفيه إلى أذنيه وناح: الله أكبر، الله أكبر.

وشهق، ورفع عينين إلى السماء مملوءتين عتبا، وناح ثانية: الله أكبر، الله أكبر.

وانسكبت دموعه.

قال "سعدون": أنا أذنت يا "حجيزى" قدر ما أذنت، ما شعرت بجلاوة كلمة "الله أكبر" مثل ما شعرت بها وقتها...

وسكت قليلا، ثم قال: وأنا أعرف إنه هو الذى أحرق عيالى...

وسكت، ثم قال: تعرف يا ”حجيزى“! أنا ما أستطيع أن ألومه، دائماً يلتي ما أطلبه منه، ويحضر لى ما أعوزه، وأنا المخطئ فى هذه الليلة، أنا الذى قلت لـ ”بثينة“: الله يحرقك أنت وولدك.

وجلجل صوت ”سعدون“ فوق سطح المسجد: أشهد ألا إله إلا الله.

صاح بها منفصلاً عن الدنيا، فسالت دموع ”مزيد“ وهو جالس على المنبر يتهياً لخطبة ”الجمعة“.

يا لروعة ”لا إله إلا الله“ لما تخرج مخلوطة بجزن القلوب.

وتضوع صوت ”سعدون“ وهو ينطلق فى سماوات الصحراء، وفى سماوات المسجد: أشهد ألا إله إلا الله.

ورفع المصلون الجالسون فى صحن المسجد وجوههم إلى البقعة من السقف التى يقف فوقها ”سعدون“، مآقيهم بجيرات طاف عليها سؤال ”مالك يا سعدون تقطع قلوبنا؟!“.

قال ”سعدون“ لـ ”حجيزى“: قلت ”أشهد ألا إله إلا الله“ وتذكرت أنتى ظللت أدعوه أنا و”زليخة“ ثلاثين سنة لكى يعطينا ولدا، وظللت أدعوه أنا و”بثينة“ عشر سنين أخرى، أربعين سنة أدعوه يعطينى الولد، ولتى دعائى وأعطانى، ولما قلت لـ ”بثينة“ فى ساعة غضب ”الله يحرقك أنت وولدك“ لتى دعائى بعد ساعتين! طيب....

وسكت قليلاً، ثم قال: كان انتظر أربعين سنة ثم لتى..

وسكت، ثم قال: أنا فرحان أنه يلتي دعائى..

لكن "حجيزى" نظر فى عينى "سعدون" وقال: فرحان يا "سعدون"؟! قال "سعدون" وهو يُجَفِّف زوايا عينيه بطرف جلبابه: فرحان.

كانت الريح تصفق جلباب "سعدون"، وكان قد ضمَّ كفيه حول أذنيه مستغرقا فى الأذان: أشهد أنّ محمّدا رسول الله. وانغلقت حنجرته وانفتحت، وارتعشت شفتاه.

قال "سعدون": تذكّرت كلام الشيخ "مزيد". ونظر فى عينى "حجيزى" وقال: تذكّر كلامه؟

هزَّ "حجيزى" رأسه بالنفى، ونظر إلى بعيد، حيث السماء ترتطم بالصّحراء، وقال: أى كلام؟ الشيخ "مزيد" يتكلّم كثيرا.  
- ما من مصيبة إلا وموت رسول الله أعظم منها.  
- عليه الصلاة والسلام، أتذكّر هذا الكلام.

قال "سعدون": حزنت على رسول الله ونسيت "جميل" وأم "جميل". أدار "حجيزى" رأسه لينظر فى عينى "سعدون"، كانت نظرة شاكّة، كأنه يريد أن يقول له: أنت كذاب يا "سعدون".

الريح تحمل الصّهد، و"سعدون" يستدير إلى اليمين بأعلى جسده، ويزعق: حى على الصّلاة.

فتلمح عيناه أطراف بيته المحترق، ويختنق صوته.

قال "سعدون": أنت يا "حجيزى" ترحل إلى "موط"، وتغيب عن "الوعرة" أياما، وتغيب أسابيع، لكن أنا ما كنت تركت البلد حتى للرعى، وما تركت فرضا إلا وصلَّيته في المسجد..

وسكت قليلا، ثم قال: في كل صلاة أطلب منه الصَّحة والسَّتر.

وتهمَّد طويلا وهو ينظر إلى بعيد، حيث ترتطم السَّماء بالأرض، وارتشف رشفة من الشَّاي، وقال: تُجيد "سريرة" عمل الشَّاي.

وقال: ما يستر الرجل عند الموت إلا عياله، أين العيال؟

وخرج صوت "سعدون" مثل ضب يزحف على بص متأجج: حى على الفلاح.

استدار بأعلى جسده بطيئا نحو اليسار، ليكمل النداء، فرأى الصَّحراء والضُّخور الشَّاهقة الثَّابتة، ورأى المدق المسافر إلى "موط"، رفيعا مثل خيط أبيض يتعلق بالأفق، ورأى فى المدق ناقة تركض لها رأس شيطان، تركها "بثينة" وقد احتضنت "جميل"، وتصدع بهما إلى الأفق.

صبَّ "حجيزى" فى الكوب الفارغ شايا آخر، ومدَّه لـ"سعدون" وقال: اشرب، اشرب.

قال "سعدون": وأين الفلاح، وأنا رجل قاربت على السبعين من عمرى، وليس لى ولد؟! ولا حتى زوجة عاقر!

شهِق "سعدون"، وأشاح "حجيزى" بوجهه بعيداً، يدارى دمعتهين تنزلقان على جانبي أنفه.

كان "سعدون" على سطح المسجد قد شعر بنفسه يدوخ، وكان يشعر أنه لم يكمل الأذان بعد، فاستند بيده إلى صهريج المياه، فلسعته سخوته، وحاول أن يقف متوازناً، ورفع كفيّه إلى أذنيه، وتحشّج صوته: لا إله إلا الله.

رفع وجهه إلى السماء، ثم مال بوجهه لينظر إلى بيته المسود بلون حريق الثّار، فرأى "بثينة" جالسة في الفسحاية أمام الحظيرة تُرضع "جميل".

للحظة تهلّل وجهه فرحاً، لكن سرعان ما غامت الدّنيا في عينيه، ودارت فجأة، فالتوى جسده، وشعر برأسه ينفصل، ثم يطير ويسقط بين الصّخور.

\*\*\*\*\*

وقف الشّيخ "مزيد" على المنبر.

- الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً، حمداً واسعاً، حمداً مباركاً فيه، حمداً يملأ السّماء، ويملاً الأرض، ويملاً ما بينهما، ويملاً ما شاء من شيء بعد.

وتنحّج الشّيخ "مزيد".

- وأصليّ وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، خير خلق الله أجمعين، خاتم النّبيين والمرسلين، صلاة وسلاماً دائماً متلازمين إلى يوم الدين.

وبعد برهة صمت قصيرة قال: أما بعد...

عجيب، المسجد ضيق، لكن صوت الشيخ "مزيد" يتردد بين جدرانه كأنه يتردد بين صخور الصحراء.

- يقول الله تعالى في محكم تنزيهه، بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: "وَتَبَيَّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ".

كان "سعدون" يجلس مستندا إلى أحد جدران المسجد، ويضع ذراعه مفرودة على ركبته اليمنى المنصوبة أمامه، بينما فرد ساقه الأخرى، صدره يعلو ويهبط، ورفع وجهه ينظر في فراغ القبة.

"سعدون" عندما سقط، بعدما أنهى الأذان، أحدث ارتطام جسده البدين بأرضية السطح صوتا مكتوما داخل المسجد، فهرع بعض المصلين إلى السطح، وحملوه، وبصعوبة شديدة نزلوا به عبر السلم العتيق الضيق، وما أن مددوه على الأرض حتى أفاق.

قال الشيخ "مزيد": ولقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أشد الناس ابتلاء الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل، فالأمثل. ولقد ابتلى أخونا "سعدون" ابتلاء عظيما منذ ليلتين، فإن هو صبر، صار من هؤلاء الأمثل الكرام، ففاز فوزا عظيما، ولتعلم أخي المسلم، أنه كلما عظم إيمانك عظمت مصيبتك...



يرفع الشيخ "مزيد" عقيرته مواصلا خطبته، ورغم ذلك، "حجيزى" الجالس مستندا بظهره إلى العامود الكبير في منتصف صحن المسجد سرح بفكره.

"سعدانى ما صلى لله ركعة منذ ولدته أمه، لم يكن عظيم الإيمان يوما، وغرق ولده الصغير فى بئر الرّاهب!".

كان الشيخ "مزيد" يهتف: لم يبلغنا عن أجدادنا الأوّلين قط، أن نارا أكلت خيمة، فما حاجة أجدادنا إلى مصاييح فى خيام سيطوونها فى اليوم القادم، ليرتحلوا خلف قطعانهم؟! لكننا لما خالفنا طبائعنا البدوية الأصيلة، وملكنا الأرض مثلا ملكت الفلاحين أتباع أذئاب البقر، كان على الأرض أن تعاملنا مثلا تعاملهم، وتحرقنا مثلا تحرقهم، وهبكم الله صحراء الذهب وحركة وتغييرا، فأثرتم أرض الطين وسكونا وثباتا.

زعم الشيخ "مزيد": الحركة هى الحياة، والسكون موت، ووقتا كان أجدادنا يتحركون بخيامهم لم تكن هناك حرائق، لأنهم كانوا أرباب الثّار، يسخّرونها ولا تسخّروهم، كانت كعبد لا يجوز دخوله خيمة سيّده ليلا، الآن نحن عبيد الثّار، تسخّرنا ولا نسخّرها، لأنه قد صارت لنا بيوت ثقيلة لا تتحرّك، فيها أفران للخبز، وكوانين للطبخ، وغرف مظلمة تطلب نور الثّار، ولياليها المدلهمة لا بد لها من إضاءة...

كان "حجيزى" يهز رأسه مؤيدا كلام "مزيد"، وهو ينظر طويلا إلى كلمات غائرة فى جدار المسجد المواجه للمُصلّين على يسار المنبر، كتابة لم يفلح الطلاء بالجير فى إخفاءها.

”كلام كتبه فارس مملوكى هرب من العثمانيين، وكان قد فعل فيهم الأفاعيل فى معركة...“

تبدو الحسرة فى تجاعيد وجه ”حجيزى“، وهو يهمس لنفسه: دائماً أنسى اسم هذه المعركة.

نظر إلى يمينه، كان ”غنيمة“ يجلس بمحاذاته بعد ثلاثة رجال.

”غنيمة لا ينسى اسم هذه المعركة أبداً.“

ونظر إلى حيث يجلس ”سعدون“ مستنداً بظهره إلى الجدار، رافعا وجهه إلى فراغ القبّة.

”وسعدون أيضا“.

وارتفع صوت الشّيخ ”مزيد“: بيوتنا تبقى طعمة سهلة للنيران، مادام ليس هناك ماء، إلا الماء الصّعب، ماء الآبار، وطالما ليس هناك طريق أسفلى يربط بين ”الوعرة“ و”موط“، الطريق هو صك اعتراف الحكومة بوجود ”الوعرة“، الطريق منذ زمن هو حلم أهل ”الوعرة“، لكنهم لا يملكون إمكانياته.

الطرق الأسفلية للمدن الكبيرة، و”الوعرة“ مجرد قرية صغيرة، قرية بدوية، محصولاتها الزراعيّة بالكاد تكفيها، أما الثّمر والرّيّتون الذين يفيضان فقوافل الجمال تقوم بالمهمّة عبر المدق الضيّق، فلماذا تحمّل الحكومة نفسها تكلفة طريق أسفلى سيمتد فى عمق الصحراء لأكثر من مائة كيلو متر من غير فائدة تجنيها؟

يعلو صوت الشيخ "مزيد": الطريق تخميننا من الحريق، وإذا كنا غير مستطيعين للعودة إلى الخلف، فليس هناك محرب من التقدّم للأمام، لنطالب بالطريق، وفي يوم سيتحقق المطلب، ثم نطالب بأنبوب ماء يجري بمحاذاة هذا الطريق، نشرب منه، ونطفئ حرائقنا به.

القضية لا تهم "حجيزي"، بل إنه ضد فكرة الطّريق تماما، الطّريق التي حتما ستأتى بالغرباء، وأخلاقهم الرديئة، وإذا كان من الممكن أن تكون الطّريق حلما لأهل "الوعرة"، فهو حلم بعيد التحقيق، وأجل "حجيزي"، الذي عمره تجاوز المائة عام، قريب، لن يعيش ليرى هذه الطّريق.

القضية لا تهمّه، فأخذ يحملق في الكتابة المنحوتة على الجدار يسار المنبر، ويتذكّر "غنيمة" لما حكى له قصّتها.

"بقي العثمانيون هنا شهورا يبحثون بين البدو في الواحات عن...".

يهز "حجيزي" رأسه متضايقا، اللّسيان آفة، لقد نسى أيضا اسم الفارس المملوكي الذي دوّخ العثمانيين في صحراء الغرب.  
"أسماؤهم ثقيلة...".

قال "غنيمة": ما إن أنهى العساكر العثمانيون بناء هذا المسجد، حتى صلّوا فيه أول صلاة، كانت صلاة العشاء، ولما جاءوا ليصلّوا صلاة الفجر وجدوا هذه الكتابة منحوتة على الجدار في مواجهم، وتخرج لهم لسانها...

كان "غنيمة" يحكى بقلب فائر، وقد صار الفارس المملوكي "شقمق بيك" بالنسبة إليه بطلا مغوارا، ولا حتى "أبو زيد الهلالي" يدانيه في البطولة، ف"أبو زيد" الهلالي غالبا يحارب في رفقة الفرسان، وكان أحيانا يقود جيوش،

لكن "شقمق بيك"، كان وحده يلعب بكرامة جيش إمبراطورية العثمانيين في الواحات، وأهانهم إهانات بالغة.

سأل "حجيزى" "غنيمة" وهو يلحن جملة بالقراءة: وماذا تقول هذه الكتابة يا "غنيمة"؟!

نفخ "غنيمة" صدره، يستعد لالقاء أعظم كلمة قالها أعظم فارس مغوار، قال: صليت بينكم بالأمس صلاة العشاء.

فتح "غنيمة" عينيه منبرا، في كل مرة يقرأ هذه الكلمة كان يفتح عينيه منبرا، يقلبون عليه الصّحراء، ويحثون عنه وراء كل صخرة، ويفتّشون عنه محور الضّبان، وهو واقف بينهم يصلى العشاء، ولا يشعرون به!

تجلى صوت الشيخ "مزيد": أقول قولى هذا، وأستغفر الله لى ولكم. وبسط "حجيزى" كفيه يدعو الله، لكن عينيه كانتا مازالتا متعلقتين بالكتابة المنحوتة.

قال "غنيمة": ونحت الفارس اسمه تحت الكتابة. وأجرى "غنيمة" طرف سبّابته على الاسم المنحوت: أهأاا.. "شقمق" بيبيك.

انفرجت أسارير "حجيزى": تذكّرت اسم ابن الملعونة.. "شقمق" بيك.

وقال الشيخ "مزيد": قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما من يوم جمعة إلا وفيه ساعة إجابة، فادعوا الله مخلصين عساها تكون هذه السَّاعة، اللهم يا أرحم الراحمين، ويا ملاذ المستضعفين، ويا مُجبر المظلومين، اعف عَنَّا، واغفر لنا، وارحمنا....

وكان "حجيزى" يقول: آمين.

والمسجد ازدحم تماما بالمصلين، وكل المصلين يقولون: "آمين"، فتخرج "آمين" واحدة كالهدير، "آمين" تغازل جدران المسجد فترعشها، قبل أن تنطلق من فتحات القبَّة إلى لُجج السَّماء.

كان "حجيزى" يقول "آمين" وهو لا يسمع صوت "مزيد"، وإنما كان صوت "غنيمة" هو الذى يطغى: الأتراك قرأوا الكلمة التى نحتها الفارس فارتخت آذانهم مثل كلاب خائبة، ولمَّوا أغراضهم، وما جاءت صلاة الظُّهر فى اليوم التالى إلا وكانوا قد رحلوا من "الوعرة".

وجاء صوت "مزيد": والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، قوموا إلى صلاتكم يرحمنى ويرحمكم الله.

نزل "مزيد" درجات المنبر، وحصلت حركة فى المسجد، النَّاس يقفون ويصطفون وهم ينظرون إلى أمشاط أقدامهم، يسوون الصُّفوف، و"سعدون" لم يقف، وإنما جلس على ركبتيه مستقبلا القبلة.  
- "الله أكبر".

قالها "مزيد" خاشعا، وانتشرت همهمات المصلين بالتكبير.

وسمع "حجيزى" قهقهة "غنيمة" قبل أن يقول: حتى ما أزالوا الكتابة. الخجل شغلهم.

\*\*\*\*\*

كان "سعدون" أمام باب الغرفة الموصد بقفل كبير، عندما ناداه "حجيزى" وهو يذلف إلى البيت من البوابة: "سعدون"، جئت أقول لك الحكمة التى رأيتها.

ابتسم "حجيزى" لما رأى "سعدون" يقف أمام الغرفة المغلقة منذ سنين، وقال: نويت تسمع الكلام وتفتح الغرفة؟

وقال: أنا تأخرت عن أغنامى، الحكمة التى طلعت بها من موت ذكر الإوز فى دلو الماء، هى حكمة من كلمتين، "إرض بالمقسوم"، فالسعى لما هو أكثر من المتاح قد يميئنا ميتة تكون عبرة.

قال "سعدون": لو رأى ذكر الإوز الماء فى الإناء المنخفض لما غامر بالشرب من الدلو!

أمسك "حجيزى" بيد "سعدون" واتَّجه به إلى داخل البيت، حيث الحظيرة، كان ذكر الإوز ملقى على ظهره بجوار الباب، دلفا إلى داخل الحظيرة، وأشار "حجيزى" إلى إناء الماء الفخَّارى المغروس نصفه فى الأرض، والممتلئ بالماء الذى صار قدرا. وإلى الدلو القريب منه جدا وفى قعره القليل من الماء الصَّافى.

أشار "حجيزى" إلى آنية الماء، وقال: كيف لا يرى ذكر الإوز الماء الموجود تحت قدميه؟

واستدرك: إنه لم يرض بالموجود الميسر، وذهب يمد رقبتة ليشرب من الدلو العميق!

صمت "سعدون"، لكن "حجيزى" قال: "ذكر الإوز هذا أغبي من الصَّب".

## يَدْفِنُ النَّاسُ أَعَزَّ النَّاسِ

فتح "حجيزى" عينيه بصعوبة، رائحة بصل تخرق خياشيمه، وشيء ما رطب ولزج يضغط على أنفه، كان "بكير" يحرك بصلة مشدوخة على أنف "حجيزى"، بينما رءوس عديدة منكبة فوقه، تكاد تمنع عنه الهواء، وأياد تدلك صدره وبطنه من أسفل ملابسه.

- إن شاء الله زين.

ورأى وجه "مزيد" يضحك.

كان ممددا على "الدكة" تحت التينة، وثغاء التجاج يعلو، مترادفا مع صوت ولولة "سريرة"، الواقعة عند بوابة حظيرة الأغنام، وعندما حاول الاعتدال، ساعدته الأيدي الكثيرة، وجلس يشد الهواء ويتنفس بصعوبة، بينما كلام كثير يجرى حوله، والعيون تنظر إليه بإشفاق، وكان يهز رأسه فوق وتحت من غير أن يفتح فمه.

كانت السماء قد اتمهجت بضياء ناصع، و"القعبة" المملوءة باللبن الرائب موضوعة هناك على أحد براميل "الجاز" الفارغة، وأخيرا بدأ الناس يولونه ظهورهم ويخرجون، يرافقهم "بكير".



قال بصوت خافت وقد نظر إلى "سريرة" التي كانت تقترب: أنا نائم يا "سريرة" أم صاح؟!

قالت وهي تنحنى بصعوبة للجلوس على طرف "الدكة": صاح يا "حجيزى". فقال "حجيزى" وهو يدلي ساقيه هامًا بالوقوف: يبقى الأمر لله يا "سريرة". وما لحقت "سريرة" تجلس، وإنما سارت تدفع نفسها على عكازها خلف "حجيزى" الذى مضى نحو باب البيت الخلفى.

سطع الثور فى كل أرجاء السماء، وأضاءت الصحراء، ففاحت بريق الذهب. أغنام "حجيزى" تنغو متظاهرة، و"حجيزى" جلس على الأرض مستندا إلى الجدار، ينظر إلى الصخور الضخمة البعيدة، ذات الأشكال العجيبة.

جاء "بكير" حاملا "الجوزة" وهو يشد أنفاسها ليتأجج البص الملهب فوق المعسل، وقدمها لأبيه الذى أخذها بيد خاملة.

- حجر معسل سيضبط رأسك يا عم "حجيزى".

لم يفتح "حجيزى" فمه بكلمة، لكن انطلق قطع الأغنام من الباب بجواره إلى وسع الصحراء مثل سهام مَفُوقَة تعرف أين تصيب. يجرى خلفها "سويلم" و"سلمان" ولدا "بكير"، كل واحد منها يخرج من الباب يجرى وهو يزعق: خير صباحك يا جد.

يقولانها وهما يخطفان نظرة سريعة لـ "حجيزى".

"حجيزى" زعق: "سالم"، "سلمان"، ولد، تعالا.

”سلمان“ نظر للخلف وهو يجرى وراء القطيع: يا جد. الغنم تتبعثر في الصحراء!

صرخ ”حجيزى“: تعال هنا يا ولد، تعال يا، اترك الغنم، فهى تعرف طريقها فى الصحراء أفضل منكما.

مضت الأغنام تهرول نحو قطعان أخرى بعيدة تبدو ماثرة غبار الرمال فى الأفق، وأخذ ”حجيزى“ يقبل الولدين على وجناتها ورأسها وقد غرقا فى الدهشة، و”سريرة“ تنظر من وراء الباب وتبكي، كان ”بكير“ قد أخذ الجوزة من أبيه، ووقف ينظر إلى ”سريرة“ التى اتكأت على عصاها، واستدارت، وتساندت على الجدار، حتى وصلت إلى جذع نخلة قُطعت منذ زمن بعيد، لكنّه بقى يضرب بجذور مميّنة فى الأرض، أراحت ظهرها إليه، وأخذت تنشج.

- تعطيان قُبلة لـ”سليم“ أخوكما، لا تنسيا، أخبراه أن ”حجيزى“ فرحان به، قولاً له: كان جدك يتمنى رؤية التمثال الذى ستنتحه. قولاً له: جدك يقول لك اعمل أكبر تمثال لـ”سكيرة“ وليذهب ”رسلان“ أبوها ويخبط رأسه فى أكبر صخرة فى الصحراء.

انطلق الولدان نحو الأغنام البعيدة، وكان ”بكير“ يعطى ”الجوزة“ لوالده مرّة أخرى عندما سمعه يهمس: يا ”سريرة“.

فدخل ”بكير“ البيت يُخبر ”سريرة“ وقلبه منقبض.

الجوزة تكرر، وأصوات الأطفال الرُّعاة تأتي من بعيد سارحة على وجه الصَّحراء، صافية مثل التّدى، يضحكون ويتصايحون، بينما الأغنام تنطلق بتؤدة نحو آفاق أبعد، ومراعى قد تكون أخصب، وعينا "حجيزى" تشبّثتا بنقطة ما شديدة البعد، نقطة أبعد من الأفق.

"لماذا يدفن النَّاس موتاهم، بأى قلب يدفن النَّاسُ أعزَّ النَّاسِ؟".

"سالم" و"سلمان" ولدا "بكير" صارا نقطتين صغيرتين امتزجتا بسواد القطيع الذى يضرب الآن فى ملتقى السَّماء بالأرض، و"سريرة" قادمة تتكئ على عصاها، بينما تحمل بيدها الأخرى "قعبة" اللبن، وقد مسحت عينها من أثر الدموع، وفردت وجهها.

"حجيزى" يسحب نفسا من الجوزة طويلا، وعيناها مازالتا مسمرتان بتلك النُّقطة التى هى أبعد من الأفق، وصوت "سعدون" يتراقص على كركرة الجوزة، قادمًا من الوجدان: ندفنهم لأنهم يتعقنون.

- فطورك يا "حجيزى".

هز رأسه بالرَّفْض وهو يشد الدخان من غاب "الجوزة".

فقال "سريرة" بصوت خفيض متوسل: غير ريقك.

كان الدخان يخرج من فمه وأنفه كثيفا، ولم يكن يدفعه بقوة، يحب "حجيزى" أن يترك الدخان ينساب متماوجا أمام وجهه، فكان الدخان، بفعل نسيم الصَّباح الرَّايق، يتحرَّك ببطء نحو لحيته المهذَّبة وشاربه الغزير كشعايين شبعة تتَّجه إلى أوكارها.

ربت "حجيزى" الأرض بكف يده اليمنى، وقال: اقعدى يا "سريرة".

نادت ”سريرة“: ”ثريا“، تعالى خذى قعبة اللبن.

جاءت ”ثريا“ زوجة ”بكير“، وأخذت القعبة، وقبل أن تدخل بها، رأت ”سريرة“ تسند العصا إلى الجدار، وتتساند على كتف ”حجيزى“ لتستطيع الجلوس على الأرض، وكان ”حجيزى“ يبذل مجهودا كى لا يهتز جسده، فيسقط البص الملتهب من على حجر ”الجوزة“.

ابتسمت ”سريرة“ وهى تقول: صلاة التّيبى عليك يا ”حجيزى“، أكبر منى بثلاثين سنة، وأشد منى! وضحكت ”ثريا“ وتركتها ودخلت.

كانت القطعان قد بدأت تختفى فى خط الأفق، وراء هذه الصخور العملاقة غريبة الأشكال، لكن أصوات الرّعاة المرحّة ما زالت تأتى هامسة وصافية. قالت ”سريرة“ بعد أن استوت جالسة على الأرض بجوار ”حجيزى“: شاخت ”سريرة“ وصارت قبيحة، مثل هذه الصّخرة الملتوية هناك، صخرة قبيحة بين صخور جميلات.

فقال ”حجيزى“ والدخان يتدافع من أنفه وفمه: ما زلت أجمل امرأة عجوز فى ”الوعرة“ يا ”سريرة“.

حوّلت ”سريرة“ وجهها عن الصّخور بسرعة لتنظر إلى وجه ”حجيزى“، وقد فتحت عينيها على آخرهما، وكان ”حجيزى“ يقول: كنت أجمل بنت فى بنات أيامك.

عينا ”سريرة“ ضاقتا، فصارتا كخرزتين، وبياضهما اختفى تحت غلالة رقيقة من الصّفرة، ولم تعد لهما علاقة أبدا بعينيها القديمتين اللتين كانتا مثل عيون

البقر، حتى وجهها تكرمش تماما، وامتلأ بتجاعيد غائرة، وإن كان ما زال يضرب بحمرة تشي بجمال فثان كان يصقل هذا الوجه قديما، فيلمع مثل سبيكة ذهب.

فتحت "سريرة" عينيها على اتساعها الذي ضيقه الزمن، فبان في زوايا العينين ركام من اصفرار غامق.

"تقول يا حجيزي إني أجمل امرأة؟!".

"وى.. وى.. وى.. وى.. وى.. وى.."

ولولت "سريرة" من المفاجأة، ووضعت كفيها على الأرض، تستند عليها لتهتم بالوقوف، وزعق "حجيزي": مالك يا بنت الجحش؟! وأمسك كتفها: اقعدى.

قعدت "سريرة"، وقالت في نفسها: اليوم حالك عجيب يا "حجيزي"!

قال "حجيزي": أنا يا "سريرة" سأموت بعد ثلاثة أيام.

فابتسمت "سريرة" وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، عمرك يا "حجيزي" عدى المائة عام، تريد تخلد فيها؟!.

نظر "حجيزي" في عيني "سريرة" نظرة حائرة، وقال: ما تحزنى علىّ يا "سريرة"؟!.

ضحكت وقالت: طول عمرك يا "حجيزي" تتكلم عن الموت ولا تموت، أنت لن تموت يا "حجيزي"، أنت ستحمل جثتي وتدفنها في مقابرنا البعيدة.

ركن "حجيزي" الجوزة إلى الجدار، وغرس بصره في الأرض الرملية المدكوكة تحت رجليه: أنا ما أخاف من الموت، أنا خائف من الدفن.

\*\*\*\*\*

قال "سعدون" لـ "حجيزى": "أنا يا أخى ما أعرف لماذا تخاف من الدفن؟!".

كانت الشمس قد صارت فى كبد السماء تمجُّ النَّارَ، والأغنام توقفت عن الرِّعى واختارت الرِّاحة فى ظلِّ صخرة "الذيب"، صخرة لا يمكن التعرُّف على ملامحها للواقف تحتها من فرط ضخامتها، لكن من بعيد تبدو مثل ذئب جالس على مؤخرته، ورفع صدره ورأسه إلى فوق، يشب من غير ذراعين، وكأنه يريد أن يفترس شمس النَّهار، أو يبتلع نجوم الليل. وجوار الغم جالس كل من "حجيزى" و"سعدون" وقد استندا بظهرهما إلى هذه الصَّخرة .

كانت "الوعرة" فى مواجهتها، بيوت كالحة تتساند على بعضها كأنها تخشى الانزلاق من فوق الأكمة التى بُنيت فوقها، والسَّراب أسفل منها يجعلها تبدو وكأنها جزيرة تعوم على سطح بحر هادئ، بينما انبثقت من هذا السَّطح مئات من أشجار التَّخيل.

أخرج "سعدون" السِّبرتاية الصَّغيرة من كيس قماش سميك أعده خصيصاً لهذا الغرض، حَمَل السِّبرتاية وكنكة شاي صغيرة وكوبين وما يلزم من شاي وسكَّر، وبينما يشعل النَّار فى شريط السِّبرتاية قال: ما أجبت عن سؤالى يا "حجيزى".

"نصنع هذه الحياة جميعاً، ثم لما يموت الواحد منا يعزلونه بعيداً، يدفنونه، أنا بنيت هذه البيوت مع الذين بنوا، وزرعت هذه التَّخيل مع الذين زرعوها، ومشيت على هذه الأرض، ورعيت الغم فى هذه الصَّحارى، هذه الدُّنيا

ليست دنيا الذين سيقون من بعدى وحدهم، ولكنها دُنيتي أيضا، ستظل تحمل آثارى، أنا أنجبت ”بكير“، و”بكير“ أنجب ”سليم“ و”سالم“ و”سلمان“، قطع منى ستبقى تعمر هذه الأرض، فلماذا عندما أموت يريدون إقصائي بعيدا؟ من الذى علم الإنسان هذه القسوة، من الذى علم الإنسان دفن أحبائه؟ من الذى أوحى إلينا بدفن أعزّ النَّاس إذا ماتوا؟“.

التَّعَاج تمطُّ رقابها على ظهور بعضها، وهى تستمتع بنوم الظَّهيرة فى ظل صخرة ”الذيب“، ومن حين لآخر يعلو ثغاء إحدى التَّعَاج، فترفع الأخرى رءوسها تستطلع ما حولها بانتباه شديد.

وارتفعت ضحكة ”سعدون“، وقدَّم الشاى لـ ”حجيزى“ وقال: واه عليك يا شيخ حجيزى! تريد إذا مت تقعد بين النَّاس وأنت جنة؟!!

قبض ”حجيزى“ من الأرض قبضة رمل، وكان يصوّب بصره نحو أسوار بساتين التَّخيل البعيدة التى تمتد لمسافات شاسعة فى شمال ”الوعرة“، وكان الرَّمْل ينساب هاربا من بين أصابع قبضته، قال هامسا: الونس يا ”سعدون“.

قال ”سعدون“: الونس نعمة.

وقال: ”لما تذهب ”بثينة“ لزيارة ناسها، وتبقى هناك أسبوعا، يتحول البيت إلى قبر، وأصير ما أريد دخوله، والله كلامك صحيح يا ”حجيزى“.

وقال: لكن يا ”حجيزى“ الأحياء فقط هم من يحتاجون الونس هذا.

فقال ”حجيزى“: وأنا كم مرّة أقول لك إنك ما تفهم شيئا يا ”سعدون“؟!!

\*\*\*\*\*

كان "بكير" ممتددا على سريريه في غرفته، وقد أراح رأسه على وسادة مرتفعة، عندما دخلت زوجته "ثرثيا" تضحك، وبين يديها القعبة المملوءة باللبن الرائب، قالت: وى. وى. وى. لو رأيت "سريرة" و "حجيزى"!

ومدت يدها بالقعبة نحو "بكير": اشربه أنت، أبوك ما له نفس هذا الصّباح. وضحكت جدا وهى تقول: نفسه هذا الصّباح فى أمك.

وقالت: لو رأيتها ما تقول عنها اثنين من العواجيز، تقول صبايا!

أخذ "بكير" القعبة، ورفعها إلى فمه، وأخذ يشرب، كان يمص اللبن بصوت مثل صوت فأر يقرض قطعة من الخشب الرقيق، وكانت "ثرثيا" تقول: ما رأيت رجلا فى حياتى مثل "حجيزى".

فقال "بكير": كنا سنسافر اليوم إلى "موط"، يجب أن نبيع الثّمور، وراءنا مصالح و "حجيزى" سيعطّلنا.

كانت إحدى الدجاجات قد دخلت الغرفة، وخطت فيها بضع خطوات متلصّصة، فهشّتها "ثرثيا"، ففرّت الدجاجة إلى الخارج وهى تترقرق وتضرب بجناحيها، وقالت "ثرثيا" وهى تنظر لـ "بكير" نظرة استغربها: مهما غربلت الشّعير يا "بكير" ما يصير قمحا.

فرغت القعبة، وأعطاهها لـ "ثرثيا"، ومسح شاربه، وقال فى نفسه: ماذا تقصد بنت الشّيخ "عامر"؟!

فقال بصوت عال، تعمّد أن يجعله غاضبا: ما علاقة الشّعير والقمح بما كتّا نتكلّم فيه؟!

جاءت "ثرثيا" وجلست بجوار "بكير" على حافة السرير، وقالت: فى مغارب أمس، دخل "حجيزى" الحظيرة وراء الغنم، وطالت قعدته فيها، قلت لنفسى



هو بالتأكيد ينظف الحظيرة، وقلت أدخل أساعده، ودخلت فوجدته جالسا في ركنها القبلي، لم يكن يفعل شيئا، وكان ساكنا تماما، أنا خفت، لا أعرف لماذا ظننت أنه ميت؟! فاستدرت أخرج وجسمي كله يرتعش، لكنتي سمعته يناديني بصوت خافت، فحمدت الله في سرّي أنه حي، وذهبت إليه وقلبي مازال يدق كالطبل، قال لي وكأنه قرأ فكري: ما عاش "حجيزي" يا "ثريا" حياته كلّها يفكر في الموت، ليموت في النهاية تحت مباعر الغم. وسكنت "ثريا".

سكنت "ثريا" فضرب "بكير" كفا بكف، وقال وهو يهيم بالنزول من على السرير: ما عرفت بعد العلاقة بين الشعير والقمح، وما تقولينه الآن! أمسكت "ثريا" بذراعه وهمست: سُقت عليك التّبي تجلس، الحكاية ما كملت بعد.

كانت نبرة "ثريا" قد اختلفت، فنظر "بكير" في عينيها.

عينا "ثريا" بحر لبن تسبح فيها جزيرتا ليل مدوّرتان، لكنّهما الآن بجيرتا دمء متوهّجتين، ونشجت: على نور المغارب رأيت عيني "حجيزي" يا "بكير"، كأنّهما الثّار، وكانت دموعه تتبخر، وحياة سيدنا التّبي رأيت البخار يتصاعد من عينيها، قال لي: تعرفين يا "ثريا"؟ "سعدون" مات في الصّباح. قلت له: أعرف.

قال: منذ أسبوع مات "غنيمة" فضاقت "الوعرة"، اليوم ضاقت الصّحراء كلها.

وسكنت "ثريا".

”بكير“ مدَّ سَبَّابته إلى القعبة في حجر ”ثرىا“، مسح من جوانبها لبن رائب عالق، ثم مصَّ سَبَّابته، قال: ما أحبَّ ”حجيزى“ أحدا بقدر ما أحبَّ ”غنمية“ و”سعدون“، خاصَّة ”سعدون“.

قالت ”ثرىا“: كل الذى قاله حجيزى عن موت ”غنمية“ و”سعدون“ ما أبكاني، أبكاني لما قال: الدُّنيا ما ضاقت علىَّ هكذا يوم ماتت ”سريرة“.

فتح ”بكير“ عينيه بأسرع من حرباء تقذف لسانها تريد اصطلياد ذبابة، وهتف: هيه؟!

قالت ”ثرىا“: مددت ذراعى ووضعت كفى على كتفيه، هزَّزته وقلت: مالك يا با ”حجيزى“، ”سريرة“ ما ماتت، ”سريرة“ بالدَّاخل فى حجرها.

قال: ”سريرة“ فى قبرها، مدفونة فيه منذ زمن.

قلت وأنا أشهق: ما تترك موت أبويا ”سعدون“ يعمل بك هذا!

تقول ”ثرىا“: خبا نور المغارب، وصارت الحظيرة عتمة، وربضت الغنم تريد النَّوم، وقال ”حجيزى“ وهو ينهض متساندا على ذراعى: عشرون سنة مضت ما ناديتها باسمها، ولا نادتنى باسمى، عشرون سنة ما قلت لها يا ”سريرة“، ولا قالت لى يا ”حجيزى“.

وعند باب الحظيرة نظر فى عينيَّ وقال: تبقى ماتت أم لا ؟

”بكير“ صامت تماما، ينظر وهو جالس على سيره فى مرآة التَّسريحة نظرة ثابتة، نظرة من يقرأ فى كتاب غير مفهوم، وبالفعل همس، وقال: ومال القمح والشَّعير بكل هذا؟!

قامت "ثرىا" من على حافة السرير، وضربت بكفها كتف "بكير"، وزمّت شفيتها، وأخذت تلويها شمالا ويمينا، وقالت وهى تهم بالخروج من الغرفة: ما ولدت عقربك يا "حجيزى"!

أخذ "بكير" الوسادة الصّغيرة، وألقاها نحو "ثرىا" وهو يزوم، وكانت هى تهرول نحو باب الغرفة ضاحكة.

\*\*\*\*\*

"متى يأتى المعزى إذن؟!".

مدّ "حجيزى" ساقيه واضعا إحداهما على الأخرى، وسرح ببصره إلى أفق الصّحراء . ومن غير أن يشعر قامت "سريرة" من جواره بصعوبة، وهى تتكئ على الجدار وعصاها، حتى استطاعت الوقوف تماما.

"طلما سرح حجيزى فليست هناك فائدة من الجلوس بجواره، لن يكون بيننا إلا الصّمت".

"عشرون عاما تنتظره يا حجيزى وهو لا يجىء، هل كان المسيح كاذبا، أم أن كل ما حدث ليس أكثر من وهم؟!"

دلفت "سريرة" من الباب الموارب إلى حيث فسحاية البيت، اثكأت على الجدار، ثم اثكأت على "المزيرة"، ثم اثكأت على جذع النّخلة المتبقّى متشبّتا بالأرض، وأخيرا وصلت إلى "الدّكة" أسفل شجرة التّين، وجلست تتهج، وضعت عصاها إلى جوارها، وجلست تنشج، وغنّت بالصوت الواطى كلاما باكيا، وندبت "وااهاا وااهاا يا حجيزى".

بالكاد تُسمع نفسها، وبالكاد تُسمع خريز الدُموع الفيّاضة من عينيها.

”قلت يا حجيّزي كلاما حلوا“.

”يحلو الإنسان قبل أن يموت“.

خرجت ”ثرّيا“ من غرفتها في يدها القعبة الفارعة، فرأت ”سريّة“ تهتز بجذعها على الدكّة اهتزازات رتيبة، تميل يمينا وتميل شمالا، وسمعتها تترنّم كأنّها تعدّد، فوضعت القعبة على منضدة خشبية مهالكة في الركن الذي فيه فرن الخبيز وكانون الطليخ، وأسّرت إليها وقد انزعج وجهها، وارتمت تجلس بجوارها، ثم شدّتها تحتضنها، وهمست ”ثرّيا“ بصوت ملتاع: مالك يا ”سريّة“؟!

و”سريّة“ صارت في حضن ”ثرّيا“ جسدا مهالكا يرتج بعنف، بينما فحيح البكاء يتدفّق من فمها وأنفها.

\*\*\*\*\*

كانت صلاة ظهر، والشيخ ”مزيد“ سلّم منيها الصّلاة: السّلام عليكم، السّلام عليكم.

و”حجيّزي“ قال: السّلام عليكم، السّلام عليكم.

ثم نظر في وجه الجالس شماله وقال غاضبا: إيه يا وُلْد ”فُتحة“! تربيّ في فمك زرزورا؟!

وُلْد ”فُتحة“ نظر إلى ”حجيّزي“ وابتسم، لكن ”حجيّزي“ رفع كفيّه مقلوبين إلى ما بين صدره وركبتيه، وأخذ يهزّها إلى فوق وتحت، بينما يحرك سبّابتيهما

ووسطاهما حركة سريعة، وكان يقول: تقرأ القرآن مع "مزيد" وفمك يصوصو،  
صوصوصوصوصو!

لم يقل ولد "فُتحة" شيئاً، وإِثماً نهض واقفا وهو يبتسم أكثر، و"حجيزى"  
زحف على يديه وربكته إلى العامود، وجلس متكئاً بظهره إليه كعادته، وكان  
يخرج السَّبحة من جيبه، وولد "فُتحة" قد اقترب من باب المسجد، وبينما  
يرفع رجله ليعبر الحاجز الخشبي الواطئ ليخرج، قال "حجيزى": أبوك  
"فُتحة" كلب ابن كلب، يربّي في فمه جاموسة تنعر.

زادت ابتسامة ولد "فُتحة" قبل أن يختفى.

لكن ضحكة "فُتحة" نفسه علت من آخر الصَّف، من وراء ظهر "حجيزى"،  
ثم علا صوته: يسامحك الله يا عم "حجيزى".

ولم يهتم "حجيزى" بالتَّظُّر ناحية "فُتحة" وهو يقول: من يسمعكم تقرأون مع  
"مزيد" يقول الإيمان في قلوبكم زاد وطفح، وأنتم ولاد كلب ما عندكم دين.

خرج صوت "غنيمة" عالياً يركب: ما الحكاية يا "حجيزى"، كل صلاة تقعد  
نسمع كلامك الماسخ هذا؟!!

وجاء صوت "فُتحة" يتخبَّط بين الجد والهزل: حسبنا الله ونعم الوكيل، على  
آخر الزَّمان ما عندنا دين!

كان "حجيزى" منهمكا في التَّسايح، بينما البعض يصلُّون السُّنَّة، والبعض يقوم  
يخرج.

وكان "سعدون" جالسا على ركبته بجوار العامود، فقال "حجيزى": "فُتحة"  
الكلب حضر بالأمس دفن "صالح" ولد "سعداني"، الولد ينزلونه القبر، وهو  
جالس على مؤخرته يدخن سجائر!

قال "سعدون": وما العيب يا "حجيزى"، دائما ناس ينزلون الجثث إلى القبور، وناس يجلسون على مؤخراتهم يدخنون سجائر، والكل يركبه الحزن! تتم "حجيزى": نرتكب الذنوب فى مواقف العبر.

قال "سعدون" مندهشا: وأين الذنب الذى عمله "فُتحة"؟!!

"حجيزى" وضع السبحة فى جيبه، ونظر فى عينى "سعدون" وقال: رأيت جثة "صالح" ولد "سعدانى"؟! رأيتها كيف انزلت إلى القبر بسرعة؟! مثل كل الجثث، لا أعرف لماذا تنزل الجثث إلى قبورها بكل هذه السرعة؟! قال "سعدون": الله يصبر "سعدانى" وزوجته.

ثم تتم: لكن "سعدانى" لا يتقى الله أبدا، ما رأيت فى يوم دخل المسجد وصلى لله ركعة.

كان "غنيمة" قد انتهى من أذكار بعد الصلاة، ولم يكن بعيدا، فبا هو الآخر على يديه ورجليه حتى جلس بجوار "حجيزى" و"سعدون".

"حجيزى" قال: قصدك يا "سعدون" تقول إن الله يعاقب "سعدانى"؟!!

قال "سعدون": العيال نعمة، المحافظة عليها تكون بتقوى الله.

كركب صوت "غنيمة": أنا أصلى الوقت حاضرا، و"الزير" ولدى تركنى من سنين، ولا أعرف خبرا واحدا عنه، يا إخواننا مالها تقوى الله وحالنا فى الدنيا؟! ولا أحد فيها خالى من الهم، ولا واحد إلا وكانت شجرة المصائب مزروعة فى بستانه.

قال "سعدون": لكن مصيبة "سعداني" جاءت شديدة، ولده الوحيد، وفي عمره الحلو، بالكاد كمل السنين، كان يروح ويجيء به وقد حمّله على كتفيه، والولد يلاغي الناس كلها، هي مصائب تدرّدف على الرءوس.

رفع "غنيمة" طرف جلبابه ومسح مخاطا تسرّب من فمه، وصوته كركب: "سعداني" صغير، وزوجته صغيرة، ابن الكلب نطّ عليها في أوّل ليلة، ما عدّت التسعة شهور حتى جاءه الولد، ينجب ثانية.

ورفع "سعدون" ذراعيه، ونظر إلى السّماء مخترقا ببصره قبة المسجد، وقال بصوت محروق: يا رب احفظ لي "جميل"، تعلم أنه جاء بعد عذاب السنين. وبينما "حجيزي" يتساند على العامود ليقف، قال: لكن رأيتم كيف قفزت جثة الولد إلى القبر؟

هتف "سعدون" وهو يستند بكفّي يديه إلى الأرض ليقوم: ففّزت!

قال "حجيزي" وكان قد وقف معتدلا تماما: نعم، انزلت إلى القبر بسرعة!

"غنيمة" يصغر "سعدون" في السنّ بأكثر من عشر سنوات، عبر السنين عاما بالكاد، جسمه خفيف، بشرته تميل إلى السّمرة، يحرص على حلق ذقنه وشاربه ليلمع وجهه مثل مرآة، بينما يترك شعر رأسه مموّشا تحت العمامة التي يطبّقها فوق رأسه بطريقة عفوية، مثل كل رجال الواحات.

وقف "غنيمة" على قدميه، ثم انطلق نحو الحائط المنحوتة فيه كلمات الأمير المملوكي "شقمق" بيك.

نظر ”حجيزى“ نحو ”غنيمه“ وقال موجها كلامه لـ”سعدون“: صاحبك مجنون بالشقمق هذا، التأس بعد الفرض تصلى ركعتين، لكن هو يذهب يتحسس الكلام المنحوت!

فقال ”سعدون“: كل واحد فيكما له ما يجن عقله، أنت يا ”حجيزى“ مجنون بالموت.

ولما وصلا إلى باب المسجد خرج ”حجيزى“ أولا، وبينما كان ”سعدون“ يخطو الحاجز الخشبي خارجا، استدار برأسه ونظر إلى عمق المسجد، وقال: والله أنا أستعجب! لماذا تركوا هذا العامود ناقصا؟! العامود واقف فى نصف المسجد كالحازوق!

قال ”حجيزى“: ما كان يمكن أن يكملونه، لأن فوقه سرّة القبة، هو معمول فقط لترتكز عليه هذه العروق الخشبية الثقيلة، يا أخى السلاسل المدلاة ربّما زاد وزنها عن طن!

غمرتها شمس ما بعد الظهيرة.

قال ”سعدون“: يمكن جيش العثمانيين لم تكن له خبرة بالبناء!؟

قال ”حجيزى“ بلا مبالاة: يمكن!



## الحى ذاهبٌ إلى الموت، والميتٌ يحيا

عندما جاء الإنجليز إلى "مصر"، ورأوا حجم الخيرات المبارك فيها، قالوا "هذه هي البلاد التي تستعمر بحق"، فعملوا فيها أعمالا لا يعملها المغادرون، وإنما يعملها المخلدون فيها، وكان من بين ما عملوا، شريطا للسكة الحديد يصل ما بين "أسيوط" و"الخارجة"، في صحراء غرب "مصر" القاحلة، حيث رأوا في هذه الصحراء ما لم يستطع أهلها أن يروه، رأوا جبالا من فوسفات، وهضاب منجنيز، وحديد، ومعادن أخرى، ورأوا أنه لا يمكن الاستفادة بكل هذه الكنوز لو لم تكن هناك طريقة سريعة لتصريف الإنتاج إلى مصانعهم في بلاد "إنجلترا"، حيث تُصنَّع هذه المنتجات، لتدخل في منتجات أخرى يعوزها الناس في كل العالم. وتكسب "إنجلترا" الأموال الكثيرة، فتصنع مزيدا من البنادق ومدافع الأساطيل البحرية، وتنشئ جيوشا جديدة، لتستولى على بلاد أخرى، وعباد آخرين، وتعمل امبراطورية لا تغيب عنها الشمس.

ولم تكن الشمس قد غابت، عندما جلس "حجيزى" و"غنيمية" على فرشة بسيطة من صوف الخراف، تحت شجرة الجميز أمام بيت "حجيزى"، وكانا يشربان الشاي، ويدخنان "الجوزة".

وكانت ضجة العصفير التي تسبق المغارب قد بدأت، مئات العصفير تصاصئ في نفس الوقت، ولمسة من عبير نسيم صحراوي، وقم الصُخور

غريبة الأشكال داكنة في عين الشمس، وقبة المسجد تنعكس عليها أشعة الشمس الغارية، فتبدو قبة مبنية من سبائك الذهب، وتبدو الجدران البيضاء للبيوت المتلاصقة مثل رخام يشع بوهج أحمر، بينما الجدران المطلية بالجير الأزرق تسطع بلمعة رمادية ساحرة.

شد "حجيزي" نفسا طويلا، ثم نفخه وهو يسعل، وأعطى الجوزة لـ "غنيمة" وهو يقول: العصافير ليست مثلنا، العصافير يا "غنيمة" تصلّي في اليوم مرّتين فقط، في الفجر وقبل الغروب.

قال "غنيمة": تكره الإنجليز يا حجيزي؟

وكان "غنيمة" سيكمل تساؤله، لكن "حجيزي" قال: قامت الحرب بيننا وبينهم في "سيوة"، كنت بالكاد عمري أربعة عشر عاما، وكان "شديد" أبي أخذني معه في قافلة مسافرة ببعض الرهبان إلى دير قبلي "العلمين".

ولمّا سكت "حجيزي"، همّ "غنيمة" بالكلام، لكن "حجيزي" قال: كانت المرّة الوحيدة التي سافرت فيها إلى بحري، لم أر البحر، لكنّي كنت قريبا منه جدّا، حتى أنّي سمعت وشيش الموج، ورائحة الماء عبأت ضلوعي.

سكت "حجيزي"، وسكت "غنيمة".

وعندما طالت فترة الصمت، و"غنيمة" يشد الدخان من "الجوزة" من غير كلام، قال "حجيزي": لماذا تسكت يا "غنيمة"؟! كنت تريد تقول شيئا.

قال "غنيمة": ما أقول؟! أنت أخذت الكلام كلّه لنفسك يا "حجيزي"، ما تعطى فرصة لغيرك يتكلم يا أخي! لن أقول شيئا؟!!

قال "حجيزي": لكنك كنت تريد تقول شيئا عن الإنجليز يا شيخ.

قال "غنيمة" وهو يعطى الجوزة لـ "حجيزى": كنت أريد أقول شيئاً عن العصافير، لكنى لن أقول، تأخذ الكلام وحدك وليس عندك أخذ وعطاء.

دلق "حجيزى" كوب الشاي فى جوفه، ثم خبط قعره فى الصينية وهو يضعه فيها، وبان على وجهه الغضب، وزعق: لا تقل شيئاً، عجائب أمرك يا "غنيمة"! أمّا تتكلم وحدك، وأمّا لا تتكلم أبداً! لا تقل شيئاً يا أخى.

لم يجتمع غضبا "حجيزى" و"غنيمة" أبداً، إذا غضب أحدهما لان الآخر بسرعة، كانت طريقة وضع "حجيزى" للكوب فى الصينية، واحمرار وجهه، يؤكدان أن "حجيزى" غضب فعلاً، كان "حجيزى" أحياناً يتصعّ الغضب ليُرغم "غنيمة" على العودة عن مواقف لا يحبها، وكان "غنيمة" يرجع حرصاً على ألا يغضب "حجيزى"، لكن "غنيمة" اكتشف حيلة "حجيزى"، فأصبح لا يعود عن أى موقف إلا إذا تأكد من أن غضب "حجيزى" حقيقى.

- رأيت القطار يا "حجيزى".

- أنت تعرف أنى ما رأيته فى حياتى، لكن سمعت عنه.

- إذا نظرت إليه من بعيد، شكله مثل شكل الثعبان...

- قالوا لى رأسه مثقوب من فوق، ويخرج منها دخان أسود.

- وإذا اقتربت منه تجده بيوتا خشبية لها نوافذ وأبواب، ومربوطة إلى بعضها بالحديد، ولها عجلات من حديد، وتجرى على سكة من حديد.

- سبحان الله، ابن المرأة ما غلبه إلا الموت!

- خذها منى كلمة يا "حجيزى"، سيأتى على ابن آدم اليوم الذى يغلب فيه الموت.

فنظر "حجيزى" إلى "غنيمة"، الذى كان يدلق القهوة فى فمه، نظرة انبهار، بينما نور النهار يقترب من الانطفاء.

\*\*\*\*\*

نور النهار يقترب من الانطفاء، و"حجيزى" و"سعدون" يمشيان على مهل عائدين إلى البيوت، تسبقها الأغنام وهى تجرى. الصحراء بدأت تخبو، وأطراف الصُخور الصَّخمة غريبة الأشكال تضيئ بأشعة الشمس التى غربت، و"ضب" يزحف بأقدامه القصيرة فوق الرمال، متجها إلى جحره أسفل شجرة من أشجار "العبل" القصيرة، التى تنتشر فى بقع متناثرة من الصحراء، وبيوت "الوعرة" تبدو من بعيد فى بدايات الظلام مثل مستعمرة التمل، كالحة ومبهمة .

قال "حجيزى": الموت نفسه لا يخيفنى يا "سعدون"، طالما سأموت بين الناس، الموت فى الونس ليس مشكلة، حتى الغسل سأقبله، رغم أنه فضيحة، لكن طالما فى الونس سأقبله، يحملونك على محفة فوق أكتافهم، ونس أيضا، لكن الدفن! الدفن يعنى الوحدة يا....

وتوقف "حجيزى" عن الكلام، وعن المشى، ونقر الأرض بعصاه التى يرمى بها غنمه، فاصطدمت بشيء يشبه الزلطة، فمال إليها، وأزاح الرمل من حولها، لم تكن زلطة، لكنّه أمسك بها ورفعها إلى عينيه يتأملها، كانت صدفة من أصداف البحر، بالكاد تملأ يده.

قال "سعدون" متعجبا: هذه الأصداف لا تكون إلا فى البحور.

واستدرك: يقولون أن هذه الصَّحارى كانت فى يوم من الأيام البعيدة بحورا وغابات!

وضع "حجيزى" الصَّدفة على أذنه: وشيش البحر مازال يهمس فيها، نفس الوشيش الذى سمعته لما سافرت مع والدى إلى قبلى "العلمين".

وغرس أنفه فيها، وشمَّها، وقال: لكن ليس فيها رائحة البحر!

وبينما يواصلان مشيهما نحو البيوت، قال "سعدون": "حطَّك حلو يا "حجيزى"، هذه الأصداف تكون مدفونة بعيدا، وأنت تجدها على وجه الرِّمال!

\*\*\*\*\*

نظر إلى الصُّخور الثَّابتة على سطح الرِّمال، مثل تماثيل تشوَّهت، كانت منذ آلاف السنين جدرانا صخرية عظيمة، هل كانت هنا بيوت الفراعة؟ كانت هنا غابات! وأسود تصرع الغزلان، هل كان فعلا قبل ذلك كله بحر كبير له رائحة مثل تلك التى يشمُّها "حجيزى" قادمة من عند بحر "العلمين" بعد كل فجر؟!

"لكن بحر العلمين بعيد جدا، أبعد من التصور، الرحلة يومها مع والدى أخذت شهرا تقريبا من السَّفر المرهق، البحر أبعد من أن تأتى رائحة مياهه إلى هنا.

ربَّما رائحة البحر هذه تنبعث من تحت رمال الصَّحراء، من باطنها السُّفلى، حيث تسرسب البحر فى الزَّمن القديم من بين ذرَّات الرِّمال واختفى .

لكن مالى الآن والبحر؟! ليكن اهتمامى بما أنا مقدم عليه من موت.

آن لى أن أبدأ فى تنفيذ الخطَّة، فلن أسمح لهم أبدا بأن يدفنوني.

قام "حجيزى" من جلسته، وقبل أن يدلف إلى منزله من الباب الخلفى، نظر مرّة أخرى إلى الصُخور ذات الأشكال العجيبة، نظر إليها طويلاً، ثم عرّج على الأفق، وألقى بعين قلبه نظرة على قطعان الغنم والماعز وهى تأكل بنهم من كلاً الصّحراء، بينما الرّعاة الصّغار يلهون ببعض سحالى الحرباء، أو يجرون خلف صَب ضل طريقه إلى حجره، بينما تتعالى صيحاتهم المرحّة.

ثم عبرت بصيرته هذا الأفق القريب، إلى أفق آخر أبعد، لا يرى من هنا، حيث جبل الرّهبان، والأشجار المتراصّة أسفله، والكهوف التى يسكنها هؤلاء المنقطعون عن دنيا البشر، وشعر بالحنين إلى الجلوس مع الراهب "يوائس"، وتمتّى لو يسمع منه مرّة أخرى حكايته التّعيسة مع البنت "سيرين"، كما أنه يود لو رأى الدّب ثانية.

"لم تنس الموت أبدا يا حجيزى، قضيت عمرك تفكّر فيه، وتظن أنك تعرفه، لكنّه ها هو الآن يطل بوجه لم تعرفه أبدا، رأيت النّاس يموتون، والعالم حولك باق كما هو، يركض فى الحياة بعنفوان الحى، لكن الآن أنت من سيموت، انظر يا حجيزى، واملاً عينيك وصدرك، وودّع".

دخل البيت، وسحب النّاقة من مريضها، وأخرجها إلى تحت شجرة "الجميز" أمام البيت، وأناخها مرّة أخرى.

رغت النّاقة رغاء قصيرا متقطّعا، وهى ترفع رأسها وتنظر حولها ملتفتة إلى الشّمال واليمين، تعرف ما الذى سيفعله "حجيزى"، لذلك هى فرحة، رغاء الجبال هو الذى يُبين فرحها، أمّا عيونها فأبار حزن.

جاء "حجيزى" بدلو ماء وصابون وقطعة من خيش الأجوالة التى يعبتون فيها التمر، شمر أكمام جلبابه القصير، وثنى أطراف سرواله، وبدأ يغسل التافة.  
"سأغسل التافة".

"وما الجديد؟! طول عمرك تغسل التوق!".

"هذه آخر مرّة سأغسل فيها التافة!".

"ما معنى هذا؟ ما معنى أن هذه المرّة هى الأخيرة التى سأغسل فيها التافة؟".

"معناه أن هناك مئات المرّات التى غسلت فيها ناقتك قد مضت دون أن تنتبه للمتعة فى هذا الأمر".

السعادة هى جِماع المتع المنثورة فى كل تفاصيل حياتنا، حتى أسوأ تفصيلا تحمل متعة ما، لكننا فى بحثنا المحموم عن السعادة، كُنْلة واحدة مكتملة وواضحة، ندهس هذه المتع، ولا نجد السعادة أبدا.  
السعادة لن تأتى أبدا كُنْلة واحدة مكتملة وواضحة.

ها هى التافة سعيدة جدا عندما تدعك لها ما أسفل وحول أذنيها، المتعة فى أن تجعل هذه التافة تستمتع أكثر وأكثر، ادعك ما تحت حنكها، أسفل رقبته، استمع إلى رغائها الذى يكاد يغتّى، واستمتع أنت.

كان قد انتهى من غسل كل جسدها وهى منيخة، فأقامها وانهمك فى دعك بطنها.

متع الناقة يا "حجيزى"، متع.

خرجت "سريرة" من باب البيت تتوكأ على عصاها، ثم جلست بعد جهد على طرف المصطبة، وظلّت متوكئة بكلتي يديها على انعقافة عصاها، وسندت ذقنها الغاطس فى التّجاعيد إلى ظهرى يديها اللّذين برزت منها عروق الدّماء الخضراء، وأخذت تنظر إلى "حجيزى" وهو منهمك فى غسل النّاقة.

قالت لنفسها: إذا كان "حجيزى" سوف يموت، فالبكاء الآن ليس بالعمل الصّائب، العمل الصّائب الآن هو أن أملأ عينيّ منه، وأضع صورته فى قلبى. لذلك مسحت العبرات، وخرجت تجلس على المصطبة، وتنظر إلى "حجيزى".

الكلمة التى قالها "حجيزى" منذ قليل، ترن فى أذنيها مثل شقشقة عصفور: كنت أجمل بنت فى بنات أيامك.

وبسمة ترف على جانبى فم "سريرة".

"حجيزى" مازال جميلاً، عمره مائة عام، لكن ها هى عضلات تتراقص فى سمّانتيه، وهو يتلوى تحت النّاقة يغسل مايين فخذيها وذراعيها، لا يتكئ على عصا مثلى.

كانت "سريرة" تسرح بناظريها فى جسد "حجيزى".

وبينما يدور حول النّاقة، رأى "سريرة" جالسة على المصطبة، تسند رأسها على يديها القابضتين على انحناءة عصاها، وتُمعن النّظر فيه.

عينا "سريرة" كانتا مختلفتين عن عينيها اللتين عرفهما "حجيزى" طوال السنين الطويلة التى مضت، تبدوان الآن أليفتين، بل تبدوان داعيتين!!



”استح يا سريرة، مالك وعضلات حجيزى، أكثر من عشرين سنة لم تفكرى فى عضلاته، ولا فى أى قطعة أخرى من جسده، تفكرين الآن؟! استح يا سريرة“.

كلام تقوله لنفسها، ورغم ذلك بقيت ”سريرة“ تنظر ناحية ”حجيزى“ الذى رمقها بنظرة خاطفة، ثم استدار، وأخذ يصب الماء على سم الناقة.

”سريرة تدعونى الآن للفراش؟! نعم، ما أنسى أبدا نظرة سريرة الداعية لنوم الفراش، نظرة شاربة من ينابيع العهر الصافى“.

وشعر ”حجيزى“ بالمرتخى يشتد، ومد يده بين فخذه فلم يجد جلدة ميتة مدلاة، وإنما وجد وتدا يتجه للامتلاء، ونظر ناحية ”سريرة“ فوجدها تبتسم، وعيناها الضيقتان مخجرتين، والذى كان منبطحا ينتصب.

وقالت ”سريرة“: يا ”حجيزى“.

ووقفت فى فتحة الباب تستند على عصاها، ونظرت ثانية إلى ”حجيزى“ ونادت: يا ”حجيزى“.

ودخلت.

والنَّسَمَات حملت أنفاسا ملتاعة نفخها الجوى، فقال ”حجيزى“ فى سرّه: يا رب، الحىّ ذاهب للموت، والميت يحيى!؟

ترك النَّاقَةَ مَبْتَلَةً من غير أن يجفِّفها، وراح إلى باب البيت. بينما راحت الشَّمْسُ تضرب في مرتفع السَّماء، وبدأ وهجها ينسكب على الأرض، وكذلك حميها.

\*\*\*\*\*

صحن المسجد في أوقات الظَّهيرة نعمة طيِّبة، إذ يكون رطباً طريّاً، وفي الخارج سكون القيلولة، والجو يدعو إلى الاسترخاء، ومن ثمَّ إلى النَّوم. وكثيراً ما يفضِّل ”حجيزي“ أن يقضى قيلولته في صحن المسجد.

صلى ”حجيزي“ كعادته صلاة الظُّهر، ثم ذهب إلى بيته وتغدَّى، وعاد إلى المسجد لينام، فوجد ”غنيمة“ يقف عند كتب الشَّيخ ”مزيد“، وقد فتح أحد هذه الكتب بين يديه، وانهمك في التَّنظر إلى ما في بطنه.

لا ينام ”حجيزي“ أبداً طالما كان هناك أحد في المسجد، وإنما يجلس في مكانه عند العامود مستنداً بظهره إليه، ويمدُّ ساقيه، ويبدأ في تأمل أى شيء من تكوينات المسجد.

”الجدران عريضة جداً، يقترب عرض الجدران من متر كامل!“.

يتذكر ”سعدون“ وهو يقول: بنى العثمانيون هذه الجدران سميقة لهذه الدرجة، ليحتفظ المسجد بالبرودة صيفاً، وبالدفء شتاءً.

واستدرك ”سعدون“: العثمانيون كانوا أتقياء، لذلك اهتمُّوا بالمساجد أكثر من اهتمامهم ببيوتهم.

واستدرك قائلاً: تهدمت بيوتهم ولم يبق لها أثر، لكن بقي المسجد الذي بنوه.

لكن "غنيمه" أعصابه انفلتت لما سمع "سعدون" يقول: العثمانيون أحبوا الله أكثر مما أحبّه السلاطين الماليك، لذلك مكّنهم الله منهم فأهلكوهم.

صرخ "غنيمه" فكربت حنجرته، وتخبّط صوته: الأترك أنجاس أرجاس أولاد كلب، يتكلّمون من أنوفهم، ويعتقدون أن أى بشر غيرهم عبيد أبناء عبيد، وواحد فقط مثل "شقمق" بيك كسر أنف جيشهم بالكامل الذى أتى إلى هذه الصّحراء يطارد فرسان الماليك.

وضحك بغلٍ ساخر وهو يقول: بيوت؟! الجيوش لا تبني بيوت، وإنما تنصب معسكرات من مبانى هشّة حقيرة، تتركها ببساطة عند الرّحيل، المعسكرات دائماً أضعف من أن تبقى فى مواجهة الرّمن.

نظر "سعدون" بعينين حادّتين إلى "حجيزى"، وقال: يا "حجيزى"، الماليك جنباء، هربوا إلى الصّحارى البعيدة عن بلادهم، لكن العثمانيين ما تركوهم.

لكن "غنيمه" هتف وهو يقبض بيديه على جانبى ياقة جلبابه، كأنه سيمزقه: والله العظيم يا "حجيزى" ما هرب الماليك، الماليك كانوا يستدرجون العثمانيين إلى الصّحارى الغويطة، أنت رأيت يا "حجيزى" كيف "شقمق" بيك جعلهم يسفّون الرّمل!

قال "حجيزى": مالك يا "غنيمه" يا كذاب يا ابن الكلب، أنا ما رأيت "شقمق" ولا "بقمق".

فهبّ "غنيمه" واقفا، ثم هرول إلى الكتابة المنحوتة فى الجدار، وأخذ يمسح عليها بكفّه وهو يهتف: ما رأيت هذا يا "حجيزى"؟! ما رأيت هذا يا "سعدون"؟!!

ثم اتجه ناحيتها مهرولا، يقول: صَلَّى العشاء بينهم، وهم يبحثون عنه تحت كل حجر من أحجار الصَّحراء، لكنه صَلَّى العشاء بينهم، وما شعروا به.

وجلس على ركبتيه، وكان متحمِّسا جدا، يتكلم وينثر الرِّذاذ من فمه، وفم "غنيمة" أسنانه مكتملة، وناصعة البياض، لكن إذا صَلَّى على يسار "حجيزى" صرخ فيه بعد أن يسلِّم التَّسليمَةَ الثَّانية: أنت في فمك يا غنيمة رَمَّة كلب.

و"غنيمة" يتكلَّم بحماس، حتى أنه كان يتهجج، وحتى كأن قلبه سيقفز من فمه: تظنَّان "شقمق" بيك صَلَّى بينهم فقط؟! "شقمق" بيك لابد قتل من عساكرهم عشرة قبل أن يصِلِّي، تظنَّانه جاء من مكانه في قلب الصَّحراء ليصِلِّي في هذا المسجد فقط؟! أهو المسجد الحرام؟! هذا مسجد الأتراك الكفرة.

هتف "سعدون": إذا كان هذا مسجد الأتراك الكفرة، لماذا صَلَّى صاحبك فارس الفرسان بين الكفَّار؟!

ضحك "غنيمة" بتشف، وتكلَّم وكأنَّه قبض على رقبة "سعدون" وداس عليها بقدمه: ما تعرف لماذا صَلَّى بينهم؟! ما تعرف؟!

واستدرك: أنت يا "سعدون" في رأسك هذه، التي تشبه رأس سلحفاة، مخ حمار.

وسكت سكتة مثل لمحة، ثم نظر ناحية "حجيزى" وقال: وأنت لولا ملامة الناس، يقولون شتم الكبير، كنت قلت لك....

وقطع كلامه لما رأى "حجيزى" يجمع في فمه بصقة.

قال "غنيمة" وهو ينظر لـ"سعدون" من فوق إلى تحت: اسمع يا مدعوك يا ابن المدعوك، سأقول لك لماذا صَلَّى "شقمق" بيك بين الكفَّار، حتى يغیظهم

ويفقع مراتهم، ولولا هذه الصّلاة ما كانوا رحلوا والدّل يركب ظهورهم، ويدلّل رجله.

قلّب "حجيزى" وجهه فى أنحاء المسجد وهمس: يعنى نحن نصلى فى مكان بناه كفّار؟! استغفر الله العظيم.

فنظر "سعدون" وهو يفتح فمه وعينه إلى وجه "حجيزى": تصدّق هذا الذى رأسه فارغة مثل قُلل الشّتاء؟!..

قاطع "حجيزى": "أسكت يا "سعدون"، أنت صوتك يعجبك، وتريد تؤدّن، لكن هذا البناء ليس مسجدا، هذا يشبه قدس الأقداس فى بربة للمساخيط مررنا عليها بقافلة الرّهبان زمان مع والدى "شديد".

استلقى "غنيمة" على ظهره، وأخذ يغرق فى الضحك، و"سعدون" ينظر حوله ببلاهة من يشاهد العجائب.

وهمس "سعدون": يعنى صلاتنا كل هذا العمر باطلة؟!

قال "حجيزى": نسأل الشّيخ "مزيد".

واستدرك وكأن الحقيقة تجلت تماما لفهمه: طول عمرى أقول مسجد من غير نوافذ! كيف؟

وقال "سعدون": والعمود المرعّ هذا الذى يقف من غير اكتمال!

قال "حجيزى": لم أر فى قُدس البربة عامودا مثل هذا.

ثم استدرك: وربّما كان هناك عامود وأنا الذى لم انتبه لذلك، أو انتهت وقتها ونسيت!

قام "غنيمة" وهو مازال غارقاً في الضحك، وأخذ يخطف الكلمات من بين شهقاته: أنا طول.. عمري.. أقول عليكم.. زوج بهائم.

وبينا "غنيمة" يستدير بكل سرعة ليجرى نحو باب المسجد، كانت بصقة "حجيزى" قد التصقت بقفاه.

\*\*\*\*\*

قبل كل سفر إلى "موط"، أو إلى أى واحة قريبة أو بعيدة، لابد من غسل الناقة، وتعلم "بكير" هذا الطقس من أبيه، يقول "حجيزى": الاستحمام ينعش الثوق أيضاً.

أخذ "بكير" ناقته، وسحبها إلى خارج البيت، وعندما وجد ناقة أبيه تقف وحدها والماء يُقَطَّر منها، أخذ ينظر حوله يبحث عن "حجيزى".

وسأل "بكير" نفسه: هل قرّر "حجيزى" السفر؟!

ورفع عقيرته: يا "حجيزى"، يا والدى.

لم يجبه أحد، فدخل البيت، ورفع عقيرته: يا "حجيزى".

فظهرت "ثرياً" من خلف شجرة التين، وهى تضع سبائبها على شفتيها، ونظرة خبيثة فى عينيها، وسممة مأكرة على شفتيها، وهمست وهى تشير إلى حجرة "سريرة": "حجيزى" فى حجرة "سريرة".

بلحق "بكير" عينيه، وهمس: ماذا يفعل "حجيزى" فى حجرة "سريرة"؟!

هزّت "ثرياً" رأسها بدلال، وهمست: ينقون الثمر من شوائبه يا ناصح! قلت لك أبوك اليوم نفسه فى أمك!

كانت لهجتها ساخرة، لكن "بكير" كان مندهشا لدرجة أنه لم ينتبه لسخرية "ثرثيا"، حتى لم ينتبه إلى أنه استدار مثل ضبع حائر، وخرج من البيت.

ومشت "ثرثيا" إلى باب حجرة "سريرة" على أطراف أصابعها، وقربت أذنها من الباب كثيرا، كانت تريد أن تسمع التتهذبات، لكنّها سمعت "سريرة" تقول بحرقة وشوق: متّعى، متّعى.

فوضعت "ثرثيا" كفّها على فمها، ومضت مهرولة والدّم يضرب خديها.

وابتسم وجه "ثرثيا"، كانت تقول في سرّها: كيران في السن، ويعملان عمل الصّغار، هذى عجائب، الكركوبة تقول "متّعى"؟!

\*\*\*\*\*

الموضوع حلو في ليالى الشّتاء، وحلو أيضا في ليالى الصيف، لكنّه أحلى في الشّتاء، العناق والضّم في الشّتاء ألد وأطيب، والعري في الصيف أشهى.

في الشّتاء، يصلّى "بكير" العشاء، ويأتى إلى البيت، وفي المتّسع الذى خلف البوّابة يضع "القروانة" بالقرب من "الدكّة" التى سيأتى "حجيزى" من صلاة العشاء ليجلس عليها، ويفرد عليه بطّانية ثقيلة.

يشعل "بكير" التّار فى حطب الأشجار الذى قُطِع للتدفئة، ويتجمّع حول التّار كلُّ من فى البيت، "سريرة"، والعيال "سليم" و"سالم" و"سلمان"، وأنا.

و”حجيزى“ فى لمة لىالى الشِّتاء، يكون مثله مثل العيال، يجب الحكايات، فما أن يطلب منه عيّل من العيال حكى حكاية، حتى ينطلق، ودائماً حكاياته شبيقة، ولا نعرف من أين يأت بها، لكن أحلى حكاياته، هذه التى تكون مخيفة، التى يكون الموت هو بطلها.

كانت نار ”القروانة“ تلتقى ظلالنا على الجدران بعنف، حتى أن هذه الظلال كانت تتمزق على الجدران بقسوة، وكان ”حجيزى“ يقول بصوت تعمد أن يجعله عميقاً: ما يحلو الكلام إلا بعد الصلاة على النبى العدنان، كان فى واحة من الواحات الصغيرة التى تملأ الصحراء رجل فقير، وكان هذا الرجل متزوجاً من امرأة تعانى من مرض شديد، وكانت له ابنة صغيرة، عمرها سبع سنوات، فى مثل عمرك يا ”سلمان“...

لكن ”سليم“ قاطع ”حجيزى“: يا جدّى، لا يوجد فى واحاتنا فقراء، كل من حولنا يقول أننا يجب أن نحمد الله كثيراً لكونه خلقنا أغنياء.  
فقال ”حجيزى“: يا ابن الكلب يا ”سليم“، هذى حكاية، يعنى قصة غير حقيقية..

وكان ”حجيزى“ يهّم بالتكملة، لما قاطعه ”سليم“ مرّة أخرى: لماذا يا جدّى تكون الحكايات قصص غير حقيقية؟

قال ”حجيزى“ وهو يعتدل تحت بطّانته: ومن قال لك أن الحكايات قصص غير حقيقية؟

- أنت يا جدّى قلت هذا الآن! وكان ”سليم“ يرفع حاجبيه مستغرباً.  
فقال ”حجيزى“: عندما تكبر قليلاً سأقول لك كيف يمكن أن تكون القصة الحقيقية غير حقيقية.



ثم أخذ يكمل حكايته: فكان الرَّجُل لا يستطيع شراء الأدوية لزوجته التي يحبها كثيرا، فأخذ يفكر.....

لكن "سالم" هو الذى قطع كلام "حجيزى"، وكان يضحك: هل كان هذا الرَّجُل يا جدّى يحب زوجته، مثل ما أنت تحب "سريرة"؟!

لكز "بكير" الولد "سالم" فى جنبه، وهو يزعم: يا ولد تحشم، أنت ابن كلب.

أنا خبأت بِكُمْ جلبابى ضحكة رقت على وجهى، و"سريرة" أنت، وحرّكت الحطب المشتعل، وقالت: جدك يا "سالم" صار يحبُّ ناقته أكثر من "سريرة".

وأنت ثانية.

تجاهل "حجيزى" كلّ هذا الكلام، وأكمل حكايته: وقعد الرَّجُل يفكر، كيف يتحصّل على مال يشتري به الدواء لزوجته التى...

وسكت لحظة، ونظر إلى "سالم" نظرة متخابثة، ثم أكمل:... لزوجته المريضة، وبعدهما فكر كثيرا، لم يجد طريقة غير سرقة أكفان الموتى.

كانت النَّار تحبو، فيضع عليها "بكير" حطبا آخر، فتعود للتأجج، فتتوهج الوجوه الملتفة حولها بحمرة اللهب، فتبدو كوجوه العفاريت.

يشعر "حجيزى" بالقلوب حوله، وقد بدأ الخوف يشاكسها، فيلَوّن صوته بلون الرعب: فكان إذا عرف أن أحدا مات، لا ينتظر حتى يتبع الجنازة، وإنما

يسبق الجميع إلى القبور، ويختبئ هناك خلف صخرة من تلك الصخرات الأربع المهولة التي تحيط بالجبانة....

يقطع "سلمان" حكاية "حجيزى": هذا الرجل من بلدنا؟! من هو يا جد؟! قال "حجيزى" بوجه ارتسم عليه الغضب الصيباني: يا ابن البقرة، قلت لك هذى حكاية، الحكايات قصص غير حقيقية.

هتف "سلمان": لكن أنت يا جد منذ قليل قلت إنها حقيقية! قال "حجيزى" وهو ينظر للوجوه كأنه يستجديها الردّ نياحة عنه: أنا قلت الحكايات قصص حقيقية!؟

وكانت الوجوه تنظر إليه محتارة أيضا، كانت الوجوه تقول: "قلت". وأيضا تقول: "لم تقل".

- إذا قاطعني أحد مرّة أخرى فلن أكمل الحكاية، أنا وقفت عن الحكى عند... قال "سالم": الرّجل الفقير كان يسبق الجنّازة، ويختبئ خلف صخرة من الصّخرات الأربع التي....

قال "حجيزى": يختبئ خلف صخرة من هذه الصّخرات الشّاهقة الارتفاع، وينتظر حتى يدفن النّاس مبيهم ويمضون، فيخرج من خلف الصّخرة ويتّجه إلى القبر، يحفره مرّة أخرى، حتى يصل إلى الجثّة....

ويتوقّف "حجيزى" قليلا، ويعمّق صوته، وهو ينفذ ببصره داخل أعيننا المصوّبة إليه.

وقال ببطء: وعندما يصل إلى الجثة، يظل يقلب ويعدل فيها ليخلع عنها الكفن، والجثة تنظر إليه بعينين مفتوحتين نصف فتحة.

ظلُّ "سريرة" يتراقص على الجدار البعيد خلفها مثل شبح ضخم، وهي نفسها تتقلب أضواء النَّار على وجهها، فتبدو مثل جثية من جن الصَّحراء.

أكمل "حجيزى": ويأخذ الكفن، ويتركها عارية، ثم يهيل عليها التُّراب، ويمضى إلى البيت، يعطى بنته الصَّغيرة الكفن، ويقول لها: خدى يا بنتى هذا القماش، اغسله، وافرديه، حتى أبيعَه فى السُّوق، فأحضر نقودا، اشتري بها الدَّواء لأُمِّك المريضة.

وتأخذ البنت الكفن، فتغسله وتجفِّفه وتفرده، ويأخذه الرَّجل الفقير إلى السُّوق، ويبيعه، وبالفلوس يشتري الدَّواء، وبما تبقى يشتري طعاما فيأكلون.

كلما خبت النَّار، وضع "بكير" على جمرها الحطب، ونفخ فيها حتى تتأجج، فإذا ما أجت، انطلقت الأشباح ترقص على الجدران.

قال "حجيزى": وفى يوم من الأيام، امرأة ماتت محترقة، أكلتها النَّار، فذهبوا يدفنونها، وكان....

وقطع الولد "سلمان" كلام جدِّه، وقال كلمة قلبت حال القعدة: هذه المرأة "أم جميل" زوجة "سعدون"؟

صمت "حجيزى".

صمت طويلا وهو ينظر فى "قروانة" النَّار، كانت ألسنة اللهب تتلوى على زجاج عينيه مثل أفاع تهارش، ثم بدأت صور الأفاعى تذوب فى ماء طَفَّر

من عينيه، ثم انسحب إلى الورا، وفرد جسده على "الدكة"، وغطى نفسه بالبطانية.

قامت "سريرة" تتساند على ذراع "الدكة"، قبل أن تتوَكَّأ على عصاها، وتتحرك ببطء ناحية حجرتها، وهي تلوى شفيتها مضمومتين يمينا ويسارا. ولكز "بكير" "سلمان" في كتفه: قلنا اسكت يا ابن الكلب.

ثم هتف وهو ينظر للوالدين الآخرين: خدا هذا البيم واذهبوا ناموا في أماكنكم.

وأطفأ الثار بالماء، وغمر الرماد بمزيد من الماء، حتى لا يتعالى الدخان الكثيف.

\*\*\*\*\*

كان الدخان الكثيف يتعالى من سقف الحجرة الذي تأكل تماما، وكان يتدفق أيضا من الثافة التي حُمت التيار ضلفتها الخشبيتين، وكان الناس يتدافعون للدخول إلى الحجرة.

حرارة الوهج مازالت لا تطاق، لكن كان لابد من إخراج جثة "بنينة" وابنها "جميل"، والكلوبات لا تفلح في إزالة عتمة الغرفة، فالدخان يتفجر من كل ما هو محترق، وجثة "بنينة" غير مرئية، كانت الرمال التي ألقيت لإطفاء التيار تغطي أرضية الحجرة، وتغطي خشب السقف الذي تهالك إلى أسفل، وجثة "بنينة" وولدها لاشك في أنها أسفل كل هذا.

تعلو الأصوات، وتختلط، وكلها تصف طرقا عديدة لابد من اتباعها لإخراج الجثتين: على محل، على أقل من المهل.

- ارفعوا الفلق هذا.

- لا ترفعوا الرَّمْلَ بالمساحي، أرفعوه بأيديكم يا ناس الخير.

وواحد من النَّاسِ، يقف بجوار الباب، يهمس لآخر يقف وهو يشرب برأسه، يريد النَّظْرَ إلى داخل الحجرة: لن يجدوا شيئاً، غير عظام، جسم بنى آدم مثل السَّمْعِ، تذييه النَّارِ.

و"سعدون" جلس على الجوال المليء بغلَّةِ الدُّرَّةِ، والذي كان نائماً عليه، من غير حركة، حتى عيناه لم تقطراً دموعاً، فقط كان ينظر إلى خارج باب الغرفة، حيث ضوء النَّاسِ، ووشيش النَّارِ، لكنَّه مال بوجهه، ونظر في عيني "حجيزي" الدَّامعتين، وابتسم!

ووصلت أصوات النَّاسِ وهي تعلو نجاة: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

كانوا قد وجدوا الجثتين، بعد أن سحَبوا الرَّمْلَ، لم تأكل النَّارُ لحمها، لكن فقط أذابته، صهرته، فالتصقا بحيث لا يمكن فصلهما أبداً، وأصحاب القلوب القويَّة رفعوا الجثتين ببطء شديد، خشية أن يتمزَّقا، وأصحاب القلوب الرقيقة فُروا إلى الخارج وإلى الأركان، وأخذوا يستفرغون ما في بطونهم.

الجثتان بشعنا المنظر، ساح اللحم فتغيرت خلقتهما، هل هذا هو الإنسان الجميل الخلق؟! ليس جميلاً في الإنسان إلا بشرته، هذا الغلاف الغاية في الرِّقَّةِ، لكن كلُّه بعد ذلك بشع.

ظل "حجيزي" يجلس على الأرض، تحت رجلى "سعدون"، ودخل ناس الغرفة، ودخل "سعداني" وفي يده كوب من الصَّفِيحِ ممتلئ ماءً، وقدمه لـ"سعدون".

ولم يمد "سعدون" يده ويأخذ الكوب، فقال "سعداني": خذ اشرب يا خال.  
وقرب الكوب من فم "سعدون"، لكن "سعدون" ضرب الكوب بيده فطيره  
من يد "سعداني"، وصرخ: لا أريد الشرب.

وقال "غنيمة": وجد الله يا "سعدون"، وحد الله.

فنظر "سعدون" في عيني "غنيمة" نظرة قاسية، كأن "غنيمة" قد ذكره  
بعده، فقال "غنيمة": استغفر الله العظيم.

\*\*\*\*\*

- العصفور دخل القطار في محطة "الخارجة"، دخل العربة المخصصة لمدير  
شركة المعادن، شركة الخواجات الإنجليز، هذه عربة غير كل عربات القطار،  
هناك عربتان يشبهانها، لكن بقية العربات هي مسطحة لنقل خام المعادن.

النور ينسحب، وبعض من رجال يتجهون فرادى إلى باب المسجد،  
يستعدون لصلاة المغرب.

قال "غنيمة": العربة ليست مخصصة بالتحديد للمدير، بل هي لأي شخصية  
أخرى مهمة، المهندسين مثلا، والزوار من "مصر" المحروسة، الخلاصة، هذه  
العربة للشخصيات المهمة، يسمونها "بولمان" يا "حجيزي"، كراسيها محشوة  
بقطن مكبوس في قماش قطيفة، وغير مثبتة بأرضية العربة، حتى تأخذ هذه  
الشخصيات الكبيرة راحتها، وعلى شبائيكها ستائر ملونة، مرسوم فيها ورود،  
ومرسوم فيها صور نساء، نساء يا "حجيزي" سبحان من صور، نساء نساء،  
لسن مثل هذه الغربان التي نربها في بيوتنا.

وارتفع صوت "سعدون" بأذان المغرب.

فهبوا واقفين، وتحركوا ناحية المسجد، وقال "غنيمة": بين الكراسي مناخذ مثبتة في أرضية العربة، لا بد من تثبيتها حتى لا تهتز فينقلب ما عليها من عصائر وأطعمة يقدّمونها لهذه الشخصيات المهمة، العصفور دخل هذه العربة طبعاً خطأ، ما كان يقصد دخولها، وهل هناك عصافير تسافر بالقطارات!؟

ووصلا إلى باب الميضاة، وكان "سعدون" يزعق فوق سطح المسجد بأخر كلمة في الأذان: لا إله إلا الله.

## بئر الرَّاهِب

هناك بئر فيأضة شمالي "الوعرة"، ماؤها فيه بركة، يسقى العشرين فدّان ويظل ماؤها يقب، كأنّه يريد الهرب من ظلام الغياهب في بطن الأرض إلى نور الشمس على سطحها، حتى ولو سيبتخر.

وهناك نبع ربّاني قبلي "الوعرة"، كانت ماؤه زمان تعمل بحيرة، وكان في البحيرة سمك، ولسبب إلهي ظل هذا التّبع يضمر، وظلّت البحيرة تتناقص بدرجة غير ملحوظة، حتى انتبه النّاس في يوم لعدم وجودها، لكن بقيت بركة، ثم اختفت البركة، وانكشف فم التّبع.

فتحة صغيرة تمثّل دائرة قطرها نصف متر، أو أكثر قليلا، والماء نزل تحت مستوى هذه الفتحة شبرا، ولأنه كان قد وضح تماما أن التّبع يفيض، بدأ النّاس في المسجد يصلّون لله ألاّ يجف هذا الماء الذي يشربون منه، ويطبخون منه، ويستحمّون به، حتى ماء الخزان الخاص بالمليضة يجلبونه منه.

لكن الماء نزل شبرا آخر، وبعد سنّة أشهر كان الماء قد نزل إلى ما هو أكثر من سبعة أمتار، وتعدّرت جلب الماء منه جدا، ليس لبعد الماء، فقد كان بإمكان ناس "الوعرة" دائما جدل حبال طويلة ومثينة من ليف التّخيل، وإنما لسبب آخر يتعلق بتكوين التّبع نفسه، لم يكن التّبع يتجه إلى عمق الأرض باستقامة عمودية، وإنما كان يتجه إلى باطن الأرض بميل بسيط، ممّا كان



يجعل سحب الماء مجهدا للغاية، لكن استمر سحب المياه بدلاء تم ثنى حوافها، وتغطيتها بجلود الجمال الثافقة بعد دبغها، ليسهل سحبها وهي تحتك بالجدار الصّخري المائل للتّبّع.

ورغم الصّلوات الكثيرة، كان ماء التّبّع يغور أكثر وأكثر، حتى جاءت إلى ”الوعرة“ قافلة صغيرة تحمل راهبا يقصد أعماقا أبعد في الصّحراء، اسمه الرّاهب ”يوحنا“، وطلبوا منه الدّعاء للتّبّع، أن ينبع ماءؤه، فيفيض مثلما كان، ويصبح ماءؤه في متناول أيدي نسائهم التي كلّت، ودعا الرّاهب ”يوحنا“ طويلا، ثم سرح بعمق، ولما أفاق قال لهم: ماء التّبّع لن يزيد، لكنّه لن ينقص بعد الآن.

ولم ينقص ماء التّبّع من يومها، فسّموا التّبّع ”بئر الرّاهب“.

في هذه الصّحارى الشّاسعة، لا يمكن التفريط في قطرة مياه، نعم جلب الماء من البئر الشّمالي أسهل كثيرا، وقد صاروا مؤخّرا يأتون بمياه ميضأة المسجد منه، لأن الميضأة تحتاج لمياه كثيرة، لن يمكن توفيرها بسهولة من التّبّع المائل، لكن استمروا في سحب المياه الخاصة باحتياجات البيوت منه.

ولم يكن ممكنا أن يبنوا سورا بمحاذاة الفتحة كلّها، بسبب ضيقها الشّديد، فبنوا نصف سور منخفض حول نصف الفتحة، وأبقوا النّصف الثانى على حاله، ليسهل جذب الدّلاء، وكانت نخلتان تخرجان من جذر واحد تضربان فى السّماء، قُرب البئر من ناحيتها الغربيّة، فكان، دائما، يرتقى ظلّها على البئر والمنطقة الضّيقة المحيطة بها، بحيث تحلو القعدة هناك وإن اشتد حرّ الظهيرة فى أيام الصيف الملتهب.

والنساء هنّ من يجلبن الماء من التّبع، الرّجال تركوا هذه المهمّة لهن، وذهبوا يزرعون في غيطانهم، أو يسافرون على أسنمة الجمال، يقطعون الصّحراء، التي تقطع، بدورها، أعمارهم.

وكان "سعداني" في "الحطيّة"، حقله المُسوّر بالطُّوب الجيّرى الأبيض، عندما أخذت "منيرة" زوجته صفيحة المياه الفارغة، وجرت خلفها الولد "صالح"، وأنجّمت به صوب "بئر الراهب".

وعلى الرغم من إجماد سحب الماء من التّبع، فإن أجمل الأوقات بالنّسبة لنساء "الوعرة" هي هذه الأوقات التي يقضيها هناك، يتضحكن فيها ويتغامزن، ويفضضن لبعضهن ويكيين، والتّخلتان تنتصبان حانيتين، والصّخور الضّخمة عجيبية الأشكال، راسخة في الورااء البعيد، تراقبن في صمت، بينما الرّمال تمتد أمامهن، وعلى يمينهن، من غير انتهاء.

كانت "ثرّياً" تقف بجوار فتحة التّبع، تحت رجليها صفيحتها، تنتظر دورها في ملء المياه، عندما فوجئت بـ"منيرة" تقرصها في فخدها، وتقول: هيه يا عروسه، أيام وتكونين عند البئر السّاخنة.

تضحكن السّوسة وتغامزن، وقالت واحدة: سنلتقى بها في حوض المياه لتعوم فيه مثل سمكة.

وضحكت واحدة أخرى، وقالت: ليصيدها "بكير"، ويأكلها على السرير.

وارتفعت صيحاتهن إلى السماء مثل الطيور البيضاء، التي تحلق بعيدا إلى الشمال، بينما تكاد "ثرثا" تذوب جلا، مثل قطعة سكر في دورق مياه.

لم يكن هناك ما يمهد لهذه الفاجعة، الشمس في العصارى متوهجة، والسماء صافية، والصحراء براقية بلون الذهب، والبيوت في علاقاتها الحميمة، والنبع نضاح، والضحكات رقرقة، وفي الصحراء القريبة ثلاثة جبال تنهادى من غير راع، تأكل من عشب الرمال.

ماذا رأى "صالح" لكي ينطلق بكل سرعته ويلقى بنفسه في "بئر الراهب"؟! لا أحد يعرف، ولا أحد سيعرف!

كان يلهو عند جذع التخلتين مع بقية العيال الذين أتوا مع أمهاتهن، يبنون من طين الرمال المنتشر حول النبع بيوتا، وصخورا غريبة الأشكال، ويعملون جمالا وحميرا، لا تستطيع الوقوف أبدا على سيقانها الأربعة، وكان "صالح" يقطع بيديه الصغيرتين من طين الرمل، عندما نظر فجأة نحو فتحة النبع، ثم جرى إليها.

كانت النساء قد غرقن في اللهو والضحك، حتى أن المرأة التي تملأ آنتها، توقفت عن الملء، ففتح النبع فاه، ولم تنتبه واحدة منهن لهذا الصغير الذي كان يجرى في اتجاه النبع، "منيرة" انتهت في اللحظة الأخيرة، هذه اللحظة التي دائما ما تسبق المصائب، ولا يكون بمقدور الإنسان فيها عمل أى شيء، غير النظر إلى ما يحدث وهو يشهق.

كان "صالح" يريد التوقف عند حافة البئر، لكن اندفاعه السريع لم يُسعف رغبته في التوقف، فالتقمه فم التبع المفتوح.

\*\*\*\*\*

كان باب حجرة "سريرة" مفتوحا، فأتجه "حجيزى" إليه وهو ينظر حوله خشية أن يراه أحد.

المسافة بين مدخل الوسعاية وباب غرفة "سريرة" ليست أكثر من عشرة أمتار، لكن "حجيزى" شعر بها طويلا جدا، حتى أنه بدأ يلهث، فلاكثر من عشرين سنة لم يمش "حجيزى" في هذه الطريق.

حدّث نفسه وهو يدلف من باب الحجرة إلى الدّاخل: ماذا تريد "سريرة" من رجل يستعد للموت؟! نسيتهى وأنا حى، وتذكرنى الآن؟!

أغلق "حجيزى" الباب خلفه بهدوء، أكرة الباب نحاسية وتبرق، وصوت اللّسوة المتجمّعات بالخارج يطنّ فى أذنيه، كان صياحمن صياحا فرحا مبهجا، وكانت تعلو أحيانا ضربات منعمّة على الطّار، كل هذه الأصوات لم تكن فى أذنيه إلا طينا غير مفهوم، كان عقله مرّكزا فى المهمّة القادمة، سينام لأول مرة مع امرأة، وليست أى امرأة، إنها "سريرة".

رفع وجهه عن أكرة الباب الوهّاجة، ونظر إلى "سريرة".

كانت واقفة فى الرّكن ما بين الحائط والسّيرير الثّحاسى العالى، كانت واقفة قمرا يضىوى، ليس بالصّياء الأبيض، وإنما بفستان من كل الألوان، مثل هذه الأزهار التى تبزغ فجأة على أغصان بعض أشجار الصّحراء الشّيطانية.

وفي الرُّكن المقابل كانت حمامة صغيرة تقف منكمشة، وهي تهز رأسها بينها.

كل شيء في الحجرة يصرخ بالحياة، كل شيء يشرب من نور الكلوب، ويشع بهجة، لكن "حجيزى" يتذكر الموت الآن!  
"سريرة عروس تمتلئ موتاً".

"كيف تكون هناك لحظات مبهجة في حياة تمتلئ بالموت؟!".

ارتفع صوت أغاني النساء خارج الغرفة، وكان على "حجيزى" أن ينهى المهمة، فتحرك ثقيلًا نحو "سريرة"، وعندما وصل إليها تحركت ذراعاها نحو كتفها، فبرجمت الحمامة في ركنها، واضطرب شيء في صدره، ولمّا ارتاحت يداها على جانبي رقبتها، عربدت فيه روح المجنون، فرفعها من تحت إبطها ليلقى بها على السرير.

وانسدحت "سريرة"، وشعرها الفاحم الطويل ملأ الفراش، وذيل فستانها الملون هرب إلى أعلى، فطلت سمّاتنا ساقها ليفتح الباب لهوس الرغبة، فأصاب الجنون "حجيزى"، فنسى الموت، ورمى نفسه في أحضان المرأة.

هذا كان منذ زمن لا يجيد "حجيزى" إحصاءه، لكن الآن أكرة الباب لم تعد برّاقة، حتى يبدو أنها لم تعد نحاسية، كل شيء في الحجرة حال لونه، و"سريرة" تجلس على السرير هيكلًا عظيمًا تعلقت عليه ملابس نسائية، تنظر إليه بعينين داعيتين، وفما فيه ابتسامة حافظت رغم طول السنين على

بقايا من سحرها القديم، فتتحرك "حجيزى" نحوها ببطء، ونظر إلى الركن الآخر، لم تكن هناك الحمامة الصغيرة.

\*\*\*\*\*

كان هناك في قلوبهم خوف، رغم أن الحكاية لم تكتمل. تمدد "سالم" و"سلمان" على سريرهما، وتغطيا بلحاف ثقيل، وتمدد "سليم" على دكة وحيدا، ولق حول جسده بطانية ثقيلة أيضا.

الغرفة غارقة في الظلام، ولم يكن فيها من نور، سوى شعاع من ضوء القمر المكتمل، ينسل وحيدا من شرخ في خشب النافذة الوحيدة، هذه النافذة الوحيدة والضيقة أيضا، قال "سلمان" بصوت خافت: هل سيسرق هذا الرجل الفقير كفن "أم جميل"؟!

قال "سالم": لم يكن جدى يتكلم عن "أم جميل"، كان يتكلم عن امرأة أخرى.

قال "سلمان": امرأة محروقة أيضا، شكلها مرعب، مثل شكل "أم جميل" لما احترقت.

جاء صوت "سليم" عاليا فجأة: وهل رأيت شكل "أم جميل" وهي محترقة؟ كنت أنت وقتها في علم الغيب يا بارد.

قال "سلمان" بصوت خفيض: ماذا يعنى بأننى كنت في علم الغيب يا "سالم"؟

قال "سالم": يعنى لم تكن وُلدت بعد، كنت في عالم غير العالم.

قال "سلمان" مندهشا: عالم غير العالم!! أين هذا العالم؟! أنا خائف.

قال "سالم": إذا كنت خائفاً، فلتسكت حتى تنام، الكلام في الظلام مخيف.  
سكت "سلمان"، لكن صوت "سليم" جاء جهورياً عالياً: بعد أن دفن الناس  
المرأة المحروقة، خرج الرجل الفقير من خلف الصخرة، وأتجه إلى القبر،  
وحفره مرّة أخرى، حتى وصل إلى الجثّة المحروقة.

سكت "سليم"، كان الصمت الثّقيل يدوس على ظلام الغرفة، وكان الصمت  
والظلام يدوسان على قلبي "سلمان" و"سليم".

- كانت الشمس تغرب، والثور ينسحب من القبر، وأخذ الرجل الفقير يشد  
الكفن، لكن الكفن كان ملتصقاً بالجثّة المحترقة، فكان كلاً جذب القماش  
خرجت فيه قطع من لحم المرأة، وعندما كان الكفن يسحب عينيها، لم تتحمّل  
المرأة نزع عينيها، فصرخت في وجه الرجل: وaaaaaaaaaaaaaa ع.

قالها "سليم" فجأة، وبصوت عال، فقفزت المرأة المحترقة على جسدي "سلمان"  
و"سالم"، وقبضت على رقبتها، وهما يصرخان: يا اaaaaaaaaااه، يا ماaaaaaaaaااه .

\*\*\*\*\*

الموضوع حلو في ليالي الشتاء، وحلو أيضاً في ليالي الصيف، لكنّه أحلى في  
الشتاء، العناق والضم في الشتاء أذ وأطيب، والعري في الصيف أشهى.

تكوّم "حجيزي" تحت بطّائنته، وأخذ ينشج، ولكز "بكير" العيال مغاضباً،  
فانطلقوا نحو حجرتهم، الحكاية مخيفة، وصارت بذكر "أم جميل" محزنة أيضاً،  
وشبح "سريرة" وهي تتوكّأ على عصاها، يمشی مرتجاً على الجدران، بسبب  
لهب اللمة الجاز الذي يتراقص دونما سبب، فلم تكن هناك ريح، كل ما  
حولى مرعب، حتى "بكير" كان مرعباً وهو يطفئ النّار، مثل غول يهجم

على بنت تتلوى تحت قدمه تتشبَّث بالحياة، ولماً يئس من مقاومة النَّار لقدمه، صبَّ عليها الماء، فخرجت روحها بصوت مثل صوت جناح يرفرف.

البرد، صقيع يلتصق بكل شيء، حتى يد "بكير" صارت مثل يد الهون الثَّحاس، مثلجة، ينفض جسدى من حركة يده على جلدى تحت جلبابى، همست: يدك مثلجة يا "بكير".

أخذ "بكير" يحرك يده بسرعة على جنبى وظهرى، وقال: ستدفاً يدى يا "ثرياً".

ثم قال بصوت متكسّر: وسأدفئك الآن حتى تتصبّين عرقاً.

أحب العناق والضمّ فى ليالى الشِّتاء، البرد يدفعنى دفعا للالتصاق بـ "بكير"، و "بكير" يلتصق بى حتى لو نام معطياً ظهره لى، لكن لو نام معطياً وجهه لى فإنه يعانقنى، وأنا أحب "بكير" لماً يعانقنى فى البرد، جسده يتوهج بالدّفء، وأنفاسه كأنها روح النَّار، يؤجّجها فىّ، ثم يقوم يعتلينى بجسده الثَّقيل، ويظل يهرس عظامى، ولا يتوقّف إلا إذا أطفأ النَّار.

لكن فى هذه الليلة أحببت عناقه، ليس بسبب البرد فقط، وإنيّ بسبب الخوف أيضاً، فما أبشعها أكفان الموتى، وما أبشع منظر الأجساد التى سلبت منها الحياة، وما أبشع شبح "سريرة" وهو يتأرجح على جدران المنزل، وجثّة "حجيزى" وهى تتلوى تحت البطّانية، وتنشج، وثلاثة ملائكة فى ثياب بيضاء تغرق فى الظّلام وهى تتّجه إلى حجرتها.

- أنا خائفة.



يد "بكير" تروح وتجئ على بطنى وتحت إبطنى.

- البرد قارس يا "ثرثيا".

- اللون الأبيض جميل، لماذا تكون الأكفان لونها أبيض؟!

قام "بكير" وتمدد بجسده فوقى، همس: ليالى الصيف حلوة، أرى فيها قميص الثوم الأحمر، وبياضك يبرق تحته.

"بكير" يجلو كلامه فى الليل فقط، لكن طوال النهار ينهر ويشتم، وليل "بكير" ينسينى دائما نهاره، وأبقى فى النهار أنتظر ليل "بكير".

وبدا يهرس عظامى، وكان خوفى ينز من مسامى، وكنت سأغيب عن هذه الليلة، عندما خف حمل "بكير" فجأة، واصطدمت الليلة المريعة بوجهى.

"سلمان" و"سالم" يصيحان مفزوعين

\*\*\*\*\*

خرج "محجيزى" من المسجد بعد انتهاء صلاة المغرب، وخرج وراءه كل من "غنيمة" و"سعدون"، كانت السماء تتلَوَن بالعتمة، والبيوت تبدو من بعض أبوابها أضواء لمبات الجاز، والأطفال الرعاة يدخلون بأغنائهم البيوت، حيث حظائرهما، ثغاء الغنم والماعز، بلبله جديان، وصياح الأطفال الفرحين بالعودة من المراعى البعيدة.

قال ”غنيمة“ لـ”حجيزي“: العصفور دخل عربة القطار وهو يكاد يتحرك، فأغلق عامل العربة بابها، وكان الخواجة مدير الشركة يجلس وحده، وينظر في كتاب.

قال ”سعدون“: أنا ذاهب إلى بيتي أتعشى مع عيالي .

فقال ”غنيمة“: أنا ذاهب أتعشى مع ”حجيزي“.

فقال ”حجيزي“: اليوم أنت تغدّيت معي، تتعشى أيضا!؟

سحب ”غنيمة“ ”حجيزي“ ناحية بيته، وهو يقول: يا أخي أكمل لك حكاية العصفور.

جلسا على المصطبة الصخرية أمام البيت، وزعق ”حجيزي“: ”سلمان“، هاتوا العشاء هنا، ”غنيمة“ سيتعشى معي.

”غنيمة“ قال: العصفور أخذ يحلّق في سماء عربة القطار، ويرى الأرض تجرى خلف زجاج بعض النوافذ، فيطير ليخرج، لا يعرف العصفور أن هناك زجاج يمنع خروجه، فكان يخبط في الزجاج ليعود ويحلّق من جديد.

صوت خبط العصفور في الزجاج جعل الخواجة ينتبه، وفي هذه اللحظة دخل عامل العربة، بيده صينية ترهب بلون الفضة، عليها كوب من عصير الليمون يبرق من نظافته.

نظر ”غنيمة“ في وجه ”حجيزي“ الذي ذابت ملامحه في عتمة ما بعد المغرب: كوب الزجاج هذا ليس مثل الأكواب الصفيح التي عندنا، ولا حتى مثل

الأكواب الرُّجاج التي عندنا، هذا كوب رشيق، يقف في منتصف الصِّينية طويلا، ضيق قليلا من أسفل، ويتسع كلما طال، قعره يمس مثل جوهرة تصب بريقا.

قال "حجيزى": أنت رأيت جوهرة طوال عمرك يا "غنيمة"؟

عاد "غنيمة" بظهره إلى الورا، وأخذ نفسا طويلا نفخ به صدره، وكركب صوته: يووووه، رأيت جواهر كثيرة، رأيتها في فتارين محلات الذهب في "أسيوط"، يضعون فصوص الجواهر في الخواتم والحلقان.

كان "سليم" و"سالم" قد فرشا حصيرا على الأرض في مواجهة باب البيت من الخارج، حيث ينسكب ضوء لمبة الجاز، وجاء "سلمان" يدحرج الطَّبلية ذات الأرجل القصيرة، حتى وضعها على الحصير.

قال "غنيمة": المهم، وضع الرَّجل كوب العصير أمام الخواجة، واستدار ليمضى، لكنَّه سمع الخواجة يقول: تعرف يا ولد تمسك هذا العصفور؟

الولد لم يكن ولدا يا "حجيزى"، كان رجلا متزوجا ومعه عيِّل، لكن الإنجليز عندهم عنطرة التُّرك، مثلهم، وجوههم حمراء ومنتفخة، والذي يخدمهم ممها كان كبيرا في السن ينادونه: يا ولد!

وضع المصرى الصِّينية على إحدى المناضد، وكان العصفور يطير بطول العربة، وعندما يتعب يقف على أى بروز، رف العربة، أو منضدة، أو حافة الشُّباك من الدَّاخِل، يقف يهز رأسه وهو ينظر لكل شىء بسرعة، والخوف ملأ صدره، خاصة لما رأى هذا الآدمى الأسود يحاول أن يسد عليه مجال طيرانه، ناظرا إليه بعيني ثعلب.

ونظر "غنيمة" إلى "سليم" وهو يضع على الطّبلية "طاجن" فخّارى أسود عتيق، يتصاعد منه بخار طبيخ المرق الذى غرقت فيه قطع كبيرة من اللحم. قال "غنيمة": الخواجات الإنجليز يختارون للخدمة مصريين وجوههم سوداء مثل قعر هذا الطّاجن، لا أعرف لماذا يختارون السُّود دون غيرهم!! ضحك "حجيزى"، ضحكة رجل يسخر، وقال: أنت أسود يا "غنيمة". وقال "غنيمة": خلقة ربنا.

وقام "حجيزى" من على المصطبة، وقام "غنيمة" أيضا، وجلسا حول الطّبلية، وجاء "بكير" وسلم، وجلس يأكل معها.

- أخذ المصرىّ يتنطّط في عربة القطار مثل قرد، ولا يستطيع الإمساك بالعصفور، حتى تعب جدا، فنسى نفسه من التّعب، وجلس على أحد هذه الكراسى الفخمة، لكن صوت الخواجة، وهو يصرخ كالملدوغ، جعله ينتصب واقفا بسرعة الطّريشة: قم يا ولد من على الكرسي، نسيت نفسك؟! العصفور، امسك العصفور يا ولد.

لكن الرّجل كان قد فقد طاقته.....

كان "حجيزى" يغمس لقمة خبز في المرق السّاخن، عندما دوّت كركبة ضحكة "غنيمة"، و"غنيمة" عندما يضحك فإنه سيظل يضحك طويلا، وقد يفعل مثل "سعدون"، وينسده على ظهره قبل أن يفيق، فضلاً "حجيزى" يأكل، و"بكير" تملأ وجهه ابتسامة مندهشة وهو ينظر إلى "غنيمة".

أخيرا شهق غنيمية، وقال: المصرى طلعت روحه وهو يحاول الإمساك بالعصفور، لكن العصفور وحده وحده سقط في يد الخواجه!

ثم غرق "غنيمية" في الضحك مرة أخرى.

\*\*\*\*\*

قالوا للشيخ "مزيد": كيف نغسلها يا مولانا؟ التار أذابت الجسد، وولدها ملتصق بها!

فقال الشيخ "مزيد": الذى يموت محترقا يموت شهيدا، والشهيد لا يغسل، وإنما يكفن على حاله، لقوها مع ولدها فى كفن واحد، وهاتوها للمسجد نصلى عليها، إسرعوا، فإكرام الميت دفنه.

كان "محيزى" قد وقف أمام باب حجرة الخزين، التى يجلس "سعدون" بداخلها، وكان يسمع ما يقوله "مزيد".

"من قال إن إكرام الميت دفنه؟! دائما الأحياء هم من يقولون هذا، سأصدق لو قالها ميت!".

دخل الشيخ "مزيد" حجرة الغلال، ووضع يده على كتف "سعدون"، وقال له: الأمر لله يا عم "سعدون"، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

فنظر "سعدون" فى وجه "مزيد" نظرة تائهة، وهمس: خير لكم؟! أين الخير الذى هو لنا؟!

وفجأة هبَّ "سعدون" واقفا وهو يجأر: خير لكم!؟ بيتي تأكله النَّار، وتقول  
خير لكم!؟

ثم اندفع إلى خارج الحجرة مثل ناقة غاضبة، وتكلَّم وصوته يردد: "زليخة"  
تأكلها النَّار، وتقول خير لكم!؟

وحاول النَّاس أن يمنعوه من الوصول إلى جثَّة "بثينة" وولدها، لكنَّه كان يدفع  
النَّاس بقوة ثور هائج، ويصرخ: يا "زليخة"، يا "زليخة".  
وكان النَّاس يزعقون: وجدَّ الله يا "سعدون".

وخافوا أن يذهب عقله، ينادى "زليخة" التي ماتت منذ أكثر من عشر  
سنوات، وينسى "بثينة" التي ماتت الآن!؟

وقف "سعدون" أمام كومة اللحم المشوَّهة، وتكلَّم، وصوته غرغر: أين  
"جميل"؟

لم يكن واضحا من "جميل" غير ملامح لجسد طفل عمره سنتين، ونعر  
"سعدون": يا "جميل"، يا "جميل".

تكلبوا عليه، وأبعدوه عن كومة اللحم المشوَّهة، وكان يضربهم ويلكزهم وهو  
ينعر، ثم سقط بينهم، وهمد جسده بعد أن ذهب في غيبوبة.  
و"حجيزى" كان ينظر لكومة اللحم.

"لو كنت أنا هذا اللحم المشوَّه، هل كنت سأكره الدفن!؟".

\*\*\*\*\*

- القبر أوَّل منازل الآخرة.

قالها "مزيد" في أحد الدُّروس التي يلقيها أحيانا بعد أذان العشاء، قبل الصَّلَاة.

في ظل شجرة أثل كبيرة كانت إحدى التِّعاج قد استسلمت تماما، كانت ملقاة على جنبها بينما "حجيزى" يجلس وقد فرد إحدى ساقيه على رقبته، بينما كان يدوس بيديه على مؤخِّرتها، وكان "سعدون" يجز صوفها بمقص حاد.

قال "حجيزى": شجرة أثل قبيحة، لو كانت شجرة برتقال!

قال "سعدون" من غير أن يرفع وجهه عن الصُّوف الذى يجزّه: ومن سيزرع شجرة برتقال في هذه الصَّحراء البعيدة؟!

قال "حجيزى": في الطَّرِيق إلى "موط" شجرة برتقال.

قال "سعدون": ربما أحد المسافرين زرعها هناك.

لوى "حجيزى" شفثيه: أكثر ناس يحتاجون لزراع أشجار على الطريق هم المسافرون، وهم أكثر ناس لا يفكِّرون في زراعتها.

وقال: تذكَّرت شجرة البرتقال هذه عندما قال "مزيد" إن القبر أوَّل منزل في طريق الآخرة، وإنه إما يكون..

وقال "مزيد" في درسه أيضا: القبر منزل تجهِّزه في دنياك، عملت أعمالا صالحة، يصير لك روضة من رياض الجنَّة.

وأوضح الشيخ "مزيد": الرُّوضة قطعة من الجنَّة، شئ يشبه بستان مزروع بأشجار الفواكه، مثل هذه التي تزرعونها، لكنَّها أروع بأكثر مما تتخيَّل.

واكمل كلامه: أمّا لو عشت حياتك تعمل الذنوب ولا تتوب، فسيكون القبر والعياذ بالله حفرة من حفر الثّار.

كان "سعدون" قد أمّ جزّ هذه التّاحية من جسم التّعجة، فرفع "حجيزى" ساقه من على رقبته، فهبّت واقفة، وقبل أن تركض مبتعدة، كانا قد ألقياها على جنبها الآخر، ورقص "سعدون" طرفى المقص فشخل.

قال "حجيزى": يا "سعدون"، أنا ذهبت للمقبرة التى وجدوا فيها أمواتا مدفونين منذ آلاف السنين، بعد "موط" بمسافة طويلة، رأيتهم، وكان قبرهم مثل غرفة، ولم يكن فيه ولا شجرة فواكه، ولم تكن جدران القبر مسوّدة بالهباب حتى نقول إنه كان حفرة نيران!

رفع "سعدون" وجهه عن الصّوف والمقص، خطف وجهه خطفا مثل ملدوغ، وقال: استغفر الله يا "حجيزى"، عقلك دائما يسرح بك فى ما يغضب الله، أخاف نهايتك تكون سوداء.

لكن "حجيزى" نظر لعينى التّعجة، وقال: ماذا تقولين؟!

توقّف "سعدون" عن الجزّ تماما، ونظر فى عينى "حجيزى" ببلاهة، ثم قال: تكلم التّعجة يا "حجيزى"؟!

قال "حجيزى": أنا ما كلّمت التّعجة يا "سعدون"، هى التى كلّمتنى.

ضحك "سعدون": التّعجة كلّمتك يا "حجيزى"؟!

هزّ "حجيزى" رأسه مؤكّدا، فقال "سعدون": وماذا قالت لك يا "سليمان" زمانك؟!



- قالت لي، كَلِّمْنِي أَنَا أَحْسَنُ، فَأَنَا نَعِجَةٌ، لَكِن صَاحِبِكَ هَذَا حَارٌ.  
فَأَلْقَى "سَعْدُونَ" الْمُقَصَّ عَلَى الرِّمَالِ، وَأَخَذَ يَضْحَكُ، وَبَطْنُهُ يَرْتَجُّ مِثْلَ عَجِينِ  
الْخُبْزِ النَّيِّ فِي الْمَاجُورِ لَمَّا تَخْبَطُهُ "ثَرِيًّا" بِيَدِهَا وَهِيَ تَقْلِبُهُ.

\*\*\*\*\*

صَحَنَ الْمَسْجِدَ سَاحِرٌ فِي اللَّيْلِ، عِنْدَمَا يَضِيئُهُ الْكَلُوبُ بِنُورِ خَافَتِ، وَفِي هَذَا  
النُّورِ يَجْلِسُ الشَّيْخُ "مَزِيدٌ" مُوَاجِهًا لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ إِقَامَةَ صَلَاةِ  
العِشَاءِ، بَيْنَمَا يَسْتَمْعُونَ لِكَلَامِهِ: وَسَأَلَ حَبِيبِي الْمُصْطَفَى صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامَهُ  
عَلَيْهِ الصَّحَابَةَ الْكِرَامَ: إِنْ مِنْ الشَّجَرِ شَجْرَةٌ لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّمَا مِثْلُ  
المُسْلِمِ، فَمَا هِيَ؟

وَقَلَّبَ الشَّيْخُ "مَزِيدٌ" نَظْرَاتِهِ فِي الْوُجُوهِ الَّتِي تَبْدُو وَكَأَنَّهَا عَلَى شِفَا التَّوْمِ،  
وَقَالَ: هَلْ يَعْرِفُ أَحَدُكُمْ هَذِهِ الشَّجْرَةَ؟

بَدَأَ الْمُصَلُّونَ فِي فَتْحِ أَعْيُنِهِمْ، فَقَالَ الشَّيْخُ "مَزِيدٌ": شَجْرَةٌ لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا،  
وَهِيَ مِثْلُ الْمُسْلِمِ، أَلَا يَعْرِفُهَا أَحَدُكُمْ؟!

قَالَ "فُتْنَةَ": كُلُّ الشَّجَرِ الَّذِي نَعْرِفُهُ، تَسْقُطُ أَوْرَاقُهُ!

ابْتَسَمَ الشَّيْخُ "مَزِيدٌ": صَحَابَةُ الرَّسُولِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ، عِنْدَمَا  
سَأَلَهُمْ هَذَا السُّؤَالَ، كَانَتْ إِجَابَتُهُمْ تَشْبَهُ إِجَابَتِكَ يَا عَمَّ "فُتْنَةَ"، أَخَذُوا  
يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَجَرِ الصَّحْرَاءِ، مَا عَدَا الشَّجْرَةَ الْمُقْصُودَةَ، وَلَمَّا رَأَى حَبِيبُنَا  
المُصْطَفَى حَيْرَتَهُمْ قَالَ اسْمَهَا.

كَرَبَتْ حَنْجَرَةٌ "غَنِيمَةٌ": وَنَحْنُ احْتَرْنَا فَقُلْنَا لَنَا اسْمَهَا وَأَرْحُنَا!

فَقَالَ "مَزِيدٌ": النَّخْلَةُ.

علت همهمات المُصلِّين وهم ينظرون لبعضهم باندھاش، وزعق "فُتْحَة": لكن النَّخْلة يا شيخ "مزید" لیست شجرة!

وضحك "مزید" ضحكة طويلة، قبل أن يقول: وما هی النَّخْلة إن لم تكن شجرة؟!

قال "غنیمة": النَّخْلة نخلة یا شيخ "مزید".

وقال "حجیزی": والنَّخْلة كُلُّها خیر، لكن المسلم ابن كلب، أغلبه شر، فكيف تكون النَّخْلة مثل المسلم؟!

وضحك المُصلُّون بتهققات عالیة.

ولم یسكت "حجیزی"، وإِذَا قال مخاطبا "مزید": أنت تألِّف كلاما مثل أیك الشَّيخ "علوان" الله یرحمه.

\*\*\*\*\*

كان "حجیزی" فوق، فی قلب إحدى نخيله الكثيرة، عمر "حجیزی" ثمانین عاما، ویحوط عراجین النَّخْلة المثقَّلة بالبلح بأکسِیة معمولة من نبات الحلفاء المضفَّر بسعف نبات الخشخاش، حتی یحتفظ العرجون ببلحه كاملا، وحتى لا تنقر العصافیر البلح فتفسده.

أمشیر، شهر ضم البلح علی عراجینه فی "الوعرة"، شهر الفرح والمشاركة والتعاون، شهر المحبَّة المتأخَّجة بین إنسان الصَّحراء ونخيلها، التَّخيل عراجینها معطاءة الآن، بلح أخضر رامخ، طعمه نصف محلی، لكنه شهی، وتشعر النَّخْلة بالإنسان وهو یتسلَّقها وقد أحاط خصره بالبطان، هذا الحبل الغلیظ

المضفور من ليف النَّخيل، ليشد الإنسان إلى النَّخلة فلا يسقط من عل، يطلب نتاجها في مقابل أن يعطيها ألقا.

سيبقى الإنسان في الصَّحراء عاشقا للنَّخيل، يهش عنها الغم وهي نبتة، ثم يبقى يرهاها وهي تعلقو، ولا تعلقو النَّخلة ببساطة، وإنما بعمر ابن آدم، فالنَّخلة قد يدفن نواتها في الأرض طفل ما، لكنها لن تطعمه أول بلحها قبل أن يكون شابا يافعا، فهو الذي سيأخذ من طلع ذكورها اللِّقاح الذي سيضعه في طلع إنائها، لتبدأ النَّخلة في الحمل، ثم العطاء.

ونخيل الصَّحراء ليست كأي نخيل في أي مكان من العالم، نخيل الصَّحراء تفهم لغة الإنسان، وتعرف معاملاته، طالما أعطاهها اهتماما، فأزال من عليها زوائد جذعها من ليف وكرانيف، وخفَّف قلبها من الجريد الزائد، وغدَّى جذرها بالأسمدة البلدية، فلا بد وأن تُزد هداياه، بلحا لا ألد ولا أطيّب.

كان ”حجيزي“ في قلب النخلة، وناس آخر كثيرون في قلوب نخيلهم، يغطُّون العرايين ويتصاحبون وكانوا يضحكون وهم يصرخون لبعضهم: على مملك يا ولد أنت وهو، لا تغضبوا عمَّتكم النَّخلة. وتنطلق القهقهات.

كانوا قد سمعوا الشيخ ”مزيد“ لما قال: حبيبنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه قال: أكرموا عمَّتكم النَّخلة.

وغمغم ”حجيزي“: النَّخلة عمَّتنا، يبقى ذكر النَّخل عمَّنَا.

ورفع صوته: يا ”مزيد“ نكرم عمَّتنا ولا نكرم عمَّنَا؟!

وبدا الشَّيخ ”مزيد“ غير فاهم: ماذا تقول يا عم ”حجيزي“؟

- نكرم النَّخلة الأثى ولا نكرم النَّخلة الذكر؟!

قال "مزيد" هاتفا: أكرموا النَّخْل كله، إنما خَصَّ حبيبنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه النَّخلة الأثى بالذِّكر لأنها الأكثر في الأرض، لكنه، فداؤه نفسى وأبى وأمى، كان يقصد النَّخْل كله.

زعم "حجيزى": "والله يا مزيد" أنا أشعر أنك تأتى بهذا الكلام من رأسك. قام "سعدون" ليقم الصَّلَاة، وكان الشَّيخ "مزيد" يقول غاضبا: أنا آتى بالكلام من رأسى؟! تعنى أنا اتقوّل على رسول الله؟! تريدنى أتبوء مقعدى من النَّار؟!

وقف "سعدون" ورفع صوته مهتدجا: الله أكبر الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، حى على الصَّلَاة، حى على الفلاح، قد قامت الصَّلَاة قد قامت الصَّلَاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

كانت الشَّمس فى ضحاها، و"حجيزى" فى قلب النَّخلة العالية، والنَّاس فرحين بزماط النَّخيل، كأنهم فى العيد، عندما كانت نقطة فى أفق الصَّحراء تبدو وهى تتحرَّك مثيرة لغبار الرِّمال، كانت النَّقطة تتحرَّك بسرعة كبيرة، فبدت، فى خلال دقائق، إنسيًّا يجرى بكل سرعته، ثم وصل صوته الصَّارخ: يا خلق الحقوا أبا "غنيمة"، الحقوا أبا "غنيمة".

كان أحد الأولاد الرُّعاة.

\*\*\*\*\*

- "شقمق" بيك يا "حجيزى" كان صديقا حميا للسلطان "طامانباى"،  
"طامانباى" هذا كان آخر سلاطين الممالك، لكن الكلب التُّركى شنقه،  
وعلقه فى باب "زويلى".

- وال "طمنبى" هذا، ترك التُّركى يشنقه، ويعلقه فى الأبواب؟!

- لا يا "حجيزى"، السلطان "طامانباى" ما سلم نفسه هكذا، وإنما قاتلهم،  
وسقى جيوش العثمانيين الدردى، وأطعمهم المرار والقرض، وكان "شقمق"  
بيك معه.

- وكيف يا "غنيمه" قبضوا على السلطان، وما قدروا يقبضوا على  
"شقمق"؟!

- الخيانة يا "حجيزى"، البدو تجرى الخيانة فى دمائهم.

- البدو؟! البدو عرب يا "غنيمه"! هم مشايخ عرب!

- وهل العرب ملائكة؟! لا، فيهم الأنجاس أولاد الكلاب الخونة، وأغلبهم من  
البدو، أنت قلت بنفسك إنهم كانوا يسلبون بيوت أهلنا وناسنا فى الواحات  
البحرية أكثر من الإنجليز أنفسهم، تذكر رحلتك القديمة إياها للعلمين مع  
"شديد" أبوك؟!

لقد دكَّ الإنجليز الواحة بمدفع ضخم، أول مرة يرى مقاتلو الواحة مثل هذا  
المدفع، كان يطلق كرة من النَّار لا تنفجر إلا وسط البيوت، فينسفها بمن فيها،  
ولم يكن أمام المقاتلين إلا الاستسلام بالفرار، فهذه الكتلة الصَّماء التى تقذف  
الحميم، ستقتضى على نساءهم وعيالهم لو استمروا فى الحرب، فر مقاتلو الواحة

إلى الصَّحراء البعيدة، وكالعفاريت ظهر البدو على أفراس لها عيون مثل عيون الجان، فهجموا على البيوت الملقاة بجروحها، ونهبوها.

قال ”غنيمة“: وهل برابرة التُّوبة إلا بدوا؟! بمن كان يستعين الإنجليز في إخضاع الواحات؟! كانوا يستعينون بالبرابرة التُّوبيين سود الوجوه الملاعين.

وقال: نحمد الله أن ”الوعرة“ صغيرة، لم يشعر بوجودها أحد.

قال ”حجيزي“: أنا لا أريد الطَّريق من أجل هذا، الطَّريق تأتي بالغرباء دائما، والغرباء سيأتون لنا بالمشاكل. والشَّيخ ”مزيد“ يصدِّع رؤوسنا كل صلاة جمعة، الطَّريق الطَّريق، ”مزيد“ صغير، ما عنده خبرة بالمصائب التي ستجلبها الطَّريق.

ماكنت وُلدت أنت يا ”غنيمة“ لما جاء خواجه انجليزي ليشتري الفارس الذي حنَّطه ”شديد“، جاء ”الوعرة“ ومعه امرأة انجليزية مثله، كانت عارية تقريبا، شعرها مكشوف، وذراعاها، وصدرها، وساقها، كانت حكاية الواحات، لو عملنا الطَّريق ستأتى لنا مثل هذه النوعيَّات التي ما عندها دين ولا أخلاق، الخوجاية كانت تقبِّل الخوجاة أمام عيون ناس ”الوعرة“ كلِّهم، كان منظر الفارس المحنَّط فوق فرسه المحنَّطة قد أخذ ألباب النَّاس، وما أخرجهم من دهشتهم غير قُبلة المرأة للرجل أمامهم.

كركبت حنجرة ”غنيمة“: المهم، قبض التُّرك على السُّلطان ”طامانباي“ وهو في أمان واحد من مشايخ العرب في أرياف بحري.

وخرجت ضحكة ساخرة من أنف "غنيمة": شيخ العرب ابن المرأة القحبة أعطاه الأمان، ثم هو نفسه وشى به عند التُّرك، فجاءوا وقبضوا عليه.

- لماذا وشى شيخ العرب بالسُّلطان؟!

- لتكون له حظوة عند الأسياد الجدد، ويبقى في بلاده شيخ عرب.

- ولماذا يريد أن يبقى شيخ عرب؟

- الحكم يا "حجيزى" له شهوة، ثم مشايخ العرب ينهبون أموال النَّاس، يفرضون عليهم ضرائب ومكوس، ويأكلونها.

سكت "حجيزى" لحظة، نظر فيها للقمر المكتمل، ثم قال: ما من واحد توَلَّى أمر النَّاس إلا وطلب أموالهم، حتى.. حتى.. حتى الأنبياء.

فتح "غنيمة" عينيه على اتساعها، فبرق ضياء القمر فيها.

لكن "حجيزى" قال: هؤلاء يقولون ضرائب، وهؤلاء يقولون زكاة.

"غنيمة" همس: استغفر الله العظيم!!

- و"شقمق"؟

- كانت هجمة الأتراك سريعة، و"شقمق" يبات في حجرة غير حجرة السُّلطان، فلَمَّا رآهم يهجمون على باب غرفته، قفز من الطَّاقة، وركب فرسه وهَجَّ في ظلام الليل، كان القمر بدرًا يا "حجيزى"، والتَّخيل في زروع الفلَّاحين ليلا لها محابة، وكان البدر نوره ينعكس على مياه البحر الكبير، النيل يا "حجيزى" ..

كان "حجيزى" ينظر لـ "غنيمة" الذى كان يتحدث وقد سرحت عيناه ناحية الصُّخور عجبية الأشكال، والتي بدت فى ضوء القمر مثل برابرة ضخام يُرضخون "الوعرة".

زعم "حجيزى": ما تريد تشفى من الداء الذى فىك يا كذّاب يا ابن الكلب، تقول كلمة صحيحة وتضيف إليها مائة مكدوبة، أنت رأيت الشقمق صاحبك يهرب فى الليل؟! والبدر والتّخيل فى زروع الفلّاحين؟! يا هيئات، صرت مثل "مزيد"!





وأنَّه إلى إحدى الشُّجيرات، ونزع منها بعض أغصانها التي جفَّت، ووضعها أمام فتحة الجحر، وأشعل فيها النَّار.

قال "سليم": ستخرج الآن كل الوريثات هرباً من الموت اختناقاً بالدخان. تأججت النَّار في كومة الأغصان اليابسة، وبقليل من الرِّمال أطفأها "سليم" ليتصاعد الدخان الكثيف، لكن الدخان لم يكن يدخل الجحر، كانت الريح تحمله للإتجاه المعاكس، فضحك "سلمان"، وضحكت الصُّخور الشَّاهقة.

حاول "سليم" أن يدخل الدخان جحر الضَّب بطرف جلبابه، لكن الدخان لم يدخل الجحر أبداً، ولم يخرج أى ضب، وصاح "سليم" وهو يجرى ناحية شيء ضئيل يخطو ببطء على الرِّمال: حرباء، حرباء.

وردَّت الصُّخور صوت "سليم" الذي غلظ من المراهقة: حرباءااا، باااااا.

والحرباء دائماً أبطأ من أن تهرب، لذلك تتلوَّن. وكانت صفراء مثل الرِّمال، لكن العيون التي اعتادت الصَّحراء، يمكنها ببساطة رؤية حرباء صفراء تمشي على رمال صفراء، وفي لحظة كانت الحرباء مستكينة تماماً بين إبهام وسبَّابة يد "سليم".

ليس للحرباء وجه، فعيناها على جانبي رأسها، لذلك ليست هناك ملامح يمكن أن تتشكَّل نتيجة الفزع أو السَّكينة، فرأس الحرباء هو هو في كل الحالات، كتلة مُضلَّعة على جانبيها عينان تدوران في محجريهما مثل ساقية، لكن المؤكَّد أن الحرباء كائن غبي!

- إنها صفراء، لكن غطيها يا "سلمان" بجلبابك، ستتلوَّن بلون الظلِّ.

قال "سلمان": النَّاس كلُّهم يعرفون أن الحرباء تتلوَّن.



قال "حجيزى" لـ "سعدون": "كم مرّة صلّينا لله فى المسجد لكى يفيض التّعب، أو حتى لا يستمر فى التّقصان؟ صلّينا كثيرا ولم يستجب لنا، واستجاب لـ "يوحنا" التّصرافى!

قال "سعدون": "فتنة يا "حجيزى"، الشّيخ "مزيد" قال هذه فتنة، يريد الله أن يختبر قلوب المسلمين، هل ترى ببصيرتها، أم أنها ستندفع بما تراه العيون؟

كانا يجلسان فى ظلّ نخلة، وكانت زروع البرسيم تغطّى الأرض، وبعيدا تلوح الصّخور الضّخمة، وعلى حواف الحقول وقفت أبقار وجواميس تأكل من حشيش الحواف، وربضت جبال تجتر وقد رفعت رءوسها تنظر حولها بعيون غارقة فى السواد.

وفجأة رتل "حجيزى" القرآن: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ" ..

وأخذ "سعدون" يهز رأسه طربا، لأن صوت "حجيزى" كان يمس فوق حقول البرسيم وهو يحمل دفء الصّحراء المشمسة، فبدا القرآن ساحرا، وسكت "حجيزى"، لكن "سعدون" صاح وهو مازال يهز رأسه: الله الله الله.

فتغنّى "حجيزى": "وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغشَاهَا، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا، وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ...".

توقّف ”حجيزى“ عن الترتيل، ولم يتوقّف ”سعدون“ عن التمايل بجذعه كله وهو يقول: الله الله الله الله.

فنظر ”حجيزى“ إليه وقطّب جبينه، وقال: يا ابن الكلب تهز جسمك وتقول الله الله، وأنت لا تفهم شيئاً! هذه هى مخلوقات الله التى يريدنا أن ننظر إليها بعيوننا، ما تُوجد بصيرة القلب إلا بعد وجود بصر العين.

كان الماء يجرى فى الجدول الصّيق، وأشعة الشمس تتكسّر على أمواجه الصّغيرة، وأصوات النّاس فى الحقول تصنع ونسا مهبجا.  
- يا ”سعدون“.

- ماذا تريد يا ”حجيزى“!؟

- ”يوتّاس“ الرّاهب قال لى كلاما عجيبا، أعجب من أى كلام قاله لى رهبان آخرون.

قال ”سعدون“: الرّهبان! أنا لا أحب أن أسمع سيرتهم، أو أرى أشكالهم، أحس أنهم ليسوا بشرا مثلنا، ليسوا أحياء مثلنا، لذلك يفصلون العيش فى قبر واسع اسمه الصّحارى، ويستأنسون فيه بالحيات والضباع والذّئاب.

فوجئ ”سعدون“ بـ ”حجيزى“ يهبط واقفا، وهو يزقق مثل مجنون: يا ”سعدون“ قلت ما لا يمكن أن يقوله حمار مثلك! كيف فهمت ذلك؟! أحيانا أرى فى جمجمتك مخ يا ”سعدون“.

جلس ”حجيزى“، و”سعدون“ على شفّيته بسمة صغيرة، وفى عينيه استغراب.

قال "حجيزي": قلت لـ "يوناّس" الرّاهب: لماذا تنقطعون في الصّحراء؟  
فقال لي، نبعث عن أذى النّاس.

قال "حجيزي": كان قد مرّ بـ "الوعرة" راهب آخر اسمه "يوحنا" وسألته عن  
سبب انقطاعه في الصّحراء، فقال لي: نبعث عن مشاكلنا.

- قلت لـ "يوناّس"، في دينكم ينزل الله للنّاس، وأتمّ تبتعدون عن النّاس؟!  
فقال، هو خلقهم، وهو مسؤول عن إصلاحهم، كان لابد أن ينزل لإصلاح  
صنعتهم.

ابتسم "حجيزي" وهو يقول: قال الله مسؤول!؟

وابتسم وهو يقول: من هذا الذي يمكنه أن يسأل الله!؟

وقال: ما يصير الله لو أنه خضع للسؤال.

قال "سعدون" متأقفا: أستغفر الله العظيم، قلت لك لا أطيقهم، حتى  
كلامهم لا أطيقه، إبليس نفسه ما قال كلامهم!

قال "حجيزي" وهو يرنو إلى بعيد، إلى الأفق، حيث السّماء ترتطم بالصّحراء:  
لكن الرّاهب "يوناّس" قال لي كلاما عجيبا آخر، قال إن ربّهم عندما صلبوه  
ومات، دفنوه.....

لم يكمل "حجيزي" كلامه، لأن "سعدون" خرجت من فمه قهقهات  
مسرّعة، وأخذ يقلّد حركات "غنّيمة" لما يغرق في الضّحك، ثم استلقى على  
قفاه، كان يحاول الكلام وهو يقهقه، يقول: دفنوا الله!؟

ودموعه سالت، ولحمه يرتج، ويقول: يا أولاد الكلب!

و"حجيزي" ذكّه بقدمه في جنبه، وقال: اسمع باقي الكلام.

اعتدل "سعدون" وهو يمسح زوايا عينيه من الدموع بطرف صديريه، وكان يغالب بقايا ضحك، وقال "حجيزى": لكنّه قام بعد ثلاثة أيام، وترك القبر، وطار إلى السّماء.

نظر "سعدون" فى عينى "حجيزى"، وعاصفة هوجاء من ضحك محموم تتجمّع فى صدر "سعدون"، قال: يقصدون من؟! -

الله.

وانطلقت العاصفة، والنّاس فى الحقول أخذت تنظر ناحية هذه القهقهات التى تشبه صوت ارتطام القنّوس. و"سعدون" لم يكن مستلقيا على قفاه فقط، كان يتمرّع تحت جذع التّخلة مثل حمار.

\*\*\*\*\*

نزل النّاس من قلوب التّخيل، وقلوبهم تقرع مثل الطّبول، وزعق "حجيزى" فى وجه الفتى الذى كان يلهث مثل كلب: ما له "غنّيمة"؟

قال الفتى: هناك فى الصّحارى البعيدة، ملقى على الرّمال، يكاد النّفس ينقطع منه.

هتف "حجيزى": شرب ماء؟

هزّ الفتى رأسه بالإيجاب. ومشى "حجيزى" مسرعا نحو بيته، وجرت النّاس نحو بيوتها، وما مر قليل وقت، حتى امتدّ فى الصّحراء خط غامق من عشرات الجمال والبغال والحمير، تركبها النّاس، تسوقها نحو صحارى الجنوب البعيدة.

كان "غنيمة" قد ركب ناقته بعد أن صَلَّى الفجر، ثم وقف أمام باب المسجد ونادى على "حجيزي" الجالس بالداخل، جاءه صوت "حجيزي": يا بهيمة من غير عقل، باب المسجد مفتوح، أدخل.

كان صوت "غنيمة" حزينا، قال بنبرة أوصلت غمَّ صاحبها إلى "حجيزي": أنا راكب الناقة، أخرج أنت.

وخرج "حجيزي"، واندعش.

قال "غنيمة": إلى "الخارجة"، مشوار ساقضي فيه مصلحة.

نظر "حجيزي" في وجه "غنيمة"، كان منقبضا، قال "حجيزي": آية مصلحة هذه يا "غنيمة" التي ظهرت فجأة؟ وفي "الخارجة" البعيدة؟!

قال "غنيمة" وهو ينخس جنبي ناقته بكعبي قدميه: عندما أعود سأخبرك بكل شيء.

ومضت الناقة، و"غنيمة" على سمنها يرتج، وكلب "غنيمة" أخذ يهرول وراءها.

وراء هذه العشرات من الصُخور الصَّخمة غريبة الأشكال مسافة شاسعة من رمال سفيضة ناعمة، لا يبدو في الأفق نهاية لها، لكن بعد مشى ساعة، بدت رعوس بعيدة لصخور أخرى شاهقة، وكانت كثيرة، بحيث بدت أنها قد تسد الأفق كله، قال "حجيزي" للفتى: يخرب بيت من خلفك، ما الذي جعلكم تذهبون بأغنماكم إلى هناك؟! هدى صحارى مقطوعة يا بقر.

قال الفتى: أردنا مراعى جديدة، الغنم جائعة.



هذه صخور أشد هولاً، ضخمة جداً، ومتقاربة جداً، وأشكالها مثل رءوس نور مهشّمة، وصدور أسود ممزّقة، كانت هناك صخرة تشبه حمامة مقطوعة الرأس تقف على ساق واحدة، صخرة مربعة تبدو وكأنها ستسقط في أى لحظة، وهى الصخرة التى كان "غنيمة" قد جلس مستندا بظهره إلى ناحية من قاعدتها، كان وحيدا، لم يكن أحد من الرعاة يجلس بجواره، وإنما كانوا يقفون بقاماتهم القصيرة ووجوههم الطفولية بعيدا، يقبلون أنظارهم بينه وبين شئ ملقى على مبعده.

كان "غنيمة" مثل شبح، هزل جسده، ووجهه اختفى خلف تكسّسات من رمل ناعم التصق ببشرته، وملابسه تمزّقت، وعلى مبعده منه كانت رأس النّاقة ملقاة على الرّمال، موصولة بسلسلة عظام عمودها الفقرى، وبقية من لحم متهرئ غطّى بقيّة عظامها، كان هذا ما تبقى من ناقة "غنيمة"، بينما آثار أقدام ذئاب وضباع نقشت الرّمال حولها.

نظر "غنيمة" إلى النّاس التى التفت حوله، وقلّب وجهه فيهم حتى رست نظراته على "حجيزى"، كان "حجيزى" قد وقف مبهوتا، و"غنيمة" نظر إلى "حجيزى" وبكى.

\*\*\*\*\*

توقّف "غنيمة" عن الصّحك، واعتدل من استلقائه، وأكل لقمة من الخبز كان قد غمسها فى المرق، ومد يده وأمسك بقطعة لحم، وقال وهو يرفعها إلى فمه: أهل الحظّ لو حكّوا لك عن حظّهم، تقول عنهم أصحاب كرامات.

قال: الخواجة الإنجليزي وهو قاعد فى مكانه يسقط العصفور فى يده!!

وقال: لكن أهل الحظّ يستحقون، لأنهم ناس يفهمون، يعرفون كيف يتصرّفون مع الأرزاق التي تسقط في أيديهم.

نظر إلى وجه "حجيزى" الذى تتلوى تغاضينه فى اهتزاز لهب اللبنة الجاز، وقال يسأله: تظن يا "حجيزى" لو وقع عصفور فى يد واحد منّا، ماذا سيفعل به؟

هتف "بكير" وهو يزدرد قطعة من اللحم: يفصل رأسه من جسده، ويعطيه لامرأته تشويهه، ثم يأكله بقضمة واحدة، لحم العصافير لذيذ يا عم "غنيمة".  
قال "حجيزى": أنا سأطيره مرّة أخرى فى الهواء.

قال "غنيمة" وهو يلوك قطعة اللحم: ولو صار عاجزا عن الطيران؟!

قال "حجيزى": يبقى حظّ المسكين أن يكون صيد القلط.

قال "غنيمة": انظروا إذن ماذا يفعل أصحاب الحظوظ.

أخذ الخواجه يتأمّل فى عيني العصفور، وشهق الخواجه، وقال: عصفور مسكين، عصفور جرح رأسه، هل كسر جناحك يا عصفورى؟

وزعق الخواجه ينادى المصرى: يا ولد، هات الأدوية من الأجزخانة.

أخذ الخواجه يطبّب العصفور، والعصفور يصأصع، وبعد أن انتهى قال للمصرى عامل العربية: انتبه يا ولد لهذا العصفور، إنه الآن ضعيف، لا تتركه يطير خارج القطار، سيقع فريسة سهلة لآكلات الطيور، أنا سأرى ماذا ستفعل!

أتى المصرى بصندوق كارتونى صغير من تلك التى يحفظ الإنجليز فيها الطعام، كان فارغا، فصنع فيه بضعة ثقوب، ووضع العصفور بداخله، ثم أغلق عليه غطاء الصندوق، وركنه بجواره فى العربة التى يعدون فيها أطعمة الإنجليز ومشاريهم.

نادى الخواجه على المصرى، كان القطار يزحف فى صحراء استوت أرضها بلا نهاية، يغيب ويطلق صافرتة، وقال الخواجه: هات لى عصير ليمون.  
وقال: ماذا عملت مع العصفور؟

جاء العامل يحمل صينية عليها كوب العصير، ويده الأخرى يقبض على الصندوق الصغير المغلق، فصرخ الخواجه ملتاعا: يموت العصفور هكذا يا ولد يا غبى.

لكن المصرى قال: أنا صنعت ثقوبا فى الصندوق ليتنفس!  
قال الخواجه، وكان القطار يصقّر: العصافير الحرة لا تموت فقط بسبب نقص الهواء، تموت أيضا لما تفقد حرمتها، وتشعر أنها حبيسة.  
صرخ الخواجه: هات الصندوق.

نزع الغطاء، ووضع الصندوق مفتوحا أسفل النافذة المغلق زجاجها، وقال: العصفور يبقى هنا، انتبه له، وأنا غير موجود أطعمه وأسقه.

قال المصرى بصوت حائر: قد يطير بعدما يشفى!  
- لن يعود القطار إلى "الخارجة" إلا بعد مرور أسبوع، يجب أن يعود العصفور إلى وطنه يا ولد، العصافير تحب أوطانها يا ولد. سيقتى العصفور فى ضيافة مصلحة السكك الحديدية لمدة أسبوع.

وأخذ ابن الكلب يقهقه، وأنا أنظر إليه ما أدري ماذا أقول!  
قال "حجيزي" مندهشا: وأين كنت أنت حتى تنظر إليه؟!  
شهق "غنيمة": أنا؟! مالي أنا؟!

وسارع بوضع قطعة كبيرة من اللحم في فمه.

\*\*\*\*\*

"زليخة" كانت خفيفة الرُّوح، وخفيفة اللسان، وجميلة، فأحبَّها "سعدون"  
جدا، وهي أحبَّته، وأحبَّت أن تلد أيضا، ومَرَّت خمس سنوات ولم تلد،  
فقال: يا "سعدون" نفسي في عَيْل.

فقال "سعدون": اصبري يا "زليخة" مثلما صبرت "سريرة"، عشر سنين  
وكان عندها "بكير".

"زليخة" قالت: ما عندي صبر "سريرة"، يا "سعدون" أنا لِمَا تلد الماعز أغير  
وأبكي، حرام عليك يا "سعدون".

ونهنَّت، وبكت، ورمت رأسها في صدره الوفير، فقَبَّل "سعدون" شعرها  
الفاحم، وقال: حرام عليك يا "سعدون"؟! ماذا فعل "سعدون"؟!  
دفنت وجهها في أعلى كرشه، وقالت: لا تريدنا نذهب لطيب.

هتف "سعدون" بصون مستكين: تريدنا نبقي مضحكة "الوعرة"؟ نسافر  
على الحِمال أيام، ونركب الحديد، ونذهب لأسيوط، ثم في النِّهاية لا تلدِين.

رفعت "زليخة" وجهها، ونظرت في عيني "سعدون" مثل قِطَّة تتأهب  
للخمش: ومن قال لك أني لن ألد؟!!

خَفَضَ "سعدون" من نبرة الغضب في صوته، كان يصعب عليه جدا أن يغضبها: "بهيجة" قالت لك إنك....

رمت "زليخة" رأسها على صدره مرّة أخرى وهي تنتحب: ستقول لى "بهيجة"، وستقول لى إننا ذهبنا للشيخ "صدوق"، يا "سعدون" هؤلاء ليسوا أطباء، أما سمعت صاحبك "غنيمة"؟!

شوح "سعدون" بذراعه في الهواء، وقال بغیظ: الله يقطع "غنيمة" هذا. وأكل: عقله عقل مجانين، يترك بلده ويذهب يعمل في بلاد الناس، ثم لا يسكت، وإنما يأتي ويثرثر بالحكايات التي تقلب دماغ الحريم!

ضحك "سعدون" وقال: والله يا "حجيزى" صممت ألا نساfer، لكنّها قالت لى: أنت لا تريد أن تسافر لأنك خائف أن تنكشف، خائف يكشفك طبيب "أسيوط".

نظرت إليها مندهشا، ما كنت قد فهمت كلامها، قالت: يمكن تكون أنت الذى لا ينجب عيالاً!

تغير وجه "سعدون": تعرف يا "حجيزى"، كأنّها دكّت قلبى بصخرة من هذه الصّخور.

وأشار إلى الصّخور الشّاهقة التي تطل أعاليها من وراء البيوت.

كانا يجلسان على حافة جدول، وقد وضعا أرجلها في الماء الذى يجرى هامسا رقراقا، وكان الناس قد تعلقوا في قلوب التّخيل يقطعون العرايين التي تم

طياب بلحها، وكانت العراجين تطير بثقلها في الهواء فتحدث وشيشا مثل هبة ریح ضالّة، ثم يعلو صوت ارتطامها بالأرض على الفُرش التي يبسطونها حول النخلة.

قال "سعدون": فقلت لها والله لن تمر علينا ليلة الغد إلا ونحن مسافرين.

قال "حجيزى": أشعر يا "سعدون" أن هذا العرجون سيسقط على "بكير".

وأشار "حجيزى" إلى قلب نخلة يتهاى صاحبها لقطع عرجونها بالمنجل، وكان "بكير" كأي طفل في السادسة من عمره، يسعى أحيانا بين التخيل من غير احتراز، وهو الآن يتجه إلى فرشة قد تناثر عليها بعض بلح، ووقف "حجيزى" وهو يصرخ: "بكير"، يا ولد، يا "بكير".

وهوى العرجون الثقيل ببلحه المكتمل طيابه بسرعة مثل ضوء بارق.

\*\*\*\*\*

طار غراب في أشعة شمس العصارى، واتّجه إلى قلب نخلة من التخلتين اللتين تسمقان فوق التبع، ووقف على جريدة تتألق بسعفها مثل شعر عذراء خضراء، ونعق، لكن نعيقه ذاب في صراخ اللّسوة الذي انطلق فجأة، كان "صالح" ولد "سعدانى" قد سقط في التبع، وضربت اللّساء صدورهن، و"منيرة" انكفأت على ركبتيها تنظر في ظلام باطن الأرض، وصرخت: يا "صالح".

"صالح" لم يرد، فقامت، ورغم أنها رأت ولدها وهو يسقط في البئر، إلا أنها أخذت تنظر حولها تبحث عنه بين زحام اللّساء، وذهبت إلى ملتقى التخلتين، وأخذت تنادى: يا "صالح".

”صالح“ لا يرد، فنظرت إلى الصَّحراء المنبسطة إلى مد البصر: يا  
”صالح“.

”صالح“ لا يرد، فعادت تجرى إلى فتحة التَّبَع: يا ”صالح“، يا  
”صالح“.

الغراب الذي في قلب النَّخلة أخذ ينثق.

في العزاء، جلس ”سعداني“ على إحدى الدِّكِّ، وجلس بجواره ”حجيزي“،  
ضوء البدر ساطع، وغادر كثير من المعزِّين المجلس، وقال ”حجيزي“: رَوِّح يا  
”سعداني“.

”سعداني“ طأطأ برأسه، وفرك يديه ببعضهما: قلبى كان مقبوضا منذ الصَّبَّاح،  
أنا صحيت اليوم وقلبي مقبوض، خمسون غرابا نعقوا اليوم فوق رأسى،  
آخرهم هذا الغراب الذى كان ينثق فى قلب النَّخلة التى بجوار البئر.

نظر ”حجيزي“ فى عينى ”سعداني“، كان البدر يغيب ويطل منها، وكان  
البدر يسبح فى دموع.

قال ”سعداني“: سمعت نعيقه وسط صراخ اللِّساء، وكانت ”منيرة“ تنادى  
على...

وانقطع كلام ”سعداني“، لكنه أخذ يعوى بكلام غير مفهوم.

الشمس متوهجة، وضوء العصارى مبهجا، وخضرة الحقول التي تحدها صفرة الرمال، وهامات التخيل تتقلب في زرقة السماء، وبيوت "الوعرة" تبدو كالحلّة من هذه الناحية، أى شىء يعطى ظهره للشمس يهت لونه فيصير كالخا، وكانت البيوت تعطى ظهرها لضياء الشمس، وجاء صوت صراخ النساء يتموج في طبقات الهواء، وكان نعيق الغراب يسرح بين صراخهن، أصوات بعيدة قادمة من ناحية البئر، فنصب "سعدانى" قامته المحنيّة على زراعته، وزعق: صالح.

وانساب صوت "منيرة" الملتاع: يا صالح.

فجرى "سعدانى" يدوس على الزرع، وهو يزعق: صالح، صالح. ورأى الناس "سعدانى" يهيج في الحقول، يجرى نحو بئر الزاهب، وهو يزعق باسم ولده، فنصبوا قاماتهم، وداسوا على زروعهم، وجروا وراءه.

عندما ظهر الرجال من قبلى البلد، يجرون ناحية البئر، انسحبت النساء إلى أسفل التخلتين، كن يصرخن، لكن "منيرة" بقيت راکعة على ركبتيها عند فتحة البئر، تنظر إلى عمتها، وتنادى: يا صالح.

وارتمى "سعدانى" على ركبتيه بجوارها، ونظر فى عمّة البئر، ونظر فى عيني "منيرة"، ونظرت "منيرة" فى عينيه، ثم تهاوت فى إغماءة.

- ما يحز فى نفسى يا خال "حجيزى" ميتته الصعبة، الولد انحسر فى البئر، لم يسقط كل جسمه فى الماء، رأسه فقط الذى غرق.

وأجش بالبكاء، والبدر كان يتجه إلى زوال، والبيوت رابضة فى نوره الفضى تتناب.

\*\*\*\*\*



رمى "حجيزى" نفسه فى أحضان "سريرة"، وكان دمه يخبط فى عروقه، وأنفاس "سريرة" تدخل فى صدر "حجيزى" فتحوِّله إلى كتلة لهب، وكانت هى نبع، وكان يريد أن ينطفئ، والنساء خارج الغرفة تعلو أهانيجهن، والحمامة الصغيرة تهز رأسها وتبرجم.

لكن شيئاً حدث أطفأ نيران "حجيزى" مرّة واحدة.

كان "حجيزى" قد قام من أحضان "سريرة"، وجلس بين ساقياها متخذاً وضع الاختراق، ونظر نظرة سريعة لجسد "سريرة" المستسلم، فإذا به يجد نفسه وقد تحوّل إلى لا شىء، لتنز مياه مثلجة من مسام جبينه.

لقد رأى "سريرة" ملقاة على السرير، مسبلة عينيها، وفتحة فمها، ورأسها مستلق إلى الخلف، وشقّ طويل يبدأ من أسفل صدرها وحتى أسفل صرّتها ينز بالدماء، ويد عجفاء تشد أحد جانبي الشق، واليد الأخرى تخترقه إلى داخل الجسد، وتخرج وقد قبضت على أحشائها، وتسحبها للخارج، ويسمع صوتاً واهناً محمّزاً يقول له: لا يفرق كثيراً تخنيط جسد إنسان عن تخنيط الحيوانات والطيور، فقط الخوف هو ما قد يفرق، لكن كل شىء ما عدا ذلك متشابه.

- أنظر.

ورفعت اليدُ قلباً تعلق بأوردته، وقد تدلّت من على جانبيه رثتان متهدّلتان.

- لو لم تكن أمامك هذه الجثة الآدمية، لما استطعت أن تفرّق بين هذا القلب وقلب الصّبع، أو قلب الدّئب.

كان "حجيزى" قد شلّه الفزع، لكن أباه كان يعمل فى جسد "سريرة" بهدوء ومهارة محترف تخنيط.

- الأولى أن نَحِيطَ أجساد أحبائنا، لا أجساد الحيوانات والطيور، أحبائنا هم من يجب أن نضعهم معنا في بيوتنا بعد موتهم، لا أن ندفنهم، ونرميهم للبلى.

كانت يد "شديد" تجوس داخل الجسد، تطمئن على عدم بقاء أى أحشاء باقية فيه، ونظرة إعجاب تلمع في عينيه، همس: جسد الإنسان مبنى يا ولدى للخلود، سبحان الله، انظر إلى صدر الجثة من الخارج، يبدو ضيقًا، لكنّه متسع جدًا من الداخل، ومنضبط.

"حجيزى" كان ينظر إلى الماجور الفخارى الذى تكوّمت فيه أحشاء "سريرة"، وابتسم "شديد" وهو يهمس بصوت يشبه الفحيح: ما تفرق عن أحشاء الخرفان التى نذبحها للأضاحى والأفراح.

- لماذا لم تحيط جثة أمى؟

سحب "شديد" يده من تجويف صدر "سريرة"، ونظر فى عيني "حجيزى" الصغير، وقال: ما استطعت أن أشق صدرها، وقلت "غيابها يؤجج الشوق"، فدفتها.

كان "حجيزى" قد تيبّس تماما، وصوت أغانى النساء خارج الغرفة صار مثل صوت العواصف، و"شديد" يمسك بدلو المياه ويصبّه فى جوف "سريرة"، ورزاز من المياه تناثر على جبهة "حجيزى" فانفض، ورأى "سريرة" تفتح عينيها تنظر له بعينين مندهشتين، فارتد للخلف مرتعبا، وقفز من فوق السرير إلى الأرض، واعتدلت "سريرة" وقد ركبها الخوف.

قال "سعدون": وماذا عملت يا "حجيزى"؟!!

كانت الثّاقة الجرباء تقف بينهما وقد استسلمت لهما وهما يحكّان جلدها بحجرين خشنين.

- أنا كنت كالمجنون، الدّنيا تهدّمت على رأسى، نساء يقفن خارج الغرفة يغنيين، وهن لا يعلمن أن مصيبة تجرى بالداخل، وليس فرحا، وينتظرن المنديل الأبيض مبقّعا بدماء الشّرف، وأنا حتى لا أستطيع أن أنصب طولى، كنت أرى "سريرة" جثّة تتحرك، ما كان ممكنا أن أفعل شيئا، ولا حتى بإصبعى.

توقّف "حجيزى" عن حك جلد الثّاقة، ونظر إلى "سعدون" وابتسم، وقال: ذبحت الحمامة.

\*\*\*\*\*

هوى العرجون الممتلى بالبلح بالضبط بجوار "بكير"، شبرا واحدا وكان سيسقط عليه ليقته، لكن "بكير" مكتوب له أن يكبر ويحيا ويتزوج وينجب، ولأن "حجيزى" ما أنجب غير "بكير" قفز بساقيه المبتلتين، يجرى نحو ولده الذى ملأ الثّراب عينيه، وملأت المفاجأة قلبه بالرّعب.

وأخذ "حجيزى" يضم "بكير" إلى صدره، و"سعدون" ينظر إلى "حجيزى" ويتعجّب.

لم ير "سعدون" صاحبه "حجيزى" حنونا قبل ذلك، دائما مشاعره مكبوتة فى صدره، وحبّه لا يعبر عنه أبدا بكلمات، ولا حتى بحركات مثل الضّم والاحتضان.

- لا بد الولد غال.

قالها "سعدون" لنفسه.

وقال ”حجيزى“، وكان ”بكير“ قد أفلت ليواصل لعبه: الولد غال، والولد البكرى أغلى، والولد الذى يأتى بعد طول غياب أغلاهم، وأغلى الجميع الذى يقع فى براثن الموت، لكنّه يخلص منه. وغالى الغاليين يا ”سعدون“ الذى يقع فى براثن الموت، ولا يخلص منه.

\*\*\*\*\*

صلاة الفجر، لم يصل أهل ”الوعرة“ صلاة فجر أحزن من هذه الصلّاة، فقد كانت محقّة نقل الموتى، مملوءة هذه المرّة بجثتين ملتصقتين، لصقهما الموت حرقا.

كان المسجد قد امتلأ بالمصلّين، على غير عادته فى صلوات الفجر، وكان أناس كثيرون يقفون بالخارج، يلتقون حول ”سعدون“، الذى لم يدخل للصلّاة، وإنما بقى بالخارج يرغى مثل جمل يموت، يئن، ويئن، ثم يصيح: ”يا بثينة، يا جميل“.

ويصيح: يا ”زليخة“.

المحقّة أمام المحراب، خشبها متهاك، ولونها الأخضر حائل، ومغطّاة بملاءة جديدة تناثرت فيها زهور ملوّنة لم تسطع بسبب الإضاءة الخافتة الصّادرة من نور ”الكلوب“ الوحيد، والعصافير بدأت تشقشق، وتكف عن الشّقشقة كلّما صاح ”سعدون“ مناديا على ولده وزوجته.

قال "مزيد": الصَّلَاة على الميِّتِ أربع تكبيرات، بعد التكبيرة الأولى نقرأ الفاتحة، وبعد التكبيرة الثانية نصلِّي على التَّيِّ، مثل الصَّلَاة التي نصلِّيها عليه في التَّشْهَد الأخير من أى صلاة.

النَّاس يقفون مثل تماثيل مَنسُخَة، وسنَّها هباب الحريق الذي بقوا طوال الليل يحاولون إطفاءه، وألجمت مشاهد النَّار، وهي تحطِّم من غير رحمة تدابير الإنسان، ألسنتهم، وعيونهم الزَّاغنة كانت تشي بأن عقولهم أيضا قد اعتقلت.

- بعد التَّكْبِيرَة الثَّالِثَة ندعو للميِّتِ، ادعوا لزوجة عمِّنا "سعدون" بالرحمة والغفران، وأن يدخلها الله الجَنَّة من غير سابقة عذاب، "جميل" طفل صغير، لم يفعل شيئا بعد يغضب الله، ادعوا لأُمِّه، وبعد التَّكْبِيرَة الرَّابِعة ندعو لأموات المسلمين جميعا.

واستدار "مزيد"، كانت المحفَّة قبالتة، وكانت العصافير تصدح، وقال: الله أكبر.

قالها بصوت متحشرج، ولم يقل آيَّة تكبيرة أخرى، فلقد وقف يرتج، وسمع النَّاس نشيجه، وكانوا يسمعون أنين "سعدون"، وكان "مزيد" واقفا أمام المحفَّة، يسمع صوت "جميل" في صلاة عشاء هذه الليلة المقيتة، ويراه وقد جلس بجسده الصَّغير في باطن المحراب، يردِّد بانسجام كلمة "أمَّاه"، كان "جميل" يعجبه صدى صوته في المسجد، ولم يهتم بأن النَّاس يصلُّون، وأن "مزيد" يقرأ القرآن، فأخذ يردِّد منقِّحا صوته الوديع: "أمَّااااه".

فوجئ المُصلُّون بإمامهم يميد، ثم يسقط وهو ينتحب، ويقع على جنبه، ويردِّد بصوت يطلع من أنفه، ومن فمه الذي امتلأ دموعا: لا إله إلا الله، لا إله إلا

الله، الولد يدخل المسجد حيًّا في صلاة العشاء وتُصلى عليه ميتا محروقا في صلاة الفجر!!

كان "سعدون" ينوح، عندما خرجت المحفّة من باب المسجد، تعوم على أكتاف النَّاس، والنَّاس يملأون المتسع أمام المسجد، لكنهم بدءوا يتحرَّكون خلف المحفّة، والصَّمت بليغ، إلا صوت الجلايب تحبّط في التَّسيقان، وصوت الخفاف وهي تدك الأرض بسرعة، مهرولة نحو الجبَّانة البعيدة، التي تبعد عن "الوعرة" أكثر من خمسة كيلو مترات، وصوت أنين "سعدون" الذي خفت، وكان نور الصُّباح قد سطع، والشَّمس تطفو فوق الأفق البعيد، تملأ مئات العيون التي تتَّجه نحو عملية دفن مرهقة.

\*\*\*\*\*

لحظة لن ينساها الولد "سليم" طوال حياته.

يجب "سليم" التَّحت، فيجمع قطع الحجر الجيري، المتخلفة عن عمليات بناء أسوار المزارع والبساتين، وينحتها.

ويستهويه التَّحت كثيرا لما يكون في المراعي البعيدة في قلب الصَّحراء، يترك أخويه "سالم" و"سلمان" يتابعان الغنم، ويجلس في ظلِّ حجر كبير، أو ظلِّ شجرة، يخرج سكينًا ومسامرا، وقطعا من حديد هيَّأها لعملية التَّحت، ويجلس ينحت.

ينحت ما يعن له، ذئابا، كلابا، وجوها لأناس في مخيلته، وينحت أيد بشرية، وأقداما أيضا، وعندما غلظ صوته، وجسمه تمدد وانبسط، نحت ثديا ناهدا.

في مرّة صحا من نومه سعيدا، وأخذ يحاول تذكّر سبب سعادته، كان ثمة حدث جرى في منامه أجرى البهجة في قلبه، وتذكّره، لقد ضم البنت "سكيرة" في منامه، وقبّلها، وكان جسدها طريا، وشفتها حلوتان، حلاوتها بقت طويلا على شفثيه، وحول لسانه.

وفي المرعى، رأى الصّحراء غير الصّحراء، كانت أطف، والأغنام ليست هي الأغنام، كانت أطوع، ولم يكن "سلمان" ولا "سالم" هما "سلمان" و"سالم"، كانا ودودين جدّا، وحجر الجيّر يتشكّل بسهولة مثل ماء، وفي أقل من ساعة، كان قد انتهى من نحت تمثال جديد.

لكن جسمه كان مرتبكا من أثر الضمّة التي كانت في المنام، ويشعر بلحم "سكيرة" الطرى دافئا بين ذراعيه، والقبلة التي مازال لهما يضطرم في شفثيه، ما هذا الذي نحتته؟!

ما هذا الخدر الذي يسرى في...

هواء الصّحراء اليوم خير، يحمل برودة تنشّط الجسد، حتى الشّمس أشعتها ليس لها هذا الوجه الذي يكاد يعمي الأبصار، وإنا نور رباني يجعل الرؤية ممتعة.

تتسحب يد "سليم" إلى المكان الذي بدأ الخدر يلهبه، بين ساقيه، وأمسك بالمنتصب، وكانت لذّة عارمة، لكنّها مخيفة أيضا، شعر أن مزيدا من اللذة يحدث عندما يحرك أصابعه، يدلك بها هذا المنتصب، وكانت متعة أقوى، واشتد الخوف، كان ما يخيف "سليم" هو عدم معرفته بما يحدث، وكيف

سينتهي، لكنّه فجأة نزع يده بسرعة، كان "سلمان" يأتي من عند الأغنام، يجر عصاه على الرّمال، يصنع بها خطًّا يتلوّى مثل حيّة، ويتصاعد منه السّفيف.

- إيش سوّيت اليوم يا "سليم" بالحجر؟

كان "سليم" يعاني من الارتباك، جسمه متأجج بشيء مجهول، ويخشى أن يطل هذا المنتصب من بين طيّات ملابسه، فيراه "سلمان" ويفضحه، فزرق بصوت قلق: ماذا تريد؟ إذهب يا "سلمان" لرعى الغنم مع أخيك، الغنم يمكن تهج في الصّحراء.

لكن "سلمان" رغم صغر سنّه كان يشعر أن أخيه الكبير يحاول إبعاده عن شيء ما، ولصغر سنّه ما كان ممكنا له أبدا أن يتوقّع هذا السّبب، فأمسك بالتمثال الذي نحته "سليم"، وبحلق عينيه، ثم قال وهو يقبّله بين يديه: ما هذا؟

كان التّحت يشبه ثعبانا ليس له رأس، وإنما له ذيلان، لقد نحت "سليم" شكل حركة "الدّفان" تحت سطح الرّمل.

قال "سليم": هذا تمثال الرّيح، أنا نحتُ الرّيح.

ضحك "سلمان" وهو يلقي التمثال على الرّمال السّفيفة، وقال: الرّيح! لا أحد يمكنه أن يرى الرّيح لينحت شكلها.

وقال "سلمان" وهو يجر عصاه خلفه، ماضيا نحو الغنم: تمثال شكله سيئ.

وقال وهو يتنعد: أنا أعرف لماذا تريد إبعادي، معك شيء تريد تأكله وحدك، الثّوت، لا بد هو الثّوت.

وابتعد "سلمان"، وقام "سليم" ومضى إلى النّاحية الأخرى حيث الصّخور العملاقة غريبة الأشكال، والنّار تآكل ما بين ساقيه، واختبأ خلف أوّل



صخرة، وجلس على الرمال النَّاعمة، رمال لم يجلس عليها قبله بشر، وأسند ظهره إلى جزء من الصخرة أملس، ودفع يده تحت ثيابه، حيث صخرة صغيرة ناتئة أسفل سرِّته، وأخذ يحرك أصابعه يتحسَّسها، كان الدَّم يتدفق في كل عروق جسده، وكانت يده تلف أصابعها الخمسة على الصخرة المستطيلة، وتشتد رويدا رويدا، غادرت حالة التَّحسُّس واللمس، إلى حالة الدَّعك، ولذَّة النَّار تضطرم، وتغيم الصَّحراء، وتتبَدَّى "سكيرة" عارية، ويراهها ممدَّدة فوق سرير أبيه "بكير"، رافعة ثيابها عن جسد لا يعرف كيف يعامله، كانا صغيرين، هي في الخامسة من عمرها، وهو في التَّاسعة، وكان يريد أن يعمل معها، مثلما يعمل أبوه "بكير" مع أمِّه "ثرَيَّا"، ولم يعرف.

"سكيرة" تتَّجه إليه طائرة على الرِّمال، عارية، بجسد مناسب مثل طائر البط الذي يطير بعيدا في السَّماء، وعندما يتعب يسقط في الصَّحراء ليموت ميتات عديدة، إعياء، أو عطشا، أو افتراسا، "سكيرة" جميلة، مثل هذه الطُّيور البيضاء، وأجمل وهي عارية، وممدَّدة على الرِّمال الحريية بجواره.

يشتد الدَّلْك، الثَّياب تضايقه، فيُخرج هذا المنتصب، فيراه أمام عينيه مثل ذؤابة لهب منحوتة من الصَّخر الأحمر البرَّاق.

لماذا يشعر الآن أنَّه يجيد لعبة الجسد؟! ينقض على شفقتي "سكيرة" ويأكلهما، والسَّماء فوق صافية، زرقاء، و"سكيرة" تحته مزلزلة، ومملوءة بالعواصف، وهو يفور مثل الماء المغلى في مراجل الفخَّار، وعلى المنتصب مثل ذؤابة اللهب المتحرِّرة أن يعرف طريقه نحو ماء الآبار، وعرف طريقه، ونظرت الصُّخور الصَّخمة الشَّاهقة إلى جسد تضطرم فيه التَّيران، ولا يموت.

تزداد سرعة الدَّلْك، ما هذا؟ أى شيء هذا القادم؟! تتشجَّج الساقان، الرأس يرتفع، الوجه يقابل السَّماء، الأسنان تنغرس في الشَّفَتَيْن، العينان

غمضتا لكنهما تريان الدبيب الذى لا يرى، ريح عاتية تضرب كل خلية في الجسد المتشيج.

اليد صارت مجنونة، ولهب النَّار المتحجّر يزداد تأججا، القادم! القادم! القادم! وتدقق لبن من طرف ذؤابة النَّار، لبن طار في الهواء مثل قذيفة، وصرخ "سليم"، ركه الرُّعب، فقفز يريد الوقوف، لم يَمكِّن، يده تفترس اللهب المتحجّر، لا تريد تركه، يسقط "سليم" على جنبه، فيثور غبار الرَّمَل، ويتدقق نهر اللبن، ويخور "سليم"، ثم تتوقف اليد فجأة، فيخطفها "سليم"، وينظر إلى ما بين فخذه، ما ظنَّ وقتها غير أن عضوه قد جرح، وهاله الدَّم أن يكون أيضا.

لحظة لن ينساها الولد "سليم" طوال حياته.

## في السماء طيور مهاجرة

أعدّ "حجيزي" زاد رحلته الأخيرة إلى "موط"، يعرف أنه حتى لن يصل إلى "موط"، يلزم ما هو أكثر من ثلاثة أيام للوصول إلى هذه البلدة، وهو ليس متبقيا له من أيام الحياة غير ثلاثة أيام، الرؤيا تؤكد ذلك، الرؤيا جاءت مفسّرة بكل وضوح، ثلاث تمرات كان يأكلها، وقال المعبر في داخل الرؤيا: ثلاثة أيام وتموت يا "حجيزي".

لن يصل إذا إلى "موط"، لكنه سيصل إلى شجرة "البرتقال"، وسيفشل كل ما يخطّط له، لو لم يصل إلى هذه الشجرة.

لا يريد أن يُدفن، وفي نفس الوقت، لا يريد أن يُترك على وجه الأرض فتأكله الكلاب، أو تنهشه الوحدة، لا يهرب "حجيزي" من الدفن، سوى لأنه الوحدة الصّرف، وهو يحب الونس، ولن يقبله الأحياء بينهم، لو أنه تعفّن، لو استطاع التخلص من التعفّن، لن ينفر منه الأحياء، وسيترك جسد بينهم، وإذا كان الخلاص من الموت مستحيلا، فالخلاص من الدفن ممكنا، لو أنه أحسن تنفيذ الخطة.

- لو أن ولدي "بكير" كان شجاعا، وتعلّم مني صنعة التّحنيط، كان نفعني، لكن قلبه مثل قلب فأر.

لن يأكل شيئاً أبداً، فقط سيسف مطحون القرض، ولن يشرب ماء إلا بالقدر الذى يسمح بابتلاع هذا المطحون العلقم، فالماء مصلحة لأجساد الأحياء، لكن إذا مات الجسد، صار الماء مفسدة له، وعندما يصل إلى شجرة البرتقال، لا بد من أكل ولو ثمرة واحدة، يريد إذا مات أن يعبق جلده برائحة البرتقال، الأحياء سيحبُّونه أكثر وهو يفوح بعطر البرتقال.

- قل لى يا "سعدون"، ماذا لو أن الميِّت ما أخرج الرِّوَّاح العفنة، وأخرج رائحة البرتقال؟

كان "سعدون" ممّداً عريانا، إلا من لباسه الداخلى الطّويل، الذى يدارى من أسفل سرّته المختبئة بين ترهّلات لحم بطنه، وحتى أسفل ركبتيه، فى الماء الدّافئ الذى يملأ الحوض المقام فوق هذه البئر السّاخنة، وكان "حجيزى" غاطسا مثله فى الماء حتى الرّقبة.

- كيف يُخرج الميِّت رائحة البرتقال يا "حجيزى"؟

غمغم "حجيزى": مالك أنت؟! لكن لو أخرج الميِّت رائحة البرتقال، هل ندفنه؟

أخذ "سعدون" الماء بكفّيه، وضرب به وجهه فالتعم، قال: والله ما أجيبك إلا إذا قلت لى كيف يمكن للميِّت أن يُخرج روائح البرتقال.

كانت بجوار العين السّاخنة، شجرات برتقال متراصة فى شكل نصف دائرى، كأنّها تحيط بالعين، تدارى المستحمّين، وكانت عصافير تنتطط بين

الأغصان، والشَّمس في علياء الضُّحى، تبرق في صلعة ”سعدون“، وتتوهج على صلعة ”حجيزى“، والصَّحراء منبسطة من ناحية، ومن ناحية أخرى تريض الصُّخور البالغة الصَّخامة، غريبة الأشكال، على صدرها فتهمد.

- نُطعم الإنسان قبل أن يموت برتقالا فقط.

انطلق ”سعدون“ في الضَّحك، وأراد أن يستلقى، فغطس في الماء، فقَب وهو شرفان، يسعل ويعطس، ويضحك، ووجهه يحمر، وقهقهه ”حجيزى“ شمتانا في ”سعدون“، لكن ”سعدون“ أفاق من سكرته، وقال: والله يا ”حجيزى“ لو سقيت الميت عطرا، فلن يُخرج من دبره إلا فساء عفنا، هذا طبع الميتين.

فتوقَّف ”حجيزى“ عن الضَّحك.

الماء يخرج رقراقا من الحوض إلى جدول صغير، يمتد خيطا أخضر في لوحة الرِّمال الصَّفراء، يتمشى ناحية الزُّروع البعيدة، و”أبو قردان“ وقف على حافته، ينقر الماء، ولا يشرب.

- من قال لك هذا يا حمار؟!!

- لا أحد. لكن الميتين لن يكونوا فَوَاحات عطور.

- جرَّبت يا أغبي من الضب؟!!

- ما جرَّبت!! وكيف نجرب هذا؟!!

- جرِّبه معي، أول ما تشعر أنتى سأموت تأتى لى بالبرتقال، لا تجعلهم يطعمونى غير البرتقال.

- وإذا لم يكن هناك برتقال؟! المانجه تنفع؟! رائحتها حلوة يا أخى.

صمت "حجيزى" قليلا، وقال: هواى رائحة البرتقال، لكن لو جئت تموت قبلى، سأطعمك المانجة.

زعم "سعدون": لا يا "حجيزى"، أنا أريد أن أدفن فى قبر به لحد، سُنَّة الرُّسول يا حبيى.

زعم "حجيزى": هذى سُنَّة الغربان يا ناصح، قالوا الغراب هو الذى علّم الإنسان الدفن.

"سعدون" شهق، كان كلام "حجيزى" متهورا، لكن "سعدون" قال: ولو، أنا أريد الدفن، كل ميّت وراحته يا أخى!

صرخ "حجيزى": غور، براحتك، طول عمرك عفن، وستكون وأنت ميّت عفا أيضا.

- كان نفسى أعمل لـ "زليخة" قبرا مثل غرفة تسع اثنين، وأدفن معها لما أموت، الناس ما أعطونى فرصة.

وبدا "غنيمه" قادما من غرب البلد يتهدى مثل ماعز عجفاء، يخطو بين الحقول ببطء.

قال "سعدون": لكن ما تقوله عجيب، وحلو والله، جثت الأموات تفوح بعطور الفواكه!

انبسط "حجيزى" لكلام "سعدون"، فقال هاتفا: هل يدفنون موتى يفوحون بالعطور يا "سعدون"؟!!

هز "سعدون" رأسه، وقال: والله ما أعرف، لكن لو لم ندفنهم، ماذا نفعل بهم؟!

قال "حجيزى": نبقمهم معنا فى البيوت، يعيشون بيننا.

وانطلق "سعدون" فى الضحك، وكان "غنمية" قد وصل إليهما، فقال: السّلام على زوج الحمام.

فقال "سعدون" وهو يغالب ضحكته: السّلام على فرد الغراب.

وقال "حجيزى": السّلام على العنزة الجرباء.

وقال "سعدون": كيف يعيش الأموات بيننا يا "حجيزى"، الأموات لا يعيشون!!

قال "حجيزى": الأموات يموتون فعلا لما ندفنهم، لكن لو بقوا بيننا سيعيشون، ستكون لهم أدوار أخرى فى حياتنا.

"فى بيوتنا غرف لنومنا، وغرف ينام فيها أطفالنا، وغرف لحزين غلال حقولنا، وغرف لتخزين بلح نخيلنا، وحظائر لهائمنا، لن تضيق بيوتنا إذا جعلنا فيها غرفا لأمواتنا، ولن يزعمنا الميتون طالما هم فوّاحات عطور".

"غنمية" نزع ملابسها، ومثلها بقى بلباسه الذى يدارى عورته، لكن عورته أطلّت من قُطع فى لباسه، جلدة مرتخية مدلاة، وقهقهه "حجيزى"، ونظر "سعدون" إلى الذى كان "حجيزى" ينظر إليه وقهقهه أيضا، و"غنمية" سارع

بتحريك لباسه، فاخْتَبَأَ الذي كان يطل، ودخل "غنيمة" في الحوض، وغمر نفسه بالماء، وقال: في مرة اشتد فقطع اللباس.

راح "سعدون" في نوبة ضحك، عاد منها على كلام "حجيزي" لـ "غنيمة": لو كان في فم كلبك أسنان ما كان ترك أكل العظام، بتاعك يقطع اللباس!؟ كنت تزوّجت يا ابن الكذّابة.

- ما كان يمكن أتزوّج بعد المرحومة. كم مرة قلت لكم ما يمكن أتزوّج بعد المرحومة.

قال "غنيمة": لو أن الميِّتين يفوحون بالعطور ما كنت دفتها، وما كنت سأضعها في غرفة تكون للميِّتين في البيت، كنت بقيت أنقلها معي في كل مكان من البيت، كنت جعلتها تعيش وهي ميّية.

كان "سعدون" يخرج من حوض المياه، والماء ينسحب من على ثيَّات جسده، ويعود في شلّالات صغيرة إلى الحوض، واللباس يلتصق بإليتيه وفخذيته، فيبدو بياضها المشوب بالحمرة، قال "سعدون": أنت تظن هذا الآن، لكن كنت سترهق منها، وربما كنت ستنسأها في حظيرة الغنم.

كركب صوت "غنيمة"، عاليا غاضبا: أغلق فمك يا "سعدون، كيف أنسى "لبنى" في حظيرة الغنم، ما تتكلم كلمة أخرى.

لم يتكلم "سعدون"، وكان يلبس جلبابه، والعصافير تنتنطط بين أغصان شجر البرتقال، وقرادين كثيرة بدأت تتجمّع على ضفّتي الجدول الأخضر الصّغير، المنطلق في بحر الرمال.

\*\*\*\*\*



ليل الصّحراء، سماء بالغة السّواد، ونجوم ساطعة التّوهج، ثم لا شىء يبدو بوضوح، فقط بيوت ”الوعرة“ القديمة تتلاصق مثل نعاج نائمة، تبدو بشحوب يكاد يُخفيها، والمسجد بقبّته الأقرب لبيت ”حجيزى“ يبين خيالاً، فى هذا الظّلام، كانت البقعة المضيئة أمام البيت تظهر كأنها قطعة من نهار قادم، وكانت اللّمة ”العويل“ داخل البيت تصب الثّور بلا ملل.

اتسمى ”حجيزى“ و”غنّمة“ و”بكير“ من الطّعام، ورُفعت الطّبلية، وجاء الشّأى فى كوبين من زجاج أصفر غير نقى، وجلسا على المصطبة يرشّفانه.  
- تعيش حياتك يا ”غنّمة“ لا تكف عن الكذب، كنت أنت الذى تعمل فى قطارات الإنجليز.

سكت ”غنّمة“، ورشف الشّأى، ثم نظر فى وجه ”حجيزى“ وانطلق يفهقه.  
جاء ”بكير“ يحمل كوب شايه، وفى ذيله جاء ”سليم“ و”سالم“ و”سلمان“، قال ”بكير“: العيال يريدون سماع بقية حكاية العصفور الذى ركب القطار.  
ابتهج ”غنّمة“، وقمر مكتمل أحمر ضخم، بزغ فجأة فى أفق الشّروق، يتسلل صاعداً بين التّخيل.

- الخواجة الإنجليزى عمل بيتا من خشب للعصفور، بيتا كاملاً، مثل بيوت المدن، فيه غرف كثيرة، وفيه كنيف! وتركه مفتوحاً، ووضعها فى ركن من أركان عربة ”البولمان“، العصفور نط من الكرّتونة، ودخل البيت يهز رأسه، وأخذ يأكل من حبّات القمح المكوّمة فى غرفة الطّعام، وترك الخواجة باب العربة مفتوحاً، وأخذ يراقب العصفور، هل سيطيّر ويهرب، أم سيبقى، العصفور بقى، بعد قليل طار، وخرج من الباب، والخواجة حاجباه اثنتى،

ورسما حزنا على وجهه، وطلب منى ليونا، وجلس ينظر إلى بيت العصفور، لكن فرح جدا لما رأى العصفور يعود، وعصفور آخر يطير خلفه.

أنا كنت أتيت بعصير الليمون، وعيناي على بيت العصفور، فوجدت عصفورين، قلت: صارا عصفورين يا خواجه.

قال لي: عصفور وعصفورة يا ولد.

وصافرة القطار شرخت ضجيج محطة "أسيوط"، وتحرك القطار، وعاد العصفور إلى "الخارجة" معه عصفورة!!

"سلمان" قال: لما وصلا طارا وتركوا القطار؟

- ما تركوا القطار أبدا، صارا يسافران مع الخواجة وأصحابه المهّمين، وباضت العصفورة في حجرة التّوم.

علت قهقهة "بكير"، وضحك العيال الثلاثة، ولوى "حجيزى" شفثيه مستغربا الحكاية.

- كائنك ما تصدق الحكاية يا "حجيزى"!؟

- طول عمرك تقول حكايات، تخلط الجد بالهزل.

- لماذا لا تصدّق؟ الإنجليز حركاتهم عجيبية، يتركون بلادهم ويأتون بلاد التّاس يحتنّونها، تصرفاتهم عجب، ما أعطاني قمحا آكله أنا وولدى، لكنّه أعطى العصفور قمحا، تعرف؟ هذه العربة امتلأت بالعصافير، وبزاقها غطّى الكراسى والمناضد، ما عدت أنا ولا العامل التّوبى قادرين على متابعة تنظيفها، بقي في العربة ألف عصفور أو أكثر! وبدلا من طرد العصافير، ركنوا عربة القطار "البولمان" الفاخرة، على شريط سكة حديدية جانبي، بعيدا عن محطة

"أسيوط"، أنت مستغرب هذا؟! وعيّنوا عليها حراسة لكي لا يجرؤ أحد على إزعاج هذه العصافير.

\*\*\*\*\*

تجمّع الرّجال حول بئر "الرّاهب"، وجذبت النّساء المولولات "منيرة" ناحيتهن، كانت تصرخ، وتخمش الأرض بأصابع يديها، لا تريد البعد عن فتحة البئر، وكان "سعداني" ينهرها ودموعه تهطل، ثم صفعها على صدغها، فسكتت ذاهلة، وتركت الأرض، وانصاعت لجذب النّساء.

الغراب يقف بين سعف إحدى التّخلتين، يشد رقبتة وينعق، ووقف الرّجال يحاولون حل المشكلة، كيف يخرجون جثة الولد "صالح"، المحشورة حشرا في أعماق نبع يميل في الأرض بضيق شديد، لا يمكن لأقل الرّجال جسدا وأنحفهم التّزول، كان الحزن يعظم في قلب "سعداني"، الولد مات، ثم لا يستطيع إخراج جثته!

الشّمس تتّجه للمغرب، و"سعداني" يتّجه نحو الجنون، يخلع ملابسه، وصرخ: أنزل البئر، ولدى لا يبقى فيه، أدفنه يا ناس مثل الثّاس في قبر.

لكن الرّجال أمسكوه، فلم يستطع خلع المزيد من ملابسه، صرخوا فيه: كيف تنزل بئر النّحس هذا؟ ما تستطيع؟! لو ينفع كان نزل عيّل من عيالنا!

وصوت "غنيمة" كركب: هاتوا حبل "بطان" واربطوا في آخره خطّاف، وندليّه في البئر، يمكن الخطّاف يعلق في ملابسه، ونجذبه.

”حجيزى“ يقف على حافة البئر، والنخلة وقفت عليها غربان كثيرة، لكنها لا تنعق، ترفرف بأجنحتها، لتتفادى السقوط من زحمة الغربان، وولولة النساء الخافتة الرتيبة، تقطعها صرخات ”منيرة“ الملتاعة، وكانت النخلة الثانية تستقبل وفودا من غربان جديدة تأتي من قلب الصحراء.

”حجيزى“ ينظر فى ظلام البئر، ويرفع وجهه ينظر فى وجوه الناس، وفى وجه ”سعدانى“.

”ماذا يريدون؟! لماذا يحرصون كل هذا الحرص على إخراج الولد؟! يريدون دفنه فى التراب؟! ليتركوه مدفونا فى بئر تجرى فيه المياه؟ الماء أم التراب أجمل بالنسبة لميت؟ لو سألوا الولد وأجابهم، سيقول لهم ابقونى فى المياه، هم يريدون إخراجه لتدور عجلة حياتهم، ليجلبوا الماء لهم، يدفنون الموتى، لكنى لا ينشغلوا بهم، يريدون العيش من غير منغصات قد يصنعها الموتى، ليست هناك مشكلة عندهم لما يصنع الأحياء المشاكل، لكن الموتى!“.

أنزل ”فتحة“ الحبل المنتهى بشص ضخم إلى البئر، وجذب قليلا، من خفة الحبل أدرك أن الخطاف لم يعلق بجثة الولد ”صالح“، دلى الخطاف وأخذ يحركه، وجذب، هذه المرة شعر بثقل، جذب أكثر، كان الثقل يزداد وزنا، ولم يكن الحبل يتحرك، كانت الجثة محشورة بقوة، وعندما جذب جذبة قوية، انفلت الخطاف بعد أن مزق قطعة الملابس التى كان قد علق بها، ارتفعت أصوات ناهرة: بالراحة يا ”فتحة“.

شمس المغيب في أفق الصحارى تنشر الشجن، مغارب الرمال مغموسة في الخشوع، والضخور الصخرة غريبة الأشكال هناك مثل نساء الجن تتشبح بالسواد، والغربان زحمت التخلتين، تبرز صرخة لـ "منيرة" الذاهلة، وتبرز نغمة لغراب يستعد لاستقبال الظلام، وبئر "الزاهب" تعيش لحظات حدث تحركه أقدار مبدعة، تبدع في رسم لوحات الألم.

الحبل يصعد رويدا رويدا، ببطء شديد، عيون الرجال تركزت على فتحة البئر، ينتظرون وصول ضحية الموت الجديدة، تحتك الجثة الصغيرة في جوانب البئر، وعندما شارفت على الوصول، علت شهقة "سعداني"، ثم تنفس بأهات تختنق: آآآآه، آآآآه.

الموت مؤلم، كيفيته في كثير من الأحيان أشد إيلاما، وأحيانا هناك ما هو أشد إيلاما بكثير من الموت وكيفيته. كانت الجثة الصغيرة تصعد إلى حافة البئر، وقد نكت الخطاف نصله في إحدى عيني رأسها.

\*\*\*\*\*

قال الشيخ "علوان": القبر أول منازل الآخرة.

وقال: إما يكون روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

وقال: وكان سيدينا "عثمان بن عفان" يسمع أهوال الآخرة صامتا، لكن إذا ذكر القبر بكى.

”الكلوب“ يضيئ بالتور الخافت، والنّاس قبل إقامة صلاة العشاء يسمعون، سيرة الموت والقبور تشغف قلوبهم، كأنّها حكاية مسليّة، فالحياة في واحة ”الوعرة“، مثلما في أى واحة من واحات الصّحراء، رتيبة، وينخر فيها الملل، كلام الشّيخ ”علوان“ تسالى، يقول حكايات عجيبة عن رسول الله ”محمّد“، وحكايات غريبة عن حروب دارت بين المسلمين والكفّار، وقصص حلوة عن جنّة فيها ما تشتهى الأنفس، يطلب الإنسان ما يتمنّاه، فى غمضة عين يكون أمامه، وأعجب العجب من أحوال الجنّة طعام أهلها، وأغرب الطّعام لحم الطير.

قال الشّيخ ”علوان“، وهو يتنسم ابتهاجا: يكون الطير يرفرف فى سماء الجنّة، طير الجنّة أجمل من أى طير ترونه يطير فى سائنا، فيشتهى الواحد منكم يأكل منه، فينزل الطائر بسرعة النّجم وهو يسقط، ترون النّجمة وهى تسقط؟ يسقط الطائر بأسرع منها بين يديك، ينزل مشويّا كأطيب ما يكون الشّواء، فيظل الإنسان يأكل منه، حتى لمّا يشبع، ويحمد الله، يعود الطائر حيّا، وينطلق مرة أخرى إلى سماء الجنّة.

وارتفع صوت ”حجيزى“ مندهشا: يا شيخ!؟

قال ”علوان“ باسما: ما تصدّق يا ”حجيزى“؟

- أصدّق، عندنا فى الأرض عجائب، فلم لا تكون فى السّماء عجائب، لكن الطّير هذا فى الجنّة لمّا آكله يكون حيّا!؟

قال الشّيخ ”علوان“: كيف يكون حيّا وأنت تأكله يا ”حجيزى“؟! يكون مشويّا.

- أنت قلت إنه سيطير بعدما نأكله!

قال الشيخ "علوان": الله يجيبه مرة أخرى فيطير.

هز "حجيزي" رأسه زهقا، وزعق: أنا لن أستطيع أكل طير أعرف أنه سيحيا بعدما انتهى من أكله! كأني أكله حيا!

سكت "علوان"، لا يجد كلاما، لكن "حجيزي" أكمل: أنا أريد زوجتي في الجنة، تمسك الطير، وتذبحه، وتسويّه، وأكله، وأمص عظامه، ثم أرمي ما تبقى منه لكلب "غنيمة".

وارتفعت أصوات ضحكات المنتظرين لإقامة الصلاة.

- نسيت اسم صاحب رسول الله الذي قال "علوان" إنه يبكي لما تأتي سيرة القبر.

- عليه الصلاة والسلام، اسمه "عثمان بن عفان" يا "حجيزي"، كيف تنساه وجدّه أصل جدّك؟!

كان "حجيزي" قد تمشّى حتى بيت "سعدون" بعد أن تناول العشاء، ذهب يسلم عليه بعد أن عاد هو وزوجته "زليخة" من رحلة السفر الطويلة إلى "أسيوط".

ليالى الصيف فى الصحراء ساحرة، و"حجيزي" الصديق الأعز لـ"سعدون"، و"سعدون" يعتبر "حجيزي" صاحب بيت، لذلك لا يستقبله فى الـ"مندرة"،

وأما يدخل به إلى عمق البيت، يمحمان بصوتيهما، حتى تنتبه "زليخة" لدخول "حجيزى"، و"زليخة" تنتبه، فيعلو صوتها بعبارات الترحيب، وهناك فى "الوسعاية" أمام حظيرة "الغنم" يجلسان على قطعة من صوف التِّعاج، يتبادلان الحكى، فى انتظار الشَّأى، وأروع ليالى صيف الصَّحراء، هذه الليالى التى يسبح فى سماءها قمر مكتمل يصب الثُّور، وكانت هذه الليلة من أروع الليالى.

- "عثمان بن عفَّان" هذا مثلى، ما يجب الدَّفن، قال "علوان" إن سيرة الموت ما كانت تزججه، لكنَّه كان يبكى لما تأتى سيرة الدَّفن، إعرف يا "سعدون" أن الموضوع يضابق كل من عنده إحساس.

وقال "سعدون": أنا والله عندى إحساس، وأحب الدَّفن، ابن آدم إذا مات صار عورة، وكرامة العورة سترها، الدَّفن سترة يا "حجيزى".

مأمأت ماعز تطل عليها من خلف باب الجريد، نشَّطها الونس.

وجاءت "زليخة"، وأعطت لكل منها كوبا، وقالت: واه يا عم "حجيزى"، الدُّنيا "أسيوط"، نحن فى هذى الرِّمال ما نعيش دنيا، دنيا "أسيوط" حلوة.

"حجيزى" له طريقة فى رشف الشَّأى، تخصُّه وحده، النَّاس يرشفون الشَّأى رشفات طويلة، وهو يخطف الرِّشفات خطفا، وخطف "حجيزى" رشفة شأى، وقال: تحبين الهرج والمرج يا بنت النَّاس، واحتنا نعيمها الهدوء.

قالت "زليخة": "أسيوط" ونس، و"الوعرة" وحدة، أنا أحب الونس.

واستدارت، وغابت.



“حجيزى” بخلق عينيه، و”سعدون” نظر إليه بعينين متسائلتين، فخطف  
”حجيزى” رشفة شاي، وهمس: الونس! امرأتك تحب الونس.

صَقَّ ”سعدون” بيديه، ثم فرك كَفَّيه ببعضها، وعلت وجهه ابتسامة  
عريضة، ونظر إلى قمر السَّماء فوقها، وقال: يا ”حجيزى” الليلة جميلة، وأنا  
بالى رائق، ما تعكِّره بسيرة الموت، أريد أحكى لك ما حدث عند الطَّبيب،  
ستموت من الضَّحك، طيب ابن كلب، قليل حياء.  
وغطس ”سعدون” فى الضَّحك.

\*\*\*\*\*

”غنيمة” قال: همى فى قلبى، وأنا فوق سنام ناقتى، والكلب يمشى وراءها،  
الثَّاقفة لا يلفت نظرها شيء، فقط تنظر إلى الأمام، إلى الدَّرب الذى لا نهاية  
له، بينما الكلب يترك المشى خلفها أحيانا ليناوش حرباء، أو يقفز خلف  
ورن، الثَّاقفة تنهذى صامته، لكن الكلب ينبح أحيانا، وأحيانا يعوى، أَقْلِبْ  
بصرى فى وسع الصَّحراء، وقلبي يدق بعنف القلق، سافرت كثيرا بالجمال،  
لكن لم أسافر أبدا بمفردى، ربما لهذا كان القلق يضرب نياط قلبى!؟

وربما لأنى كنت خائفا من ألا ألحق بـ”زبير”، ”زبير” يقضى مصالحه فى  
”الخارجة” ويمضى دون أن يفكِّر أن له أبا وحيدا فى هذه الصَّحراء يجب أن  
يسأل عنه، فيعود مسرعا إلى البلد التى يسكنها فى ”البحيرة”، يعاشر  
الفلاحين والعرب البدو.

يا ”حجيزى”، ”زبير” قلبه قاس، الولد يهيج وسنُّه عشرون سنة، وتصير  
سنُّه الآن أربعين سنة ولا أراه حتى مرَّة واحدة، القلب توجَّع بموت

المرحومة، لكنه تمزّق من جفاء "زبير"، كم مرة أقول لنفسي عش حياتك من غير فكر فيه، لكن لا أستطيع، قلوبنا تزنى بها قلوب أولادنا، فتعيش طوال عمرها مكسورة لهم.

لكن تكشّف لى بعد ذلك أن سبب قلقلة قلبي، لم يكن السّفْر وحيدا في صحراء مخيفة لا تنتهى، ولا كان عدم اللحاق بـ"الزبير"، لا، كان قلبي يرى ما لا أرى، كان يرى مصيبة كبرى قادمة.

الونس في السّفْر نعمة يا "حجيزى"، القافلة غالبا تكون منجاة، إذا برز الهلاك يتكالب أهل القافلة على مصارعتة، فيهرب النَّاس منه، وإذا لم يهربوا يموتون صُحبة، تتعزّى قلوبهم بالموت في ونس الجماعة، لكنك وحيدا في الصّحراء، تتحول إلى فريسة سهلة، وأنا تحوّلت إلى فريسة سهلة لوحش الصّحراء العاتى، للغرد، عاصفة الرّمال الهأجّة.

همس "حجيزى" لنفسه: تتعزّى! ذكّرنتى بالمعزّى الذى لا يأتى أبدا.

- دائما ترسل العواصف نديرها، هذه الدّكنة التى تلوّن الأفق، والاصفرار الذى يلوّن السماء، ورياح تهب، ثم تعصف، لكن العاصفة التى افترستنى، هبّت فجأة، جاءت من خلفى تزوم مثل مارد، رياح تعوى، ورمال ناعمة تطير فى الهواء بسرعة مارقة، تشرخ ما انكشف من جلد عنقى، الكلب ما لحق ينبح، طار فى الهواء أمام عيني، وكنت سأطير لولا أنى تشبّثت بالسرير الخشبي المشدود على سنام النّاقة، لم يكن من حل أمامى إلا أن أنيخ النّاقة، وأختبئ فى جانبها، بذلت النّاقة كل قوّتها لتنيخ، وأنا عملت المستحيل لأرقد جوارها، كل هذا حدث قبل الغروب! ما رأيت فى حياتى

عاصفة تأتي في المغرب! أظلمت الدنيا يا "حجيزى"، وشعرت بنفسى أدفن، الرمال السَّيفِيَّة الطَّائِرَة كانت غزيرة، ما مضت دقائق حتى كانت الرمال تعلو لتدفن أرجل النَّاقَة، ما كان ممكنا أن أبقى هكذا، وقفت مرّة أخرى وأنا أتشبّث بسرير النَّاقَة، وأمسكت لجامها الذى يطير منسحبا في الهواء كأن موجا عاتيا يسحبه، لم أكن أرى الكلب، طار كحمامة مذعورة في الرّيح، وما عدت أسمع نباحا له، أوقفت النَّاقَة التى شعرت بالعصف يحاول رفعها من مؤخرتها، ثم أخذتها مرة أخرى، كانت نهايتى تلوح بوضوح، وكنت أعافر لأهرب من خاتمة لا يجيئها الرّجال لأنفسهم، الدفن على وجه الأرض، لتأتى ضواري حقيرة مثل الثعالب والضباع، فتنبش الرمال وتخرج المردوم، فتنهش جسّته من غير رحمة.

كانت معركة بينى وبين الرّدى، وما كنت أنا الذى أقود المعركة، كان يقودها "غنيمة" آخر، لم أكن أنا يا "حجيزى" الجالس أمامك، كان "غنيمة" آخر غير واع، يتصرّف بقوة، لكن من غير فهم لشيء، معافرة، خاصّة والرمال السَّيفِيَّة قد أصابتنى بشبه عمى، أردت أصرخ فى النَّاقَة لكى تقف على أقدامها، فكدت أختنق من كومة الرّمل التى اخترقت فى، والنَّاقَة لا تريد القيام، كأنها استسلمت لمصيرها، وسفيف الرّمل أخفى سيقانها تماما، ويصعد بسرعة مخيفة لردم نصفها الأسفل، نخستها بنصل الخنجر، مصيرى فى هذى الصّحارى معلق بالنَّاقَة، رأيت ضعف الإنسان يا "حجيزى"، فى لحظة مفاجئة يتعلّق مصيره بحيوان، وتصير روحه الواعية مرهونة بروح بهيمة! لمّا نخستها بالخنجر فزعت، وهبّت واقفة، لكنّها ما كانت ترفع رأسها، وإنما تطأطؤها من حدّة زفيف الرّيح، ومن كثافة الرمال التى تصب صبا، وما عاد بمقدرتى المعافرة، كان يمكنى التّغلب على قوة الرّيح، لكن رياح ورمال تصب صبا!؟ مستحيل يا "حجيزى"، أنخت النَّاقَة، هذه المرّة أنيخها

للاستسلام، وتمددت ملاصقا لها، مخبئا رأسي بين ذراعي، طارت العمامة يا "حجيزي"، ما تصمد العمام في مثل هذه العواصف المباغتة، خبأت رأسي بين ذراعي، ودسست وجهي في جسم الناقة، وسلّمت أمري إلى الله.

عرفت شيئا يا "حجيزي"، غير كل ما يقول الناس، عرفت أن الاستسلام لأقدارك يجلب الرّاحة للنفس، لمّا تعترف بضعفك، وتتوقّف عن المراوغة، ترتاح!

جاءني هذا الإحساس، وأنا أستسلم للموت، قلت لنفسي: مت هادئا، لماذا تعافر وتنزعج وتتعب نفسك في لحظاتك الأخيرة، سلّم يا "غنيمة"، وانظر في حال نفسك، وتمدد طيِّعا للموت، مثل خرفان الأضحى، ستجز العاصفة رقبته، وسترتاح.

أنا سلّمت أمري إلى الله من هنا، وجاء الفرج الإلهي من هنا، بقيت العاصفة، لكن من غير رمال، ثم بعد فترة وجيزة هدا الجوّ، وكأنه لم تكن هنا منذ لحظات رياح الخراب تصفّر صغير الموت.

كانت الرّمال تغطّي كل قطعة من ملابسي، كما أنها اندفعت إلى ما بين ملابسي وجلدي، فكنت أشعر باختناق، ولم يكن ممكنا التخلّص من هذه الرّمال إلا بخلع كل ملابسني ونفضها، ومسح جلدي، أخذت كمية كبيرة من الماء الذي في القربة، ونظّفت نفسي، لم أكن أعرف يا "حجيزي" ما سوف يجري، لو كنت نظرت حولي لما فعلت ما فعلت، لكن ما حولي لم يلفت انتباهي، لأن الشّمس في غروبها كانت مختلفة خلف سحابة من الرّمال الصّفراء ملأت السّماء حتى الأفق، فكان الصّوء خافتا، فلم أر ما كان يجب على أن أراه قبل استخدام كل هذه الكميّة من الماء.

ما رأيته يا "حجيزى" كان هو الموت نفسه، فما هو الموت إن لم يكن إحساس باليأس التام من أى أمل فى الحياة؟! لم يكن حولى شىء من هذه الملامح التى كانت تبدو لى قبل مجيء "الغرد"، أين الدّرب؟ أين أشجار "العبل" الصّغيرة؟ أين الصّخور التّاتئة من الأرض الرّمليّة الصّلبة؟ لا شىء سوى رمال ناعمة ليس عليها أى أثر، كأن الصّحراء قد تم تجديدها، فعادت كأنها لم يمسهها بشر، ولم أعد أعرف أين الطريق، وبدأت أعرف أن الموت قادم لا محالة، كانت السّماء متعفرة بلون الرّمال القانى، وليس هناك ثمة شىء يصلح علامة للاهتداء.

أين الكلب؟!

\*\*\*\*\*

"سكيرة" جلبابها ملّون بزهور وضاءة، وتمشى بين بنات تلوّنت ملاسهن بقلوب خضراء وحمراء وصفراء، وبأشجار عجيبية ألوانها بنفسجية وزرقاء، وورود لا يرى "سليم" مثلها أبدا فى الصّحراء، يميزين بوداعة، وضحكاتهن تيمس وتتدلّاه، وراء قطعان الغنم التى تضامّت فى قطع واحد كبير، تتابعه عدّة كلاب.

قلب "سليم" اختلف، لم يعد هذا القلب الذى لا يهتم بالبنات، وإنما صار قلبا يرتبك لرؤيتهن، ويئن لرؤية "سكيرة" بالتّحديد، ويتعجّب "سليم":  
"سكيرة!!"

و"سكيرة" نفسها ما عادت تنظر لـ"سليم" بنفس العين القويّة، لأن قلبها اختلف أيضا، ما عاد هذا القلب الفارغ إلا من لهو الطفولة، وإنما صار ينشغل بصورة ولد اسمه "سليم"، وكلّما رآته انكسرت عيناها، ودق قلبها،

فتشعر بجسدها كله يتزلزل، وتختل أن كل من حولها يكشف حالها، فتروح في دوامة كبيرة من الخجل، ومن غير رغبة منها تتذكر ما حدث بينها وبين "سليم" لما كانا مجرد طفلين.

كان ضحى، وحرارة صيف، و"ثرياً" عند الفرن مشغولة بالخبيز، و"سريرة" تجلس على "الدكة" تهش بعصاها العصافير التي تحوم حول الأريفة العجين المرصوصة على فراش كبير نثرت عليه الردة التي تبقى من غربلة الدقيق، وكان "سليم" يتسلل إلى غرفة "بكير" و"ثريا"، وهو يسحب خلفه البنت "سكيرة"، ولما دخلها، أغلق "سليم" بابها.

- اقلعى.

كان قلب "سليم" يدق بقوة، وكانت "سكيرة" مرتعبة، لكنها خلعت سروالها الداخلى، وتمددت على السرير من غير صوت، وتمدد فوقها "سليم"، ووقف.

وسقط في دوامة حيرة، ماذا يفعل؟! وسأل نفسه: ماذا كان يفعل أبى مع أمى فى ليلة أمس، لماذا كانت أمى تن وتتاؤه؟ لم يكن أبى يضربها؟ كيف يضربها وهو يقول لها كلاماً حلوا؟! كان كلامه عجيباً، وكان يشخر، وكان يئن أحياناً، ماذا كان يفعلان؟

وسأل نفسه: هل ما أفعله الآن هو ما كان يفعله أبى؟! وهل كانت أمى منسدحة على ظهرها من غير سروال مثل "سكيرة"؟!

"لكن أنا لا أفعل شيئاً! أنا فقط ممدد فوق "سكيرة"، أريد أن أفعل شيئاً، لكنى لا أعرف كيف أفعله، لو عملته لابد "سكيرة" ستئن وتتاؤه مثل أمى.

نظقت "سكيرة" بصوت خائف: أريد أمشى.

نظقت "سكيرة" بما أراح "سليم"، فلقد كان بدأ يغرق في حيرة شديدة، وكان خائفاً أن تأتي أمه وتراها، كانت ستكون مصيبة.

"يكفى أنها أخرجتني من تحت سريرها هذا الصّباح".

كانا يلعبان تحت شجرة الجميز أمام البيت، يكومان رمالا مترية، وبينكنا فيها قشاً وأحجاراً صغيرة، كانت أكوام "سليم" دائماً هي الأجل، وكانت "سكيرة" بغيظ طفولي تهدم أكوامها، ويضحك "سليم"، ويصنع لها أكواما أخرى يتفنن في تزويقها، قال: صحت بالليل، وشعرت بالعطش، فخرجت من الغرفة لأشرب، وأنا أمر من تحت طاقة غرفة أبي، سمعت أمي تتوجع، قلت أمي مريضة، شربتُ ونمتُ، لكنّها في الصّباح كانت سليمة، وتهدم البيت لو أرادت، ونسيت الحكاية، لكن في ليل آخر، صحت وأنا أشعر بالعطش، وتحت طاقة غرفة "بكير" سمعت أمي تتوجع، فعدت إلى غرفتي ولم أتم حتى الصّباح، وعندما خرجت أمي، رأنتي جالسا تحت التينة أنظر إلى باب حجرتها، كان شعرها ممّوشاً كأنّها كانت تتعارك، لكنّها كانت سليمة، وتهدم البيت لو أحبّت، ويومها كرهتها.

"سكيرة" بأعوامها الخمسة تنظر في عيني "سليم" من غير فهم، مثل يمامة من هذه اليمامات التي تقف على أغصان "الجميزة"، تهز رأسها ثم تحلق بعيدا.

- أنا شيطان يا "سكيرة"، كان لا بد أن أعرف ماذا يفعل أبي فيجعل أمي تتوجع من غير مرض، فغافلتها في ليلة الأمس، ودخلت حجرتها قبلها، واختبأت تحت السرير.

ضحكت "سكيرة"، ونظرت بعينها نحو قبة المسجد، ثم انكسرت عيناها  
خجلا.

- م تخجلين يا "سكيرة"؟!

- لا أعرف، لكن خجلانة!

- تحت السرير كراتين وبرطمانات وقفف مليئة بتمر وكشك، تمددت  
وانتظرت، وكانت دجاجة ترقد أمام عيني تهز رأسها، تشعر بوجودي لكنّها  
لا تراني، الدجاج يا "سكيرة" لا يرى في الليل، لكنّي كنت خائفا من أن  
تراني، ودخل "بكير"، وقلبي تحبّط بين ضلوعي، ودخلت "ثرّيا".

ضربت "سكيرة" صدرها بكف يدها، وهمست: يا مراري!

وضحك "سليم".

قال "سليم": ما أعرف الذي حصل! لكنّي خفت، انطفأت اللبنة "العويل"،  
وجفأة أهتز السرير فوقى بعنف، ثم بدأت "ثرّيا" تن وتوجّع، لكنّها كانت  
مبسوطة، أنا شعرت أنها مبسوطة، وكان "بكير" يقول كلاما....، وأنا  
نسيت أن الدجاجة ترقد بجوار ذراعي، فحركته لما ألمني، فاصطدم بها،  
فزَعقت.

توقّف السّرير عن الارتجاج، وتوقّف "بكير" عن الكلام الذي لا أفهمه،  
وتوقّفت "ثرّيا" عن التّوجع، وساد صمت لبرهة، قبل أن يتساءل "بكير": ما  
هذا؟!

قالت "ثرّيا": دجاجة تحت السّرير.



- أنا أعرف أنها دجاجة يا نبيهة! لكن لماذا تزعق الدجاجة؟

- ربما أفرعها فأر.

- "بكير" صحا في أذان الفجر، كان ناسيا فخرج من الغرفة، لكن "ثرثيا" نظرت تحت السرير، كنت قد نعست، وشهقتها الفرعة أيقظتني، ثم مدّت يدها وجذبتني، فخرجت الدجاجة من تحت السرير تصيح، وهي تقفز هلعا في أركان الحجر.

قال "سليم": أنا ما عرفت ماذا يفعل أبي فيجعل أمي تتأوه، لو عرفت كنت جعلتك يا "سكيرة" تتأوهين مثلها.

واحمر وجه "سكيرة" الذي يشبه وجه قطة، وكان الضحى يزول، وقيظ الصيف يبقى، وشجرة "الجميز" تزوى ظلالها.

\*\*\*\*\*

"بكير" يُحکم ربط أجولة التمر على ظهر ناقته، والنّاقة المنيخة يرتج جسدها من عنفوان "بكير"، وتميل رأسها الشّامخ تنظر إلى ما حولها، وهي تجتر شيئا من طعام في فمها، فيسيل من شديها سائل أبيض لزج، كان "حجيزي" قد وقف بجوار "المصطبة" الصّخرية يعن النّظر في "بكير".

تأمّل يا "حجيزي"، هذا "بكير" ولدك، عشت معه عمرا طويلا، والآن ليس لك من أيام تعيشها معه سوى يومين ونصف! تأمله يا "حجيزي"، أنظر، يشد الرباط بقوة محب للحياة، لكن.. أنا لا أتذكّر ملامح وجهه بالضبط! لون عينيه أسود أم بلون الشاي؟ ما رأيت أذنيه منذ كان صغيرا، على الرّغم من أنّها تطلّان دائما من أسفل عمامته، الولد "سليم" يشبه "بكير"، و"بكير"

يشبهني، ”بكير“ يشبني في الشكل فقط، لكنّه لا يفكر لا في موت، ولا في دفن، هو يعيش الحياة، لماذا لم تعش الحياة يا ”حجيزي“ مثلما يعيشها ولدك، ماذا أخذت من تفكير طوال عمرك في قضية لن تفيدك كثيرا بعد موتك؟! لا، لن يعيش أبدا من لم يجعل الموت نصب عينيه.

لكن ما الذي عشته يا ”حجيزي“؟! ما الذي استمتعت به؟ ”بكير“ كبر من غير أن تستطعم طفولته، ولا عشت شبابه، فقط الموت هو ما تحياه، الدفن هو طريفة تفكيرك، ما عرفت امرأتك ”سريرة“ غير مرّات تعد على أصابع اليد الواحدة! تتزوّجها خمسين سنة، ولا تنجح معها إلا ثلاث مرّات؟! حياتك راحت هدرا يا ”حجيزي“.

ابتسم ”حجيزي“ بسمة خائبة.

هذا نفسه ما فكّرت فيه من قبل، منذ ما يقرب من العشرين عاما، عندما تركت ”الوعرة“ إلى صحراء أبعد في قلب صحراء بعيدة، إلى جبل الرّهبان، وكنت تظن أنّك لن تعود، لمّا تبعت ”يوتّاس“ الرّاهب، ناويا الدخول في دين التّصاري، تبحت عن قيامة لجسدك بعد الموت، كان ”بكير“ في عنفوان شبابه، مازال عريسا جديدا، وكنت تترك المكان وترتحل وهو في الغيطان يزرع القمح، فكّرت في لون عينيه، ما لونها بالضبط؟ سوداوان أم عسلتان؟ وأذناه؟! كبرتان أم صغيرتان؟ وعندما عدت يا ”حجيزي“، نسيت تنظر إلى عينيه، ونسيت تنظر إلى أذنيه!

أريد الآن أن أرى ”سليم“ و”سالم“ و”سلمان“، ملامح كثيرة من تقاطيع وجوههم أشعر الآن أني لا أحيط بها علما، إنهم في المراعي البعيدة، ودّعتهم صباحا، لكن يا ”حجيزي“ ما ودّعتهم وداع من سموت، الذي سموت يجب أن يحفظ ملامح هذا العالم قبل موته، فهو يراه لآخر مرة، وليست هناك

فرصة أخرى، الولد "سلمان" في قفاه وحمّة تشبه بز الماعز، قالت لى "ثريًا" عنها، قالت لى أنظرها، أنا ما فعلت، نفسى أراها الآن، لكن الولد بعيد، والرّحيل حتم، وأى تأخير سيُخل بكل ما أدّبره، وأخسر ما بعد الموت، كما خسرت ما قبله، لا بد من الهروب من الدّفن، وإذا كنت لم استطع العيش بينهم حيًا، لأحيا بينهم ميتا.

نظر "بكير" إلى "حجيزى"، ضحك، وهتف: يا والدى، تعال ساعدنى.

- ساعد نفسك، أنا سأدخل البيت أجهز نفسى.

كانت "سريّة" تقف وراء الباب الصّخّم للبيت، وكانت تنظر إلى "حجيزى"، و"حجيزى" نظر إليها، ثم نظر إلى الأرض، وتوجّه إلى عمق البيت، إلى ركن فى الفسحاية التى فى وسطها شجرة التّين، وأخرج جوالا ملاء بالقرض، فتحه ونظر بداخله، كانت حبّات القرض تتراص فى لحاها الرّبّانى، جافّة، القرض مراره أصعب من مرار الحنضل.

"فى أواخر الأيام لا تأكل إلا المزار يا حجيزى!"

وشعر بصوت يعلو فى تلافيف رأسه "أكلت ثلاث تمرات يا حجيزى، يبقى من عمرك ثلاثة أيام وتموت".

\*\*\*\*\*

كان "يوائس" الرّاهب يجلس على المصطبة الصّخرية، يأكل خبزًا يابسًا مثل الحطب، يغمسه بجنّ قديم غاطس فى مش شديد الملوحة، وكان "عبد الله" حادى القافلة الصّغيرة يأكل خبزًا طريا، يغمسه فى بيض مقلّى غمره سمن من لبن الجاموس، وجبن أخضر فتّت فى زيد البقر.

قال "حجيزى" للحادى: ساحمنا يا شيخ العرب، لو الرّاهب كان يأكل مثلما نأكل لذبحنا لكما جديا، المقدّس ما أعطانا فرصة للإكرام.

فقال الرّاهب "يوائس" بصوت خفيض: لا آكل كل ذى دم مهدر، الرّوح غالية على أصحابها، ولو كانوا حيوانات.

وقال الرّاهب "يوائس": لماذا لا يترك الإنسان العالم من حوله يحيا بسلام؟! ثم إن كل شىء من حوله يعطيه نعمة الله، الدّجاج يعطيه بيضا، لماذا لا يأكل البيض ويترك الدّجاجة تحيا بسلام، البقرة تعطيه لبنا يصنع منه جبنا وزبدا، لماذا لا يأكل اللبن ويترك البقرة تحيا بسلام! الإنسان متوحّش جدا، ولولا أن الله منحه محبّته لكان أقل من حيوان.

- لكن قل لى يا مقدّس، كيف استطاع "المسيح" أن يحيا بعد ما مات؟!  
- يا شيخ "حجيزى"، لم يكن "يسوع" شخصا عاديا مثلنا، كان إلهًا، والله يستطيع فعل أى شىء.

- الله لا يموت يا أبونا.

- وإذا مات، يمكنه ببساطة أن يقوم من موته، ويحيا خالدا.  
- أنا أريد أن أقوم من موتى، أو إذا مت لا أدفن، وأبقى بين النّاس.  
- كل مسيحي يموت، وكل مسيحي يقوم من موته.

دارت رأس "حجيزى"، ورأى هامات التّخيل البعيدة تنخلع من جذوعها لتنتقل ترفرف صاعدة إلى غور السّماء، وأخذت الكلمة تتردّد في تلافيف عقله مثل صدى، تتخبط بين جوانب صدره مثل كرة حديدية ثقيلة، "كل

مسيحي يموت، وكل مسيحي يقوم من موته“، ”كل مسيحي يموت، وكل مسيحي يقوم من موته“، ”كل مسيحي يموت، وكل مسيحي يقوم من موته“.

نظر ”حجيزي“ إلى قبة المسجد، فبدت له غريبة، هذه ليست قبة، إنها انتفاخ فطسان، يتحدث تحتها الشيخ ”علوان“ عن موت ليس بعده قيام، وعن أجساد حتما ستتعفن، وسيأكلها الدود، وسينخرها السوس، لتتحول إلى تراب، ليصير الإنسان بعدها نسيا منسيا.

دق قلب ”حجيزي“ في صدره مثل طبل يقرع، وهو يهمس في أذن ”يوائس“  
الراهب: انتظرنى بعد مسيرة يوم، لأنى سأتبعك.

نظر الراهب فى عينى ”حجيزى“ مندهشا، كانتا غائمتين، وكان نور شمس الظهيرة يسطع مبهرا، وبيوت ”الوعرة“ تغرق فى وهجه، وفى السماء طيور بيضاء مهاجرة.

## مِن أَجْلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ أَغْفِرُ لَكَ

- لا أعرف كيف يعيشون في هذه البنايات التي تشبه العُلب المترصّة؟!
  - ”غنيمة“ قال إنهم يسمّون بيوتهم شققا!
  - والله بيوتهم تستحق هذا الاسم، إنها غرف ضيّقة في مساحات صغيرة.
  - لكن زوجتك ”زليخة“ أحبّت بلاد ”أسيوط“!
  - عيادة الطّبيب كانت في شقّة من هذه الشُّقق، فوق، في الطّابق الخامس.
  - في الطّابق الخامس!
- واه يا ”حجيزى“، هذه بناية فيها عشرة طوابق! الطّبيب قال لى: هات عيّنة من...
  - سكت ”سعدون“، وأخذ يحلق بعينه يحاول تذكّر ما قاله الطّبيب، لكنّه قال: لبن الرّجل يا ”حجيزى“ له اسم عند الأطبّاء، آه تذكّرت، قال لى: هات عيّنة من السّائل الموّنى، أو المتّوى.
- أنا ما أعرف ما هو السّائل هذا! قلت له: آتى لك بهذا من أين؟
  - فنظر لى نظرة عجيبة من تحت نظّارته، تعرف، كأنه ينظر إلى حمار، قلت له: فهمنى يا طيب.

ابتسم ابتسامة خبيثة، وقال: من حمامتك.

حمامتي؟!

ابن الكلب يا "حجيزي" أوقعني في هم أكبر، ويا ليتته كان أكتفى بهذا. قلت له: عندي في الواحة حمام كثير.

انفجر "سعدون" في الضحك، والدموع سالت من عينيه، واستغرق في الضحك حتى أنه توقف فجأة، وأمسك بقبضة يده يزره الأيسر، وقال: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

القمر كامل الاستدارة، يسطع في سماء كاملة الصفاء، وثغاء متقطع خافت لحمل صغير داخل حظيرة الغنم. ويرشف "حجيزي" الشاي رشفاته الخاطفة.

قال "سعدون" وقد عاد وجهه للابتسام: أخذ الطيب يضحك بأعلى صوته، وما استطاع أن يمسك نفسه، فانفلت ذراعه وخبط زجاجة الخبر، فانسكب الخبر الأسود منها على الورق الذي أمامه، وما توقّف عن الضحك، وكنت أنظر إليه مندهشاً، لكن سكت بعد قليل، وهو يمسح زوايا عينيه من الدموع قال: أنا ما أقصد الحمام الحمام يا عم "سعدون"، أنا أقصد قضيبك، أقصد ذرّك.

وأنا قلت في نفسي: يظهر أني وقعت مع طيب خول ابن كلب، لكنّه نظر لي جادا وقال: أثناء نومك مع امرأتك، وأنت تأخذ حقك منها، عندما تصل لآخر حقك، ينسكب من قضيبك ماء ..

أنا قاطعته لما فهمت قصده: قصدك يا طيب لبن الرجل.

خبط على ظهر يدي بالقلم الذي كان يمسكه وهو يقول مبتهجا: عفارم عليك، هذا هو، أنا أريد عيّنة من هذا.

وعندما رآني أنظر إليه وأنا محتار، نظر إلى وهو محتار، فقلت له: كيف؟! لابد من السّفَر أسابيع طويلة حتى أستطيع أن أعود إليك بالعيّنة.

فقال لي: تكون العيّنة فسدت من طول السفر، ادخل في دورة المياه الآن داخل العيادة، وتصرّف.

قلت له: كيف أتصرّف في دورة المياه؟!

بخلق عينيه في وجهي، وقال:.....

بخلق "سعدون" عينيه، ومال على "حجيزي"، وقال هامسا: قال كلمة غريبة، يقصد بها أن أضرب عشرة، مثل ما كُتِّبَ نعمل أيام بلوغنا، آه، تذكّرت، قال: استمني! استمني!

قال "حجيزي" وهو يدعك وجهه بكفّيه، ويتسم: هذه فضائح، ملعون أيها الخلفة، وبعد؟!

قال "سعدون": ما فهمت كلمته، فقال لي: ادعك ذكرك بيدك، ما عملتها أبدا وأنت شاب؟!

وسكت "سعدون" لحظة، ثم واصل الهمس مثل أفعى: قل لي يا "حجيزي"، أما عملتها أبدا وأنت شاب؟!

وقلب "حجيزي" وجهه، وهمس: يا ابن الكلب.

ضحك "سعدون": أنا قلبت وجهي في وجه الطبيب، وكنت سأمسك في رقبتك، لولا أنه انكفأ ينظر إلى ورقة كان يكتب فيها دائما.



ثم قال وهو ينظر في عيني ”حجيزي“ نظرة مأكرة: لكن أنا عملتها وأنا شاب.

- تعرف يا ”سعدون“، وأنا شاب كنت أفضى الأيام والليالي في تخنيط الحيوانات، أساعد والدي ”شديد“، الذي يَحْتِط الحيوانات، ثم يرصّها متجاورة في أعمق حجرة في البيت، أنا تعاملت طول شبابي مع جنث، أصابعي كانت مشغولة دوما بالبحث في أجوافها عن الأحشاء وتفرغها، فروج إناث الحيوانات مقرفة، لحم ينطبق على لحم، وقضبان الذكور ليست إلا عضلات مقرزة، كنت وقتها دائما ما أفكر هل فروج النساء مثل فروج إناث الحيوانات؟ وكنت أعرف الإجابة، قضبان الرجال تشبه قضبان ذكور الحيوانات، تبقى الفروج تشبه الفروج. يا ”سعدون“ لم تكن بي رغبة لكي تتحتس أصابعي عضوى.

زعم ”سعدون“ مناديا ”زليخة“، ولما ظهرت طلب منها أن تعد شايًا آخر.

- أكثر ما يتعب الإنسان منّا ويفقده بهجة حياته هو التفكير العميق! أنا لا أعمل مثلك، أنا أمشي وراء رغبتى، تطلب منى أنام مع المرأة، أذهب بعضوى المنتصب وأنام مع المرأة، أنت عبيط يا ”حجيزي“، كل من يفعل مثلك لن يستمتع بامرأة أبدا، حتى لن يستمتع بعضوه مع نفسه!

- نستمتع بعقولنا يا بهيمة، نرى ما لا ترونه يا بهائم.

همس ”سعدون“ وهو يهيم بإطلاق عاصفة ضحك: النساء لن يستمتعن بعقلك ورؤيتك يا ”حجيزي“، يستمتعن بهذا.

وقبض على ذكره، وانطلقت عاصفة الضحك، ولم تتوقف العاصفة إلا بقدم  
”زليخة“ تحمل الشاي، وقالت وهي تضحك: دائماً ”سعدون“ يضحك،  
فشئت تعوم، يضحك وفقط، لو انطبقت السماء على الأرض يضحك، لماذا  
تضحك يا ”سعدون“.

توقف ”سعدون“ عن الضحك، لكن ”حجيزي“ هو الذي انفجر ضاحكاً،  
واندهشت ”زليخة“، ونظرت إليها مستعجبة، وضحكت، وتركها بعد أن  
وضعت الشاي على الأرض.

همس ”سعدون“: تعرف يا ”حجيزي“، ألد وأمتع شغل مع زوجتي عملته في  
عيادة الطبيب في أسيوط!  
لما خرجت إليها من غرفة الطبيب، رأت في عيني الحيرة والقلق، قالت لي:  
مالك!؟

قلت لها: الطبيب يطلب مني موضوعاً صعباً.

قالت: ماذا طلب منك يا حبة عيني، الله يوجع قلبه مثل ما وجع قلبك.

قلت: يريدني على آخر الزمان أضرب عشرة!

انطلقت عاصفة ضحك أخرى من صدر ”سعدون“، وجاءت ”زليخة“  
بالجوزة، وضحكت من ضحك ”سعدون“، وقالت وهي تمضي: ما يبطل  
ضحك أبداً، سيموت ”سعدون“ وهو يضحك.

اعتدل ”سعدون“ من ميلته، ومسح عينيه بكفيه، وكررت الجوزة في يد  
”حجيزي“، وقال ”سعدون“: نظرت إلى مندهشة وقالت: يوجع قلبه عديم  
الرحمة، وهل تستطيع تضرب واحداً حتى يطلب منك تضرب عشرة، أصغر  
عيل يغلبك الآن.

السَّماء صافية تماما، سوادها مدلم، تشرق فيه آلاف من نجوم مرحلة، والقمر المكتمل يميل نحو التَّصِف الغربي من الظلام السَّاطع، ونسات برائحة القمح تتسكَّع في فسحات البيوت، وصوت "سعدون" صافي مثل جمر حجر "الجوزة"، مزوج بضحك منفلت من "حجيزى".

كان "سعدون" يقول: قلت لها الطَّيب ما يقصد هذا، الطَّيب يقصد....  
أنا سكت ما قدرت أكمل، أكمل أقول ماذا؟! لكنتى أمسكت يدها وجذبتها إلى دورة المياه، مشت ورائى وما استطاعت تفتح فمها، "أسيوط" بلاد غريبة، لكن فى دورة المياه نظرت لى بضيق مشتعل، وقالت لى: ماذا تريد يا "سعدون"؟!

أنا أبرزت لها الأنبوب الزجاجى الذى أعطاه لى الطَّيب، وقلت لها: أريد أملاً هذا.

أنا يا "حجيزى" عرفت لماذا يزنى النَّاس فى الحرام، لأنهم يزنون وهم خائفون، أحلى واجب مع امرأة هو الذى تؤدِّيه بخوف، كتنا خائفين ونحن نفعلمها فى دورة المياه، وكانت تهمس لى طالبة منى أن أنتهى، وأنا ما كنت أريد أن أنتهى، رغم إنى خائف من أن يفاجئنا أحد ويفتح دورة المياه، أو يتلصَّص علينا احد من زبائن العيادة، أول مرَّة أعمالها وهى تعطينى ظهرها واقفة، متعة يا "حجيزى"، متعة.

كان "حجيزى" يشد نفس "الجوزة" وعيناه تسرحان، وكان "سعدون" تمتلئ عينيه بالدموع غارقا فى موجة ضحك عاصف جديدة.

\*\*\*\*\*

- أسمع نباحاً أشبه بأنين الإحتضار، لكنّي لا أرى الكلب، بعد معاناة من البحث خلف الصوت على رمال الغرد السفيقة، رأيت نصف رأسه يبرز من الأرض، لقد دُفن الكلب بكامله!

سحبت "المسحاة" المعلقة بظهر النّاقة، وحفرت الرمال من حوله، وأخرجته، نظرت لي وهو يهز رأسه وذيله، ويعوى عواء خافتاً، ثم أخذ ينفذ جسده بشدة، فيتناثر الرّمل من شعره.

تعرف يا "حجيزي"، هذا الكلب ربّيته عشر سنوات، يطوف حولي عشر سنوات، لكنّه كلب، لم أتأمل عينيه أبداً، ولم أعرف أن له أحاسيس أبداً، أعرف أن الكلب وفي، لكن يا "حجيزي" ما وُجد على الأرض كلب أوفى من كلبى...

انقطع كلام "غنيمة" وأخذ يشهق ويبكى.

كانا يتكلمان في المسجد، وبعد أن صلّيا الصُّبح، وبعد أن مضى الجَميع إلى مصالحه، حتى "سعدون" الذي ليس وراءه مصالح.

هذا صدى صوت بكاء "غنيمة" يتردّد بين جدران المسجد السميكة، ورائحة البحر.

- النّاقة غير الكلب، كانت النّاقة قابضة في مكانها، رأسها ثابت، وعيناها ميتتان، كأن كل ما حدث لم يفاجئها، لكن الكلب ظهر في عينيه انكسار، حتى أني رأيت فيها دموع، ورأيته يدور برأسه، ويطلق نظرات التّيه، كان

مثلى، امتلاً خوفاً، هكذا ببساطة يمكن أن تُدفن تحت الرمال! ثم إذا نجونا من الموت دفناً، ها نحن نسقط في براثن الموت تيباً..

مسح "غنيمة" دموعه، و"حجيزى" قال: احمد الله أنك نجوت من الدفن، وإلا ما كنت عدت لتحكى ما جرى.

قال "غنيمة": لو دُفنت كان أحسن، ما كنت رأيت الذى رأيت. بعدما سلّمت أمرى لله وأيقنت بالهلاك، كانت عودة الحياة لى مسألة مباحنة، فعدت لها من غير ذاكرة، وجدت ذاكرتى ناصعة البياض مثل ذاكرة طفل وليد، تُصدِّق يا "حجيزى"! كنت أرى آخر احمرار فى الشفق الدّاهب، أعرف أن شمساً هناك، لكّتى نسيت، هل هذه شمس الغروب أم شمس الشُّروق، ولماً أظلمت عرفت أنها شمس الغروب، لكّتى كنت ناسياً الغروب فى أى اتّجاه، انا كنت أين؟! أنا ذاهب إلى أين؟! أين العَمّار؟! إلى أى جهة يجب أن أمضى؟! ما عرفت إلى أى جهة يجب أن أمضى، والكلب أخذ ينظر لى كأنه يقول ماذا ستفعل يا ابن آدم يا واعى، والثّاقفة ما تفعل شيئاً، غير أنها أخذت تجتر طعاماً فى سكينه، تمثّيت وقتها لو أن لى قلب ناقة، وقرّرت ان أبقى فى مكاني حتى أهتدى لعقلى.

قال "حجيزى": غريبة يا ابن الكلب، يضيع عقلك لمجرد عاصفة!؟

- ضاع من قدوم الموت يا "حجيزى"، ليس من العاصفة، الموت هو الذى يطيح بالعقل وبالإحساس أيضاً، "وردانى" بقى فى فراشه ثلاثة أشهر يئن من قسوة المرض، لكّته بقى ليلة كاملة هادئاً، ومات فى الفجر، رحمة ربنا، يسحب العقل والإحساس من الإنسان قبل أن يموت، أنا متُّ وعدت للحياة، فقدت الإحساس لما سلّمت أمرى لله، وما عاد لى عقلى بعد أن عدت للحياة، ثم بعد ذلك حصل معى ما يعصف بأكبر عقل، الليل جاء يا

”حجيزى“، وجاء معه قمر أحمر كبير من إحدى جوانب الصَّحراء، والكلب ربح بجوار الثَّاقة ملتصقا بها، وبهز ذيله، كان مضطربا، كأنه يستشعر خطرا، وكنت أنا أجلس ملتصقا بظهرى إلى الثَّاقة، وبفخذى إلى الكلب، أفكر فى حالى، أنا من أين جئت؟! وإلى أين كنت أذهب؟! حتى حدث يا ”حجيزى“ ما أذهل الجزء الحاضر من عقلى.

تململ ”حجيزى“، وكانت شمس الشُّروق قد بدأت تسطع فى فتحات قبة المسجد، وقال: الغنم تنتظرنى يا ”غنيمة“، تريد ترعى، وأنت حكايك طويلا، ونصفها كذب، تموت فى تأليف الحكايات.

صمت ”غنيمة“، وجرت الدُّموع مرة أخرى فى عينيه، وقال بصوته الذى يكره: تقول هذا وأنت الذى رأيت حالى لما عثر على العيال الرُّعاة؟! وماذا ستقول لما أقول لك باقى ما حدث، أنا ما سأقول لك شيئا آخر، اذهب لغنمك يا ولد عمى.

كان ”حجيزى“ قد همَّ بالوقوف للمغادرة، لكن صوت ”غنيمة“ النَّاح أجبره على الجلوس مرَّة أخرى، والالتكاء إلى العامود، وقال: قل يا ”غنيمة“.

تمتّع ”غنيمة“، وقال: لن أقول لك شيئا آخر.

”أنت يا ”حجيزى“ قلبك مثل صخرة، صاحبك يريد أن يحكى لك ليفضفض، وأنت تتهمه بأنه كذاب! لكن هو فعلا كذاب. من قال لك أنه كذاب؟! هو يا ”حجيزى“ يسافر ويتحرَّك، من يسافر ويتحرَّك يرى العجب، ومن يركد فى الصَّحراء لن يرى إلا الرِّمال فى مكانها، والصُّخور فى مكانها، والنَّخيل، والنَّاس، كل شيء فى مكانه، ليس هناك جديد، وطالما ليس هناك جديد،

فليس هناك غريب، ولا مدهش، والغريب المدهش لما نسمعه نكذب صاحبه!.

مال "حجيزى" إلى رأس "غنية" وقبّلها بقرف، وقال: أنا قبّلت رأسك، أكمل كلامك يا "غنية".

ابتسم "غنية"، وقال: ما تريد تعرف الذى حدث بينى وبين "جاله"؟

- من "جاله" هذا؟!

- "جاله" بنت يا "حجيزى"، امرأة فارسيّة كانت مع جيش فارسى كبير جاء زمان إلى صحارينا هذه، فطلع عليه "غرد" كبير، وردمه كاملا.

- جيش فارسى جاء زمان إلى بلادنا هذه؟!

- نعم يا "حجيزى".

- زمان متى؟!

- زمان جدا قبل العثمانيين، ويمكن بعدهم، لأ، قبلهم، سمعت مهندسا مصرى فى شركة المعادن يقول هذا الكلام لصديقه الإنجليزي عن الفرس، قال إنهم كانوا يعرفون قيمة مصر أيضا، فاحتلّوها أيام الفراعنة، والفراعنة يا "حجيزى" كانوا قبل العثمانيين.

قال "حجيزى" ساخرا: تفهم إنجليزى يا "غنية"؟!

قال "غنية": المهندس الانجليزى كان يفهم عربى، وكان المصرى يكلمه بالعربى.

ضرب "غنيمة" عينيه ناحية بُرّصين يتقافزان، يحاول أحدهما اللحاق بالآخر، عند شق كبير ظهر في ركن الحائط بجوار سقف المسجد، وهمس: مصر ما تخلص من ناس حتى يركبها ناس!

\*\*\*\*\*

نظر "سليم" حوله، صحراء ما لها نهاية، مرعى جديد ينتعد كثيرا عن "الوعرة"، حتى أنه ينتعد عن المكان الذي وجدوا فيه "غنيمة" ملقى بجوار عظام ناقته، كان المرعى بكرا، الرمال ملساء كالحرير، ليس عليها أية آثار لأقدام بشر، فقط آثار متناثرة لِحَيَّة "الدّان" التي تنساب تحت الرمال، ولأقدام أرانب جبلية، وثعالب، وضيان، وآلاف من أشجار "العبل" الصّغيرة، وأشجار شوكية أخرى، تحب الأغنام أكلها.

صُحى الصّحراء صيفا يشبه الظّهيرة، قاس وملهب، لكن الغم تكون جائعة، فتنهمك في أكل الأشجار غير محتمة بالقيظ، ويتوزّع الرعاة الصغار يجلسون في ظلال بعض هذه الأشجار، أو في ظل صخرة ناتئة، ينهمكون في مشاغلهم الطفولية، لكن عيونهم تبقى منتبهة للقطعان.

"سكيرة" تجلس بين صويجاتها، تضحك معهن، لسانها يتكلم معهن، بينما عينها تخطفان نظرات متتالية ناحية "سليم" الذي وقف ينظر ناحية صخرة صغيرة نبتت بطول فتى يافع مثله، كانت الصخرة الوحيدة الثابتة في هذه الصّحارى، بينما في الأفق العازل بين هذا المرعى وبين "الوعرة" وقفت غابة الصّخور العملاقة غريبة الأشكال.



وعندما علا صوت الطَّرق على الحديد، جرى "سلمان" ناحية "سليم"، كان "سليم" يضرب بجأكوشه الصَّغير على الأزميل المغروس سنُّه في قَمَّة الصَّخرة، وهتف "سلمان": تنحت كل هذه الصَّخرة يا "سليم"؟!

وبدون أن ينظر إلى أخيه ابتسم، وقال: صخرة جميلة يا "سلمان"، ملفوفة وطَيِّعة.

- ستنحتها على أى شكل؟

- تمثال مثل تماثيل الفراعنة.

- المساخيط؟!

- لأ.. المساخيط هم الموتى، أنا سأنحت تمثالا لواحدة حيَّة.

- من؟!

مسح "سليم" عرقا نرَّ من مسام جبهته، وقال: ستعرفها بعد أن انتهى من التَّحت.

عاد "سلمان" إلى رفاقه وهو يجر قدمه اليمنى، يسحبها في الرَّمال السَّفيضة، مستمتعا بنعومتها، فرأى "سكيرة" تشير إليه، ذهب إليها، وضحكت، وهمست: ماذا يصنع "سليم".

- ينحت تمثالا لواحدة حيَّة.

همست: لمن؟

قال وهو يمد أطراف أصابعه الصَّغيرة، ويداعب قرطها الذَّهبي: لا أعرف.

لم تتكرر محاولة "سليم" التّوم مع "سكيرة"، بعد محاولته الأولى الفاشلة، لمّا كانا لم يزلا صغارا، بل إن هذه المحاولة نفسها أسهمت في نماء حالة من الخجل بينهما، كانت نتيجتها ابتعاد كل منهما عن الآخر ابتعادا إراديا، ما عادا يلتقيان أمام البيت، تحت شجرة "الجميز"، ولا عند بئر "الرّاهب" لمّا يصبح كل منهما أمّه في العصارى لجلب الماء، وحتى في المراعى، كانت "سكيرة" تلزم صحبة من البنات، بعيدا عند قطعانهم، بينما هو يبحث في الرّمال عن الصّخور الصّغيرة الملوّنة، صارخا بين كل فترة وأخرى في أخويه، للسيطرة على إحدى الغنم، تريد الانفصال عن القطيع، تغريها أعشاب بعيدة، لكن بقي بينهما خطف التّظّرات المتبادل.

لو أراد يمكنه في أى وقت الآن محادثتها، سنون مضت على الحادث الخجل، لكنّه يمتنع، ما سبب الامتناع؟! لا يعرف، لا يشعر بأن الخجل هو ما يمنعه، ولكن حالة من الرّهبة، ليست تلك الرّهبة التي تنتابه عند غضبة أبيه "بكير"، أو جدّه "حجيزى"، وإنّها رهبة من نوع آخر، رهبة الإقدام على كسر المعتاد، لكن في النّهاية، صار "سليم" إذا انفرد بنفسه، وأمن من اختراق أحد ما لعزلته، يبكى، يلوح له وجه "سكيرة" الشبيه بوجه قطة، فيذرف الدموع، فسأل نفسه عمّا يعاينه، فقالت له "العشق"، فقال لنفسه: أنا عاشق "سكيرة".

ولمّا عشق "سكيرة"، انطفأت شهوته، وما عاد يبحث عن خلوة اللذة، لكن في خلوة الأحلام صار يقبلها كثيرا، يلمس خديها بشفتيه، أو يضعها بين شفتيه، فقط.

يضرب "سليم" بعنفوان، والأزميل يقطع من الصخرة قطعاً كبيرة، إنه في مرحلة التشكيل، لتأخذ الصخرة هيئة إنسان أولاً، ثم ينحتها لتصوّر بنتا يعشقها، الغم ربضت في مساقط الظل، والرعاة يغفون في تيقظ، والطرقات لا تخفت، وعينا "سكيرة" مصوّبتان نحو جسد "سليم" العفى وقد انكفأ على الصخرة، يكاد يحتضنها.

\*\*\*\*\*

نظرت "سريرة" إلى "حجيزي" وهو يغسل النّاقة، سيرحل، رحيله هذه المرّة لن تتبعه عودة، كل ما بدر منه هذا الصّباح يؤكّد أن رؤيته التي باغته في منامه صادقة، وتفسيرها واقع لا محالة، قلبها يرتعش في ضيق الصّدر، يفرفط بين ضلوع تنكمش لتقبض عليه.

"لماذا تحزين عليه يا سريرة؟! ما الذي قدّمه لك طوال هذا العمر المديد الذي عشته معه؟! خمسون سنة زواج."

هشّت ذبابة كبيرة تطوّف حول وجهها، كانت عصاها مركونة بجوارها إلى حافة المصطبة الصّخرية، وكان الجو قائظاً، مثقلاً بلهيب "مسرى"، وشجرة "الجميز" راكدة، وشواشي رءوس التّخيل تبدو في البعيد كخطوط كثيفة مرسومة على زرقة السّماء، لم تكن هناك أيّة نسيات تعمل على تلطيف الحرارة.

"خمسون سنة قضيتها معه، لم تسمعي منه كلمة ثناء، أى كلمة ثناء من أجل أى شيء، لا أثنى على طبخة أكلها من عمل يديك، ولا على جلباب جميل ارتديته يوماً، ولا حتى على خدمة خدمتها للغم."

رقت نظرتها إلى "حجيزى" رغم ما يدور في نفسها، كأنها تلوم أفكارها هذه، عاشت طول عمرها تكره المرأة التي تشكو تصرفات زوجها لأحد، المرأة بنت الناس تقبل مر زوجها كما تقبل حلوه.

"أنا لا أشكو حجيزى لأحد، أنا أحدث نفسي!".

"الخطأ بدايته حديث نفس يا سريرة، ليكن ما بداخلك مدفونا أبدا في أغواره العميقة، لأنه لو خرج إلى النفس، صار مثل عفريت القمقم، مع أقل لمسة للقمقم ينطلق العفريت إلى الفضاء المعلن، وتصير فضائح".

رغم أن "حجيزى" انهمك في غسل الثاغة مثل شاب مقبل على الحياة، وهو يعلم أنه في سبيله إلى رحلة لن يعود منها حيًا، إلا أن هذا لم يدهش "سريرة"، إنها اعتادت غرائبيته، تحاول دائما ان تتذكّر فعلا واحدا طبيعيا له طوال معاشرتها له فلا تفلح، لن تنسى أبدا عينيه المرتعبتين وهو يتعد عن عريها في ليلة دخلتها، لم تسأله عن هذا أبدا، هل تسأله الآن؟ أم تترك للموت هذا السر، يميته كما سميت صاحبه؟

لكنها في المقابل لن تنسى هذه الصمة الهصور التي كاد فيها أن يخلع ضلوعها، وهو يقترب من لحظة الانتشاء، يخور مثل الثور، وتشخر مثل بقرة تدبح، تغرس أطراف أصابعها في ظهره، وينكت أظافره بين لوحى كتفيها، بينما يطبق بأسنانه على عظمة ترقوتها.

تبتسم بسمة حزينة.

"مرّة من ثلاث مرات طوال خمسين سنة".

"كانت أول مرّة بعد عشر سنين من ليلة الحيبة، ليلة الدخلة".

”من أجل هذه الثَّلاث مرَّات على فراشٍ مهجورٍ طوال خمسين سنة ستحزنين عليه؟!“.

لماذا تبدو عيناه صافيتين؟! لماذا لا يضرب فيها خوف الموت، يغسل النَّاقَةَ بهيئةً أكثر من كل مرَّة، ومُجِب، كأنه يريد أن يعطى النَّاقَةَ متعة الاستحمام، وهي مبتهجة، تدير رأسها وتطلق رغاء فرحاً، كانت ”سريرة“ هكذا في هذه الظَّهيرة البعيدة، رأسها يسبح في كومة شعرها المنثورة على الوسادة، تديره يميناً وشمالاً، بينما يد ”حجيزى“ تتخبَّط في أركان جسدها، لم يكن خبيراً بأسرار أجساد الحرِّيم، مفاتيح الرِّغبة، وبوَّابات الشَّهوة، وكانت جائعة، أى لمسة لجسدها كانت توجِّج فيها النَّار المكبوتة.

”ليس من أجل هذه الثَّلاث مرَّات فقط سأحزن عليه، ولكن من أجل كلمته التى قالها لى منذ قليل، كنتِ أجمل بنت فى بنات أياّمك يا سريرة، نعم، من أجل هذه الكلمة أغفر له قحط كل هذه التَّسنين.“

ترى ”سريرة“ ”حجيزى“ جيِّداً من خلف سحابة عينها العجوزتين، وتراه يتمتع بقوة تجعل عضلاته ما زالت تتراقص، ووجهه حسن رغم عشرات التَّجاعيد التى تنهكه، ولحيته المهذبَّة بشكل ربَّانى تضىفى عليه رجولة ساحرة.

انحدرت من عينها دمعتان، مسحتهما، ثم قبضت على عصاها، وأسندت ذقنها إلى كفيِّها المرتاحين إلى انعقافة العصا، وأخذت تملأ عينها من ”حجيزى“، وكان هو يغيب وينظر إليها بالتفاتة مخطوفة.

السَّماء لا تكف عن فتح أحضانها لهجرة الطُّيور، طيور مُشكَّلة وملوَّنة، أسراب من غير حصر ولا عد، بعيدة، فى قلب سماء شاهقة، ترحل من غير ضجيج.

وقفت، تريد أن تنسحب للداخل، دفقة من بكاء لا تخضع لسيطرة "سريرة" تحاول الانفجار، وهي تتوَكَّأ لتبدأ الحركة ناحية الباب الكبير، لمحت بسمة في وجه "حجيزى"، كانت الثَّاقَة تدور برأسها، وتقرب مشفري فمها ناحية فم "حجيزى"، كأنها تريد أن تقبله، كان "حجيزى" وهو يبتسم جميلا جدا، هي بسمته التي ارتسمت على وجهه يوم أن استطاع أن ينهى أول علاقة على السرير بنجاح، هذه العلاقة التي تأخرت عن أول ليلة لدخولها عشر سنين!

ما الذى انطلق فجأة يأكل جسد "سريرة"؟! ما الذى ضرَّج خديها، الغائرين بين فكَّيها الخاليين من الأسنان، بلون تقَّاح طازج؟! ما الذى جعل عينها تصفوان من غبشتها لتسترجعا بعضا من ألقها القديم؟! همست لنفسها وهي تبتسم: "سريرة!".

"زوجى، حجيزى زوجى، ما فى ما يعيبك يا سريرة".

"لكن يا سريرة آخر مرَّة كانت من عشرين سنة، وقت صحَّته ما كان يقدر، وقت روقان باله ما كان يقدر، الموت كان دائما لابدا فى محَّه، تخنيط الجثث، قتل حبه للجسد، وقت أن كنت أنت يا سريرة بنت نغَّاجة ما كان يقدر، مجنونة لو ظننت أنه يمكن أن يقدر الآن".

نظرت "سريرة" إلى "حجيزى"، كان يلتفت إليها التفاتة خاطفة، عندما رآها تنظر إليه وتبتسم، بل وتناديه بصوت منخفض مكسور: يا "حجيزى".

"عوْدنى حجيزى على العجائب، ما لم يقدر على عمله وهو مقدم على الحياة، ربما يستطيع أن يعمله وهو مقدم على الموت".

- "حجيزى".

ترك "حجيزى" غسيل التّاقة، ولمّا تأكّد ممّا فى عينها اندهش.

\*\*\*\*\*

رغم أن "صالح" ليس أكثر من طفل صغير، مات قبل أن يكمل التّصف الأوّل من عامه الثّانى، إلا أن رجال "الوعرة" خرجوا كلّهم فى جنازته. فى ظروف الموت العادية، لا يتبع جنازة الأطفال أكثر من عشرة رجال، لكن موت "صالح" غرقا فى بئر "الرّاهب"، وإخراجه منها بصعوبة بالغة، جعل لموته وقعا أقسى حزنا، وأعتى مهابة، أخرج كل الرّجال لتشييع جنازته.

تحركّت الجنازة بعد صلاة الفجر، والثور بالكاد ينبثق من آفاق الشّرق، تتحركّ الجموع فى صمت مهيب، لا صوت إلا صوت حفيف أطراف الجلابيب عند اصطدامها بالتّيقان المهرولة، يتحرّكون إلى الشّرق مسافة ساعة، قبل أن ينحرفوا إلى الجنوب، ليخترقوا عمق الصّحراء، إلى حيث بلاد الموتى، القبور، الجبّانة.

كان "سعدانى" يحمل ابنه مكفّنا بالبياض على ذراعيه المنصوبين أمامه، لفافة صغيرة تتأرجح خفيفا، تماما كما تتأرجح الماء الحارة فى عينيه.

أكثر من مرّة كان "سعدانى" ينسى، ويقدّم على رفع جثّة ولده، ليضعه على كتفيه، كما كان يفعل معه وهو حى، كان المحيطون به يسارعون ليأخذوا منه الجثّة الصّغيرة، بقصد إراحته، لكنّه كان يرفض بإصرار، ويشهق ويبكى.

- وحدّ الله يا "سعدانى"، ما هكذا يكون فعل الرّجال يا شيخ!

”حجيزى“ فى آخر الجنازة، بجواره ”سعدون“، يبذلان الجهد فى المشى السريع، لكنهما كانا يتأخران رغم أنفيهما، والجنازة تبتعد.

همس ”حجيزى“: الخطاف مزق عينه اليسرى، وخرج سنه من أعلى جمجمته، ورقبته التوت، وانكسرت وهم يجذبونه من البئر.

نظر ”سعدون“ إلى الأمام، حيث الجنازة تبتعد ببطء، بينما سحابة من الرمل السّيفيف، تنساب إلى أعلى، ولم يفتح فيه.

- العين أعلى ما فى الإنسان يا ”سعدون“، أعلى من العقل، عاقل أعمى يتعب، ومجنون مبصر لا يشقى.

نسمة تحلق حول ”حجيزى“، فيشم رائحة البحر، يأخذ شهيقاً يملأ صدره، ويقول ملتفتاً بوجهه ناحية ”سعدون“: تشم رائحة البحر؟!

احمرار الشمس الصّاعدة يضرب وجه ”سعدون“ وعمامته الملقاة على رأسه كيفما اتفق، و”سعدون“ إحمّر وجهه الأبيض واربّد، يمشى وهو يلهث، وكرشه يرتج، هتف ”حجيزى“: ما لك يا ”سعدون“؟!

- حزين من أجل ”سعدانى“، مسكين، يحمل على ذراعيه جثة ولده الوحيد، تخيلت نفسى فى مكانه، ما أستطيع أحمل ”جميل“ على ذراعى وهو...

- أنت رجل سوء وفقرى يا ”سعدون“! تفاعل بالخير يا أخى.

هزّ ”سعدون“ رأسه كأنه يستفيق من كابوس، ورسم على وجهه بسمة صفراء، وقال: إه! مالك يا ”حجيزى“؟! أنا يا أخى حزين على ”سعدانى“.



الجنابة تتعد أكثر وأكثر للأمام، وكاد ”حجيزى“ و”سعدون“ يبدوان كنتطتين وحيدتين فى الرمال التى بدت فى أفقها الشرقى الجنوبى أربع صخور ضخام، بدت كسحابات حمراء تلبّطت بشبورة من عتمة تتمسك بالبقاء رغم شروق الشمس.

قال ”حجيزى“: رأيت يا ”سعدون“ عين ”صالح“ ولد ”سعدانى“ لما أخرجوه من البئر؟! من البئر؟!

تضايق ”سعدون“، لكنّه قال: لم أرها. الحمد لله أنى لم أرها. - أجمل ما فى الإنسان العين، وما فى الحيوان أيضا، لما كنت أحنّط الحيوانات مع ”شديد“، كنت أقرف من كل أحشائها إلا العيون، تشعر بها فى يدك كأنها جوهرة، انا ما رأيت الجوهرة، لكن ”غنيمة“ يقول إنها مدوّرة وتلمع، رآها فى محلات ”أسيوط“. شىء آخر يعجبنى فى العيون، الحياة، حتى بعد أن نقلعها من مجرّها لا تموت، تبدو دائما حيّة وتنظر لك. كانت عينا الفارس الذى حنّطه ”شديد“ مليئة بالحياة لدرجة مرعبة.

تقترب الصّخرات الأربعة، شاهقة، ضاربة فى السّماء، ومفرعة، كأنهن أربع موميאות متقابلة، يجرسن فيما بينهن مربعا شاسعا رُصّت فيه القبور. هناك، إذا عصفت الرّيح، صرخت الموميאות.

\*\*\*\*\*

ركب ”حجيزى“ ناقته، وقبل أن تهبّ واقفة نظر إلى بؤابة بيته، كانت من خشب عتيق من شجر ”السرو“، مطلى بدهان زيتى مثل لون الزرع، بهت اللون فى بعض أجزائه، وانمحي تماما من أجزاء أخرى، وكانت ”سريرة“ تقف

في وسط فراغ البوابة، تنظر إليه بينما تهش ذباب الصيف المتكاثر، تبدو  
"ثرياً" واقفة خلفها، تفتح عينين حزينتين، وعندما نحس الناقة، هبت  
للقوف، وقال: عندما نعود يا "بكير" لابد من أن تعيد طلاء البوابة.

كان "بكير" راكبا ناقته هو الآخر، ويقف منتظرا تحرك ناقة "حجيزي"، قال  
"بكير": إن شاء الله نعود بالسلامة ونطلى البوابة.

ابتسمت "ثرياً" وهي تغمز ضلوع "سريرة" بكوعها غمزة رقيقة: يقول نعود يا  
"سريرة".

همست "سريرة": إن شاء الله يعود.

تحركت الناقتان إلى الشرق، وبعد وقت قليل كانت "الوعرة" قد انحدرت  
للخلف، أوقف "حجيزي" ناقته، ثم استدار بها مواجهما الواحة الصغيرة.

البيوت تتلاصق في مواجهة وحشة الصحراء، بينما تحيط بغيرها وشالها  
بساتين واسعة من زروع وأشجار زيتون، وتخرق السماء هامات نخيل من  
غير عدد، ونخلتا بئر "الزاهب" في الشرق جنوب "الوعرة"، ثم إلى الجنوب  
غربا قليلا بدت أشجار البرتقال وهي تخبي بئر "السحنة"، وكان حمام يرفرف  
فوق البيوت والحقول في أسراب متفرقة.

وأخذ "حجيزي" ينظر إلى كل شيء نظرة عميقة، وضربه هاجس مفاجئ،  
"القعبة" التي يشرب فيها كل صباح اللبن الرائب، كيف حافظت عليها  
"سريرة" كل هذه السنين الطويلة دون أن تنكسر؟!

هاجمته حالة اشتياق شديدة لرؤية "سريرة"، وفكر في أنها مازالت قريبة،  
مازالت البيوت في مرمى البصر، ليعد، ولينظر في وجه "سريرة" لآخر مرة،

هذا شيء متاح الآن، لكنّه سيصبح مستحيلا بعد يومين ونصف، بعد أن يموت.

استدار بناقته، فرأى نظرات الدهشة في عيني "بكير" الجالس على سنام ناقته، فدار بناقته مرّة أخرى واستلم المدق التّازل إلى "موط" البعيدة، ومضت الناقتان بتؤدة على طريق السّفر، بينما دمعتان تضيان منحدرتين ببطء من عيني "حجيزي"، تنزلقان لتدوبا في تجاعيد وجهه، وهمس: لماذا يدفن التّاس أعزّ التّاس؟!

ورفع صوته، يريد أن يُسمع "بكير" الماضي خلفه: لماذا يدفن التّاس أعزّ التّاس يا "بكير"؟!

واصل "بكير" صمته، قبل أن يقول: لأنّهم يتعفّنون بعد موتهم يا أبي، لو ما دفنّاهم تأكلهم الكلاب يا "حجيزي".  
- ولو لم يتعفّنوا؟!

كان هذا السّؤال مباغتاً، فصمت "بكير"، بينما أصدرت ناقته رغاء قصيرا خافتا، كأنّها تنن.

## جَبَلُ الرَّهْبَانِ

مسيرة يومين كاملين في رمال لا يتغيّر لونها إلا مع تغيّر مواضع الشّمس، الشّروق والضّحى، والظّهيرة، والعصاري، والغروب، أصفر حائل إلى البياض، أو أصفر ذهبي، أو أصفر متوهّج، أو أصفر يحول إلى الدّكنة، لا مدق ثابت وحيد تدب عليه خفاف الثّوق، وإنما مدقّات متعدّدة تتقارب أحيانا، وتتقاطع، لتفترق افتراقا نهائيا، فأماكن الرّهبان في الصّحراء متغيّرة، ونادرا ما تتّجه القوافل إلى رهبان قاطعوا الحياة بصخبها، وإن اتّجهت إليهم فإنها تكون قوافل صغيرة جدا، ناقتان، أو ثلاث على الأكثر، تحمل خبزا جافا، ولحوما مجفّفة، وبعض عصائر، وكثير من الثّمر.

ربما طوال نهار كامل لا تقابلهم سوى شجرة يتيمة، وبعض من أرانب الصّحراء التي تفرع لمراهم فتختفي في الرّمال مثل أشباح، النّاقة الأمامية يعتلى "يوانّس" الراهب سمنها، يمشى بجذائها "عبدالله" صاحب النّاقتين، بينما اعتلى "حجيزي" سنام النّاقة الثّانية، التي تتبع بهدوء وصبر رفيقتها الأمامية. مضى يومان ولم يأكلا طعاما سوى مرّة واحدة.

قبل مغيب شمس الأمس، أوقف "عبدالله" النّاقتين ليستريحا، ومدّ الرّاهب يده إلى خُرج صغير تعلّق بسنم أحدهما، أخرج خبزا جافا، وقطعة من جبن قديم قاسية مثل حجر، وأشار لهما ليأكلا، ثم مضى وجلس على مقربة منهما،

وبينما كان "حجيزى" ينظر ناحية الرَّاهب باندھاش، همس "عبد الله" وهو يدس لقمه في فمه: كل يا شيخ "حجيزى"، الرَّهبان لا يأكلون.

- يا مقدّس، تعال كُلّ معنا.

نظر "يوائس" الرَّاهب إلى "حجيزى" وقال: آكل عندما أجوع.

- لنا يوم كامل ما أكلنا طعاما!

ابتسم الرَّاهب ابتسامه هادئة، وقال: آكل عندما أجوع.

ضحك "عبد الله"، وقال: قلت لك يا شيخ "حجيزى" الرَّهبان لا يأكلون كما نأكل.

مدّ "حجيزى" يده، وكسر خبزة، مسح بها قطعة الجبن المتحجّرة، وهمس في أذن "عبدالله": وهل هذا طعام يؤكل؟ نفس الرَّاهب مسدودة.

وضحكا، وصاح "حجيزى" موجّها كلامه للرَّاهب "يوائس": متى تجوع يا مقدّس؟

نظر الرَّاهب إليهما طويلا قبل أن يقول: هل يجوع من أكل على مائدة الرّب؟!

قال "حجيزى" ساخرا: ربما تقصد أنه لا يجوع من أكل بالأمس خبزا وجبنا في ضيافة "حجيزى"!

الشتاء رحيم، شمسه دافئة، ونهاره قصير، ولا يعيق الارتحال، وعندما أوشكت شمس اليوم الثانى على المغيب، أوقف "عبد الله" الثّاقبتين، وقدم لهما الرَّاهب خبزه الجاف وجبته المتحجّر، أكلا، ولم يأكل الرَّاهب.

في منتصف الليل، تماما كالليلة السابقة، توقّف الرّكب، تراح النّافّتان، وينامون بضع ساعات حتى شروق الشّمس، في منتصف الليل ألق سكون الصّحارى، أروع الصّحارى هي تلك البعيدة عن فعل الإنسان، التي مازالت في بكرة خلقها الأوّل، قبة سماوية حالكة السّواد، تبرق فيها آلاف النّجوم، تنحنى أطرافها بحنان لتحتضن الآفاق، ما يؤذى الابتهاج بهذه الرّوعة، هو زمهير البرد، برد الصّحراء قاتل.

النّار تنبعث متألّقة من كومة حطب جمعه "عبدالله" من الأغصان الجاقّة لتلك الأشجار الصّغيرة المتناثرة على مسافات بعيدة في هذه الصّحراء، وجوههم الثلاثة تتوهّج بالاحمرار، والنّافّتان تبدوان ككومتين من رمال تهتران مع اهتزاز ألسنة اللهب، بينما حشرات صغيرة قليلة بدأت تطوّف حول النّور.

كان "عبد الله" في أربعينيات عمره، أسمر، نحيل، وجهه ممصّوص، وعيناه تتقدان بذكاء البدو وحذرهم، بعينيه هاتين نظر إلى "حجيزى" وقال: ما الذى يجعلك تأتى مع الرّاهب يا شيخ "حجيزى"؟!

صمت "حجيزى"، لكن الرّاهب "يوانّس" نظر في عيني "عبدالله" وقال: "حجيزى" يبحث عن خلاص روحه.

همس "حجيزى" وهو يقبّل النّار بجزء من غصن محترق: لا يا ابونا "يوانّس"، أنت قلت كل مسيحي يقوم من موته، اتّبعتك لأنى أريد أن أقوم من موتى، لا أريد أن أدفن.

ابتسم الرَّاهب ”يوانس“، فبدت أسنانه ناصعة البياض، وفي كامل هيأتها، مثل أسنان مراهق، لكن ”عبدالله“ قال: ففهمنى يا ابونا، ما معنى أن المسيحى يقوم من موته؟!

كان للرَّاهب ”يوانس“ صوت عميق، وقعه يريح القلب، فقال: معناه أنه يحيا ويترك قبره.

ضحك ”عبد الله“، وقال: النَّصارى لهم مدافن كبيرة فى ”أسيوط“، يدفنون فيها موتاهم، ولم نسمع أن واحدا منهم خرج من قبره بعد دفنه وذهب إلى بيته!

الثَّار تدفئ الأيادى والوجوه والصُّدور، لكن يظل البرد ينكت خناجره فى ظهورهم، ويكاد يمزق أصابع أقدامهم، وليل الشتاء طويل، والثَّاقان تجترَّان طعاما، وقد أغلقتا أعينها.

- المسيحى لا يترك قبره ليعود مرة أخرى إلى قبور الدُّنيا، التى تسمونها البيوت، إنه يصعد فورا إلى الملكوت، حيث الرَّاحة الأبدية، والنَّظر فى وجه الرَّب.

نظر ”حجيزى“ إلى الرَّاهب ”يوانس“ نظرة من يشعر أنه يكاد يقع فى خديعة ما، وقال: لكن أنا أريد أن أقوم وأعود إلى بيتى.

كان صوت ”يوانس“ الرَّاهب عميقا جدا، وكانت عيناه تحلِّقان نحو نجمة كبيرة لامعة، عندما قال: الذى قام بجسده بعد الموت هو ربُّنا ”يسوع“ المسيح، اتبعه بقلب مملوء به يعلمك كيف قام من بين الأموات، لكن حتى المسيح

نفسه لما قام لم يذهب إلى بيته الدنيوي، وإنما ذهب إلى بيته السماوي، وجلس على يمين أبيه.

وقال: اتبعني يا "حجيزي" أعلمك الطريق إلى ربنا "يسوع" المسيح....

كان صوت "سعدون" وهو يغالب ضحكه يتقلقل في تلافيف عقله: قسسه النَّصاري مرفين يا "حجيزي"، يموتون في الحراء، حتى أنهم عبدوا إنسانا يخرأ، رهم يخرأ يا "حجيزي".

وغرق في الضحك، ثم قال: أولاد الكلب لهم كنائس كبيرة في "أسيوط"، ناسهم كثيرون في هذه البلاد.

قال "حجيزي": لكن "يوحنا" الرَّاهب استطاع بكلمتين عمل ما لم تستطع صلواتنا كلنا أن نعمله، أوقف جفاف البئر من الماء!

قال "سعدون": يا ضعيف الإيمان، هذا من أعمال الشيطان، القسسه أحفاد الفراعنة، والفراعنة سحرة، والسحرة إخوة الشياطين...

وخاب صوت "سعدون"، وتجلَّى صوت "يوانس" الرَّاهب جهوريا عميقا: فقط لتصبر، وسيفتح الرب عينيك كما فتحها لـ"بولس" الرَّسول، ولمئات غيره.

- بولس الرَّسول! من بولس الرَّسول!؟!

- ستعرف كل شيء في حينه، الآن ناما قليلا لتستريحًا.



وبينما كان "حجيزى" و"عبدالله" يتمددان على فرشين من صوف الغنم، ويفردان على جسديهما دثارين ثقيلين من وبر الماعز، كان "يوانس" الراهب يتكئ على عصاه مبتعدا فى الظلام، وصوته قد تذلل وخشع: أرفع عينى إلى الجبال، من حيث يأتى عونى، معونتى من عند الرب، صانع السموات والأرض.

\*\*\*\*\*

ها هى غزلان تشرئب برءوسها، تنظر إلى القافلة، وتقفز قفزات سريعة، وتختفى خلف الكتبان الصغيرة، لابد أن القافلة قد صارت تدب فى أماكن نائية جدا، حيث تظهر حيوانات لم ترض بمعاشرة الإنسان، فنأت عنه، "عبدالله" يركب التاقاة الأمامية، و"حجيزى" يركب التاقاة الثانية، بينما الراهب "يوانس" يدب على قدميه وعكازه، متأخرا قليلا عن قافلة تتعمد الآن السير ببطء.

- أبا "هند"، توقّف، أريد أن أشرب.

كان صوت "يوانس" الراهب متحشرجا، فأوقف "عبدالله" ناقته، فتوقفت الثانية تلقائيا، وعندما همّ "عبدالله" بإناخة التاقاة، قال "يوانس" بحدة: لا، أنا فقط أريد أن أشرب.

قال "عبد الله": تتوقّف يا مقدّس، ربما تحتاج إلى الرّاحة قليلا.

- لا، أنا أحتاج فقط إلى جرعة ماء.

سحب "عبدالله" قرية صغيرة معمولة من جلد مدبوغ لجدى صغير، وأعطائها لـ "يوانس" الراهب، الذى أخذها ووضعها على فمه، ورغم أنه كان متلهّفا

إليها، إلا أنه لم يشرب منها سوى جرعة واحدة، وأعادها إلى “عبدالله” الذى ألح عليه فى أن يشرب المزيد، إلا أنه رفض بإصرار.  
- لا يغلبنى الجسد الفانى.

وكان صوت “حجيزى” ساخرا، ووجهه تتراقص فى تجاعيده ابتسامه صغيرة، عندما قال: ألم يكن على مائدة الرّب ماء يا مقدّس “يوانّس”؟! قال “يوانّس” وقد عادت إلى صوته تلك الثّبرة العميقة: وهل كان على مائدة الرّب طعام يا إنسان؟!

ما قاله الرّاهب كان صادما لـ “حجيزى”، وبدا له أن كلام “يوانّس” يناقض بعضه بعضا، فلقد قال بالأمس إنه قد أكل من مائدة الرّب! لكن الثّقة التى كان الرّاهب يتكلّم بها، جعلته يشعر أنه يفهم تماما ما يقول، ولم يجب “حجيزى” أن يبدو غيبا فسكت، لكنّه كان قد بدأ يفهم أن الرّاهب “يوانّس” يصارع جسده.

عندما صعدت الثّاقنات أحد الكشبان العالية ظهرت فجأة شجرة ضخمة تتلوّى أغصانها العارية من أية أوراق، مثل أفاعٍ متشابكة فى صراع مسموم، فقال الرّاهب: بضع ساعات ونصل، قبل المغيب سنصل.

وعندما كان الرّكب يمضى بجوار الشّجرة الأفعونية هذه، زلزلت رعدة مفاجئة قلب “حجيزى”، صاحبت إحساسا طاغيا داهمه بأن حياته التى يعيشها تشبه تماما هذه الشّجرة الجرداء الكئيبة، بل هو نفسه ليس أكثر من شجرة مثل هذه، شجرة غريبة ليست مثل أى شجرة، بعيدة عن الحياة، رغم أنها تنبت فيها.

وعندما انحدرت الثّاقنات، واختفت الشّجرة، كان "حجيزى" ما زال يعاني من وجيف قلبه، كان قد وصل إلى قنّاعة محبّطة، مفادها أنه قد ضيّع حياته فى محاترات، وهو يظن أنه يعيشها كما ينبغي.

"ما الذى أتى بى خلف هذا الرّاهب؟! أنا أبث عن صحّة جسدى بعد موته، وهو يبحث عن هلاك جسده المملوء بالحياة!".

وفى هذه اللحظة جاء صوت الرّاهب من خلف القافلة الصّغيرة، التى تمشى الهوينى، ضعيفا كأنه ينغرس فى الرّمال مثل قدميه وطرف عصاه: الرّب عمل لك حُطة يا "حجيزى"، وسترتاح روحك المتعبة.

"ولماذا روحك متعبة يا حجيزى؟"

"لأنك شغلتها بألد أعدائها يا حجيزى، الموت"

"وبعد يا حجيزى!؟".

"لا شيء يا حجيزى، لا أحد يريد أن يعيش تعيسا، ستتعس أكثر لو عشت الحياة كما يعيشها سعدون، أيام تقتنص منها أوقات سعادة ثم تموت لتحوّل إلى تراب فى قبر!".

"إذن أنت صح يا حجيزى".

"نعم، أنا صح يا حجيزى".

أقنع "حجيزى" نفسه بجدوى ما يفعل، مثلما يفعل دائما طوال رحلته الطّويلة فى الحياة، كلّما كاشفته نفسه بما فى داخلها من قلق، فذهب وجيف قلبه، وتأكّد من أن له الحق فى أن يعطى جسده فرصة فى الهرب من الدّفن، وأن مصاحبة الرّاهب "يوانّس" ضرورة فعلا.

وتكشفت له رمال واسعة ذهبية امتدت تحت شمس العصارى، وهناك في الأفق بدا وكأن جبلا عاليا يلوح، لكن شيئا ملقى على الرمال كان يقترب، ليتضح بعد قليل أنه هيكل عظمى لأحد الجمال، كان "حجيزى" الآن هو الذى يمشى، بينما الرَّاهب قد جلس على سنام الثَّاقة.

هتف "عبد الله": هذا جمل شارد، ربما افترسته ذئاب الجبل، وربما قتله الجوع والعطش، فهشت السُّور والصِّباع لحمه.

قال "حجيزى": لكننا لم نر طوال سفرنا ذئابا أو ضباعا أو نسورا.

ضحك "عبد الله": نحن لم نرها، لكن هى بالتأكيد رأتنا، إنها أسياد هذه الصَّحراء.

قال "يوانس" الرَّاهب، وصوته العميق لم يتأثر باهتزازت جسده المتشثت بسنام الثَّاقة المنطلقة برتابة: عندما ترى يا "حجيزى" الذئب ينام وقد وضع رأسه على فخذ الرَّاهب "مرقس" المسكين، ستعلم من هو السيِّد الحقيقى.

"ما الذى أتى بهذا الجمل إلى هذه الفيافي القاحلة البعيدة ليلقى مصرعه هنا؟!".

ارتعد جلد "حجيزى".

\*\*\*\*\*

وصلت القافلة الصَّغيرة إلى سفح الجبل الذى بدا منذ ساعات فى الأفق، لم يكن جبلا شاهقا، كما أنه ليس بالمنخفض، وقد تناثرت عليه فوّهات كهوف ومغارات بالقرب من سفحه، كما أن بعضا من أشجار مورقة كانت تمتد على طول هذا السفح، فأعطت راحة للنَّظر والرُّوح.

ما كان غريبا أن عددا من النَّاس كانوا يقفون وعلى وجوههم فرحة هادئة، كانت هيئة وقوفهم تشي بأنهم رهبان أيضا، وأنهم ينتظرون القافلة.

كانوا عشرة، وربما يزيدون، طالت وتشعّثت شعور رءوسهم ولحاهم، أجسادهم نحيفة كهياكل عظيمة، وجلود وجوههم مشدودة مثل وجوه الموميאות، اثنان منهم بلغا من العمر عتيا، ربما تعدى عمرهما المائة عام، أما الآخرون فهم بين الأربعين والستين.

توقّفت القافلة، وأناخ ”عبد الله“ التّاقنين، وبدأ يفك الحبال التي ربطت بها بعض الأجوالة واللفائف.

هؤلاء الرّهبان لم ينطقوا بمجرد حرف واحد، لكنّهم كانوا يتابعون ما يفعله ”عبدالله“ مثل دُمى مبتسمة، نظر ”يوانس“ الرّاهب ناحيتهم، وقال: أتينا بدشيشة البهائم.

”هل يربون البهائم؟! لكن أين دشيشة البهائم هذه؟! ما معنا على التّاقنين غير خبز وعصائر وجبن وتمور؟!“ كان ”حجيزى“ يهمس لنفسه.

قال ”يوانس“ الرّاهب بصوت جلجلت فيه بجة الفوز: وأتيت لكم بجسد ”المسيح“ ودمه.

وفتح ”حجيزى“ عينيه مبهورا بما سمع، هل كان برفقتهم قتيل دون أن يدري؟! المسيح؟!!

”أَيكون هو المسيح الذى قالوا له إنه قام بجسده حيّا من بين الموتى؟! هل قام ثم قُتل ولم يستطع القيام مرة أخرى من الموت؟! وكيف أتى هذا المعتوه بجسده الغارق فى دمائه ليأكلوه?!“.

وبينما كان يدور برأسه ناظرا ناحية الجوال الكبير، متسائلا بعينه إن كان فيه جثة "المسيح" فعلا، تذكّر أن هذا الجوال بالتحديد، هو الجوال الذي أخرجته من بيته، وعبأه تمرا للرّاهب "يوائس"، لمّا مر عليه في "الوعرة".

لم ير "حجيزى" فزعا في عيون أولئك الرّهبان الواقفين في أماكنهم من غير حركة، بل إن الابتسامة ما زالت ترسم شفاههم، أو بالأحرى اتّسعت قليلا.

كانت عينا "حجيزى" بارقتان بالسؤال: أين خبأ هذا الرّاهب جثة المسيح؟! ونظر الرّاهب "يوائس" إلى الأجوالة المعبّأة بالخبز الجاف والتمور، وابتسم وقال: ها هو هناك.

"هذه أجوالة مملوءة بخبز وتمر! هل جُن الرّاهب!؟".

وكان الرّهبان يهمسون بكلمات كالتراتيل، بينما ينقرون بأطراف أصابع أيديهم جبهاتهم وأجناب صدورهم، وقد توقّفوا عن الابتسام.

كان ظلُّ الجبل يغطّي الأشجار القليلة المترصّة في سفحه، ويغطّي مساحة كبيرة ملقاة أمامه، لكن الرّمال البعيدة بدت مثل بحيرة من ذهب تمتد حتى الآفاق البعيدة، كانت الشّمس تغرب.

كان الرّهبان يلتقون حول الأجولة واللفائف، يقتسمونها فيما بينهم من غير ضجيج، وكان "عبد الله" يعدُّ نارا لصنع الشّاي تحت إحدى الأشجار، وقد جلس بجواره "حجيزى"، ينظر ناحية الرّهبان نظرة حائرة.

- أنت تعرف أننا كنا نحمل جثة طوال هذه الرّحلة!؟

- أى جثّة يا عم "حجيزى"؟!

- قال لهم أنه أتى بجثّة المسيح ودمه! ألم تسمع هذا؟!

كان "عبدالله" قد نفخ فى الدخان ليشتعل، فسال دمع عينيه، لكنّه قال وهو يبتسم: الرّاهب يقصد الخبز والتمر الذى سيصنعون منه خمرا.

عينا "حجيزى" دارتا أكثر فى محجريها، فقال "عبدالله": قال لى أحد الرّهبان زمان، إنهم عندما يأكلون هذا الخبز، ويشربون هذا الخمر، فكأنهم أكلوا جسد المسيح، وشربوا دمه.

امتعضت تجاعيد وجه "حجيزى"، وقال: الله يقرفهم، يشبهون الخبز بلحم النّاس! وكيف هم رهبان ويشربون الخمر؟ يكون "سعدون" صدق فى كلامه عنهم؟!

اشتعلت النّار حول "كوز" ممتلئ بالشّاي اسودّت جوانبه بالهباب، و"حجيزى" نظر إلى "عبدالله" الذى كان يقبض على "سلك" ملفوف حول الكوز المغموس فى ألسنة اللهب، قال "حجيزى": يبدو أنهم مجانين.

قال "عبدالله": هم مجانين بالتّأكيد يا عم "حجيزى"، يتركون الحياة والنّعيم، ويأتون ليلقون بأنفسهم فى حجيم الصّمت هذا، أنت تظن أنهم يأكلون الجبن ويشربون العصائر؟! لا، إنهم يقولون عنها دشيثة البهائم، لا يجرؤ أحدهم على الاقتراب منها، وألّا اهتموه فى صدق صلاته، لكن هناك منهم من يخضع لمتطلبات جسده، فيأكل، ثم يرحل، منهم بالتّأكيد من سيعود معى، لكن أغلب الجبن والعصائر تلقى لتأكلها وتشربها هوام الجبل، ويأكلوا هم أوراق

هذه الأشجار وثمارها، تعينهم عصائرها على العطش، كما تعينهم مياه المطر،  
قلبوا العيشة يا شيخ "حجيزى".

وبينما كانا يرشfan الشّاي، كان الرّهبان يقوم كل واحد منهم وقد حمل بين  
يديه نصيبه من نعمة الله التي حُمِلت إليهم على ظهرى النّاقتين.

قال "عبد الله": رأيت رهبانا فى صحارى قاحلة، يَمْضُون أوراق شجر  
"العبل" المُرّة، وتمر أمامهم الأرناب، فيتركونها! يا عم "حجيزى" أنت طول  
عمرك تَأْكُل وتشرّب، هؤلاء تَعَوّدوا على الجوع والعطش، وهؤلاء ليس  
وراءهم عيال ولا مال، وأنت وراءك بيت وزرع ومال، ما توحشك ضحكة  
"بكير" يا أخى؟! أنا قلبى يدق كالعاشق كلّما تذكرت بُنيتى "هند"، أريد  
والله أرسم صورة صبح وجهها على كل رمال المسافات التي أقطعها فى  
الرحيل الذى ما ينتهى أبدا.

"بيدو أنتى أخطأت بالمجىء خلف هذا الرّاهب، فكل ما يقوله أو يفعله حتى  
الآن هو ضد حياة الأجساد".

حدّث "حجيزى" نفسه، وهو يرشf آخر قطرة شاي من الكوب الرّجاجى  
فاقد الشّفاية، وكان آخر شعاع من الشّمس الغاربة يزوى، والظّلّمة تفتح  
فمها.

\*\*\*\*\*

ينكأ "عبدالله" النّاقة بكعبى قدميه فى جنبها فتهب واقفة وهى ترغى، كان  
الرّاهب الذى بالكاد عمره تجاوز الأربعين هو من ركب على سنام النّاقة  
الأخرى، وبينما وقف "حجيزى" بجوار "يوأّس" ينظران إلى القافلة الصّغيرة



يودّعناها، قال "عبدالله" وهو يتنسم: آه يا عم "حجيزى"، أمامك فرصة حتى الآن، ربما تحب العودة فى أى وقت آخر فلا تجد من يحملك، الله وحده يعلم متى يمكن أن تأتى قافلة أخرى إلى هنا.

لم يرد "حجيزى"، وابتسم الرّاهب "يوائس"، وتدحرجت القافلة ببطء لتعطس فى العتمة القادمة.

استدارا ليواجهما الجبل، ثم مدّ الرّاهب يده نحو كتف "حجيزى"، ودفعه قليلا ليتحرك، وبينما يمشيان ببطء يناسب عجوزين صحراويين، بطء راسخ، قال الرّاهب: أنا هنا يا حجيزى منذ أن كان عمري أربعين عاما، الآن يقولون أن عمري تعدى المائة، أكثر من ستين عاما أجوب هذه الصّحارى، لكنى لا أنسى أبدا هذه اللحظة الأولى التى تركنى فيها البدوى الذى حملنى بناقته إلى وحشة هذه الصّحراء، ثم مضى، وحشة الصّحراء مهلكة لإنسان وحيد، ورغم أن عمّارا هائلا بالمسيح كان يملأ قلبى، إلا أنتى لن أنسى أبدا رعدة جلدى، لما نظرت حولى فلم أجد إلا حفرة بالكاد تسع إنسانا، نحتها يد الله فى صخرة وحيدة ضخمة، ملقاة فى بحر من رمال، أشهد الرّب أن "المسيح" كان يملأ قلبى، لكنى رغم ذلك شعرت بدوار، وارتيمت على الرّمال أبكى، كنت قادما من الدّنيا، رغم أنى كنت قد قضيت سنينا طويلة فى الكنيسة، لكن الكنيسة كانت مزروعة فى قلب دنيا "أسيوط"، وجسدى كان مستأنسا بأجساد أهلها، لكن روحى تاهت هناك، وبينما روحى ترفرف فى نعمة الله السّعيدة فى أول لحظات الوحدة فى هذه الصّحارى، كان جسدى يتألم وهو يفارق ونس أجساد النّاس وشهواتهم، كنت يومها أشبّحه على صليب الوحدة وأنا لا أعرف.

وعندما وصلا إلى المكان الذي كان يتجمع عنده الرهبان، كان ثمة جوال متوسط قد امتلأ بالخبز والتمر والأطعمة الأخرى، أشار إليه الرّاهب، وهو يقول لـ "حجيزى": هذا نصيبك، ستحتاج إليه بشدّة في أيّامك الأولى.

- وكما صرخ الرّب يسوع المسيح، وهو معلّق على صليبه، يطلب من الله أن يعينه في محتته...

قاطعته "حجيزى": تقولون إن الله هو المسيح! كيف يطلب الله من الله أن... وقطع "حجيزى" كلامه، وأدار رأسه ناحية الرّاهب، وقال بالشك: يا مقدّس قل كلاما معقولاً!

ابتسم "يوانس" وقال: المسيحيّة دين قلب يا "حجيزى"، بالعقل وحده لن يؤمن أحد، عندما تتبع "المسيح"، ويغسلك بالروح القدس، ستستريح روحك، ويهدأ قلبك.

"نظر يوانس حوله يكاد الفرع يفتك به، فهو عندما طلب من رئيس الدير السّياحة في الجبال، لم يكن يتخيّل أن وحشة الصّحراء يمكن أن تكون بكل هذا العنف، لا شيء يشي بحياة، أيّة حياة، حتى ولو أفعى تزحف، ليس إلا أشجار "العبل" القصيرة الطّالعة من الرّمال هنا وهناك، ولا يوجد ماء، ولا يملك خبرة في التّعامل مع كل هذا القحط، لا أحد من الرّهبان الذين عادوا من سياحتهم قصّ له عمّا وجده من صعوبات، كلّهم يتكلّمون عن نعمة الرّب الموجودة في كل مكان، ولا أحد منهم يُخبر بأن قسوة ما وجدوه هو ما أعادهم إلى الونس، وإنما يقولون دائماً إن سبب عودتهم هو مشيئة الله، وفي لحظة فكّر في أن مشاعره ليست أكثر من نفخات شيطان، لم يُقدم الإنسان أبداً

على عمل يجارب به الشيطان، إلا وجربه، لقد جرب "المسيح" نفسه، هذا الملعون، تجاربه مرعبة، لكن نعمة الرب يسوع أقوى.

- وعندما غابت الشمس يا "حجيزي"، ورأيت شناعة الظلام القادم وأنا وحيد، والصمت يوش في أذني مثل ترنمة شبح، ساخت ساقاي، وركبتاي اصطكنا ببعضهما، ولم أشك في قدوم الموت.

في لحظة تحركت شفتنا "يوانس" بكلمة: الرب.  
سمع نفسه يقول: الرب.

- الصمت عدو الإنسان الأول يا "حجيزي"، هو الذي يقتلك في خوفك، عندما تخاف تكلم، سيتبدد خوفك، أنا سمعت صوت روحى، روحى تكلمت بما تحب، تكلمت باسم "الرب"، سمعتها فأنستنى قليلا، فقامت وصرخت في وسع الصحراء: أرفع عيني إلى الجبال، من حيث يأتي عونى، معونتى من عند الرب، صانع السماوات والأرض.

"تهلل وجه يوانس فجأة، وكأن صوته قد نشر في الصحراء كامل الحياة، ها هو صوت إنسان يكسر وحشة السكون، صوت سمعه بأذنه، ولم يكن يمثّل مشكلة بالنسبة له أن الصوت لم يكن غير صوته، فالغريق يتعلّق بقشة، ويتعلّق بما هو أهون من ذلك، يتعلّق بالوهم".

يتقدّمان ببطء ناحية إحدى المغارات، وأقدامهما تحاول انتقاء أماكن آمنة من وعورة الصخور.

- أحسست بسكينة تحطّ في قلبى، فعرفت أن الرب معى، وأنه يعد لى فعلا خطة تحصّنى وحدى، فتخلّصت من قوّتى، وانتظرت قوّة الله، وأخذت ألى عليه فى أن يرسلها لى فوراً: اللهم التفت إلى معونتى، يارب أسرع وأعنى.

وصلا عند فَوْهَة المغارة، ألقى "حجيزى" من على كتفه الجوال الممتلئ بنصيبه من الأطعمة، وقال الرَّاهب وهو يشير إلى المغارة: هنا تختلى مع الله، اسأله بإخلاص أن يمنحك الطَّرِيق الصَّحيح الذى يؤدِّي إليه...

قاطعهُ "حجيزى" بضيق: أنا يا أبونا لم آت إلى هنا لأسأل الله عن الطَّرِيق الصَّحيح، أنا أعرف طريقي، أنا أتيت إلى هنا لكي تدلَّنِي على ما لا يجعلنى بعد موتى أَدفن فى قبر، أنا أريد أن أبقى فى هذه الدُّنيا التى عَمَّرْتُهَا.

كانت هناك إرهابات حيرة عظيمة تضرب ملامح وجهه "يوانس" الرَّاهب، لكن لفح الظَّلام خبأها عن عيني "حجيزى"، همس "يوانس": حتى هذه سيقدم لك "المسيح" إجابة عنها.

- متى؟

- عندما تتبعه.

- كيف أتبعه؟

- تؤمن به ربًّا ومخلِّصًا.

- لماذا لا يقدم المسيح حلا لمشكلتي من غير أن أومن به ربًّا ومخلِّصًا؟!

- ولماذا يقدم لك حلولاً وأنت لا تؤمن به.

- لا أحد يعطى من دون أخذ، حتى الرُّسل؟!؟

تهدَّ الرَّاهب بعمق، ثم رفع عينيه إلى السَّماء، وقال: ومع ذلك أطلب منك يا "يسوع" أن تُرى هذا الحائر إحدى معجزاتك، بدون مقابل.

كان القمر يصعد من أفق الشَّرْق، دائرة أرجوانية مهيبة، تنتصب على حد الخلاء اللامتناهى، وعوى ذئب.

\*\*\*\*\*

لم يكن بمقدور "حجيزى" التّوم، ليس خوفاً من هذا الجبل، ولا من تلك الصّحراء، فعدد المرّات التي نام فيها وحيدا في الصّحراء لا يستطيع أن يُحصيها، أثناء ترحاله ما بين "الوعرة" و"موط" لقضاء المصالح، نام وحيدا في الصّحراء لَمَّا كان يدب بقطع الغنم إلى مناطق بعيدة، فيقرّر البقاء أيّاماً لتشبع أغنامه.

كان في كل الأحوال، يفرش الصّوفة ويمتدّد عليها، ويغرق في التّوم، بعد سرحة قصيرة لعينيه بين نجوم السّماء.

لكنّه الآن يشعر بغربة عن هذه الصّحراء التي يعرفها، فها هو جبل شاهق يحدُّ من وسعها، وأناس يعيشون حوله في كهوف مثل الأشباح، لا لهم صوت، ولا حركة، ثم هذا الـ"يوانّس" الذي يطلب منه بوضوح شديد أن يصير نصرانيا، دون أن يضمن له بشكل أكيد أنه سيقوم من موته.

"لقد خدعك يوانّس يا حجيزى".

- لم يخدعك "يوانّس" يا "حجيزى"، وإنما يخدع نفسه عندما يظن أنه لما انقطع للرّب فقد قدّم له الخدمة التي يستحقّها.

كان الرّاهب "يوانّس" يقول هذه الكلمات في وهدة الليل وهو يتقدّم ناحيته ببطء على الحصى، وفرح به "حجيزى".

سيؤنس "يوانّس" وحدته.

وعلا وشيش رفرة أجنحة تحفق، أجنحة كثيرة، ورفع "حجيزى" عينيه إلى السّماء، ففوجئ بسحابة من طيور تنساب نحو الشّمال في صمت مهيّب، ينعكس عليها ضوء القمر، فترجح بلمعة الفضة، كانت الطيور تطير قريبا جدا من سطح الصّحراء، حتى ظن أنه يقدر أن يمسك بإحداها، وكانت سحابة

كبيرة من طيور، لم تنقش إلا بعد دقائق طويلة، كان ”يوائس“ قد جلس فيها بجوار ”حجيزى“ الذى ظهر العجب على وجهه.

- أول مرة فى حياتى أرى الطيور المهاجرة هذه تطير مقتربة من الأرض كل هذا الاقتراب!

ابتسم ”يوائس“، وقال: ها أنت الآن تعود شابا يا ”حجيزى“.

- أعود شابا لأنى رأيت هذه الطيور!

- لا، ولكن لأنك تعجبت من قربها، لأنك اندهشت.

حاول ”حجيزى“ أن يفهم كلام الرّاهب، فلم يفهم، وقرّر ألا يسأله عن معنى كلامه، فالرّاهب خدعه، حتى وإن كان قد جاء الآن ليزيل عنه وحشته، فليس معنى هذا أنه لا يواصل خديعته.

قال الرّاهب: الفرق بين الشّباب والهرم هو هذا الاندهاش، أيام شبابى كنت أندهش من أشياء كثيرة، ربما لم تكن مدهشة، والآن يا ”حجيزى“ لو نزل ربنا ”يسوع“ المسيح، ودخل مغارة عزلتى ربما لن أندهش.

كانت الأشجار المترامية فى سفح الجبل معتمة تحت ضوء القمر، وتكمل صورة الوحشة.

قال الرّاهب: نحن نواصل ما تبقى لنا من حياة بسبب لحظات من دهشة يمنحها الرّب لنا، ويوم أن تمتنع عنّا الدهشة تماما سنموت.

وتهد الرّاهب ”يوائس“ قبل أن يقول: الطيور المهاجرة أمنت شر الإنسان هنا، فاقتربت من الأرض، أنا أطلب من ربنا أن يريك كيف يضع الذئب رأسه فى حجر القديس ”مرقس“.

- لماذا ألقيت بنفسك في هذه الصحارى يا مقدس "يوانس"؟! لماذا تركت ونس الناس؟

- لأنغمس في ونس ربنا يسوع المسيح.

- لا نبحث يا مقدس عن ونس الله، إلا عندما نتعبنا الوحدة في الدنيا، ماذا عملت معك الدنيا؟

نظر الراهب "يوانس" في عيني "حجيزى"، كانتا متوهجتين، ويلمغ فيها القمر الصاعد، وكان فيهما شيء آخر دفع الراهب لمحاولة الوقوف على قدميه كالملدوغ، وهو يهيمهم بغضب: أنا المخطئ، سأظل لا أتعلّم أبدا أنتى مع "يسوع" أفضل جدّا، وأنتى مع البشر فى خطر وحرز، أنا ذاهب إلى قلايتى.

"لابد الدنيا عملت معه عملا مشينا، وألا ما كان غضب هكذا، ماذا عملت معك الدنيا يا مقدس؟!".

كانت أصوات قدمى الراهب فوق الصُخور تخفت وهو يتعد، بينما صوته يصل إلى أذنى "حجيزى" واضحا، رغم ارتعاشة نبراته التى تؤكّد أنه ييكى، كان يتوسّل بالحاح: يارب لا بغضبك تُبكتنى، ولا بزجرك تؤدّبنى، ارحمنى يارب فأنى ضعيف، اشفنى يارب فإن عظامى وهنت، ونفسى جزعت جدا.

عاد "حجيزى" إلى وحدته المستحكمة، بعد أن اختفى صوت الراهب تماما، ليعاوده الإحساس بأنه يخوض فى مغامرة، مغامرة كبيرة، سيكون عليه فى الصّباح أن يبدّل دينه.

"ما المشكلة؟ ربما دين هذا الراهب هو الذى سيحل مشكلتى، سأتبع مسيحيهم، وسأرى إن كان يمكنه حفظ جسدى بعد الموت أم لا! الراهب

”يوحنا“ هو الذى حفظ الماء فى بئر الوعرة، ولو لم يقدِّم لى هذا المسيح ما أضمن به حفظ جسدى بعد الموت سأتركه، وأعود إلى دينى“.

شعر ”حجيزى“ بأنه يحتاج الآن إلى كوب من الشّاي الثّقيل، ففتّش فى أمتعته عن الشّاي والسُّكر، أخرجهما فى كيسين من القماش الأبيض الذى حال لونه إلى الإصفرار، ثم ذهب يجمع بعض الحطب، من تلك الشجيرات الصّغيرة النابتة بين الصُّخور، القمر يضىء الصّحراء، وكل ما حوله يبدو واضحاً تماماً.  
”لماذا ينقبض قلبى هكذا؟“

بضعة طيور تتصايح، وهى تعبر فى السّماء القريبة، تبدو منزعجة، تمد رقابها، ورغم بعدها عن ”حجيزى“ إلا أنه تخيل فى عينيها نظرات قلقة.  
”لابد أنها طيور تخلفت عن السّرب الكبير“.

”ستبدل دينك، ولا تريد لقلبك أن ينقبض؟! طوال عمرك أنت مسلم، تؤمن بإله عزّ وجلّ ليختفى خلف الغياهب والحجب، ثم فى آخر عمرك، تؤمن بإله.....“.

وتجلّى صوت ”سعدون“ السّاخر، ممزوجاً بشهقات ضاحكة: طالما يأكل ويشرب مثلنا، يبقى فى بطنه خراء مثلنا، هؤلاء بهائم لا يعملون عقولهم يا حجيزى.

جمع الحطب، صبّ من القربة ماء قليلاً فى ”كوز“ صفيحى صغير، وضع شايا وسكراً، ومزجهما بالماء، مستعملاً قطعة من أغصان الشُّجيرات الجافة.

”يخراً، أو لا يخراً، أنا أعبد من يقدر على حل مشكلتى، أنا لا أريد أن أُدفن بعد موتى، أريد أن أبقى فى هذه الحياة التى شاركت فى صنعها، الذى عزّ وجلّ قال: المسلم يُدفن. ثم اختفى خلف الحُجب، الرّاهب يوثّاس قال:



المسيح قام من الأموات، وكل مسيحي يقوم من الأموات. الرَّاهب يُونَّاس لا يقنعنى، غير فاهم، لكن ربهم يضع الفكرة فى رأسه، يحترم جسده، ويُحييه، ويهرب من قبره، رافضا الدفن.

أعمل "حجيزى" القدّاحة فى الحطب، انبثق اللهب من بين لسانى الحديد، وتوغّل داخل فراغات ما بين الأعواد الجافة، والتصق بها، لتتأجج النَّار، لكن ما إن وضع "كوز" الشّأى عليها، حتى حدث ما هو عجيب، دفقة من هواء، كأنها خرجت من فتحتى أنف ناقة نافرة، ارتطمت بكومة الحطب المشتعلة، فأطفأتها.

لم يندهش "حجيزى" كثيرا، رغم أن هذه هى المرة الأولى فى حياته التى تنطفئ نار أشعلها، من غير ريح عاصفة، أو مطر غزير، بل لمجرد دفقة هواء ضالّة فى الأجواء، ولماذا يندهش أصلا؟ فكل ما حوله كان غريبا، جبل، أشجار، كهوف مغلقة على رهبان يشبهون أشباح الموتى، وفكرة اتّباع دين النصرى، وطيور مهاجرة قريبة من الأرض.

أعمل "حجيزى" القدّاحة فى كومة الحطب مرّة أخرى، ونبت التّيران من بين الأغصان، وعندما تأجّجت، وعلت ألسنة اللهب، وضع "حجيزى" "كوز" الشّأى مرّة أخرى داخل الكومة المشتعلة، لكن دفقة الهواء ارتطمت ثانية بالنّار، فأطفأتها.

وقبل أن يفكّر "حجيزى" فيما يحدث، ضربت قلبه هذه الصّرخة التى انسابت فى صمت الصّحراء، قادمة من ناحية أحد كهوف الجبل، صرخة حادّة، رفيعة، ممتدّة، ممتلئة بالهلع والرّعب، فوقف شعر رأس "حجيزى"، حتى تحيّل أن عمامته تتحرك ناحية السُّقوط إلى كتفيه.

ثم سمع عواءاً ممتداً، عواء لا يخطئه أبداً، فنظر ناحية العواء، ووجدته هناك، يقف على صخرة ناتئة بين الأشجار، يرفع رأسه ناحية القمر، فاتحاً فكَّيه نصف فتحه، كأنه يبكي.

الذئب.

## قلبي يرعى في مروج البنت

”أحبك يارب، فقّوني، أنت أيها الرّب ثباتي وملجأى“.

دموعه تنساب على وجنتيه، دافئة، وتأهية.

يضع كفه اليمنى على شق صدره الأيسر، ويعصر ثديه، يكاد يخلعه، كأنه يريد أن ينتزع قلبه، أو يقبض على جذوة مشتعلة فيه، فيفتتها ويطفئها.

”لا نبحث عن ونس الله، إلا عندما تتعبنا الوحدة في الدنيا، ماذا عملت معك الدنيا يا مقدّس يوثّاس؟“.

”كنت نسيت ما فعلته الدنيا معي يا راعي الغنم، لماذا ذكّرتني يا بدوى؟“.

\*\*\*\*\*

أحبك يارب، يا ”يسوع“، وأنت تعرف ”صبحي“، عبدك الذي غمزته أيضا بمحبتك، ”صبحي“، ابن القروي الفقير ”فهم“ الإسكافي، الذي سكن في نجع صغير، تابع لإحدى قرى مديرية ”جرجا“، نجع ”أبو ليلة“، الذي فيه كنيسة العتيقة، والتي تحيط بها بيوت المسلمين، فلا نستطيع توسعتها.

وفي يوم قلت لأبي: لماذا بنيتم الكنيسة بين بيوت المسلمين؟

فقال: المسلمون هم من بنوا بيوتهم حول كنيستنا.

كان أبي يومها يجلس على أمه من ثرى ذكّه الرّمن، رَیَصَتْ في أول حارة التّصاری، حارتنا المفتوحة في نهايتها على الحقول البراح، يدق نعل حذاء مهترئ بالمسامير، توقف عن الدق، وأشار بسبّابته ناحية الكنيسة، التي حال لونها الأبيض إلى لا لون محدّد، وسقطت مساحات واسعة من جير طلائها القديم، بينما بدا برجها الخالي من الجرس، مثل خيال مآته، نُكْتُ في قَمَّتِه صليب صدئ، سقط جناحه الأيمن، وقال: أنظر لكنيستنا، وانظر لبيوتهم، كنيستنا قديمة، بناها أجداد الأجداد، وبيوتهم جديدة، كنيستنا الأصل، وبيوتهم طارئة.

قلت: كيف استطاعوا أن يبنا بيوتهم حول كنيستنا؟

ابتسم أبي، وعاود دق المسامير في النعل، ثم أخذ نفسا عميقا، وقال: بنوا بيوتهم لما قرّطنا لهم في أراضينا، نحن يا ولدى من تسببنا في هذا الوضع.

- لماذا لا نضع جرسا في برج كنيستنا، القسيس يقول إن لأبراج الكنائس أجراس.

- صليل الجرس يضايقهم، قالوا لنا: إنكم قليلوا العدد، وكلكم تسكنون بجوار الكنيسة، ليس منكم من يسكن بعيدا حتى تنبهه الأجراس لمواعيد الصّلاة.  
- إنهم يكرهوننا يا أبي.

بدأ "فهم" يخصف النعل بنصل حاد، قال: لو كانوا يكرهوننا ما أطفأوا النّار التي كادت تأكل كل حارتنا، لولاهم لاحترقت أمك، وما خرجت أنت إلى هذه الحياة، المسلمون وقفوا معي في مآزق عديدة، لم يقف معي خلالها أعمامك المسيحيون.

- إذن يكرهون "المسيح".

- "المسيح" في قرآتهم رسول كريم، يخلق مثلما يخلق الله، يعترفون أنه أتى من غير أب، وأن أمّه العذراء بتول طاهرة، لو أراد لهم "يسوع" خيرا لفتح بصائر قلوبهم أكثر، وكانوا فهموا أن من ليس أباه الإنسان، لا بد وأن يكون أبوه الله نفسه، إنهم يحبُّون "المسيح" على قدر فهمهم يا "صبحي".

"الحيرة بدت في عيني يا يسوع، أنت رأيته ولا شك، كما رآها فهم أبي، وألقيت في روع أبي أن يقول كلماته الغريبة: إنهم احتلوا بلادنا منذ زمن طويل، والمحتمل يتكلم دائما بلسان القوة، ويعشق السطوة وفرض الإرادة".

- من الذى احتل بلادنا يا أبى؟!

"فهم" هو الذى امتلأت عيناه هذه المرة بالدّهشة، وهمس: ألم يخبركم القسيس أبدا عمن احتل بلادنا؟!

- لم أحضر كل دروس القسيس.

- المسلمون يا بنى، المسلمون هم الغزاة المحتلون، صحيح هم لم يكرهونا مثل أى غاز سابق، لكنهم أحبُّوا السطوة، وفرض الإرادة.

- من أخبرك بهذا يا أبى؟!

- السّفر يا "صبحي"، البلاد كتب ضخمة، ومعاملة التّاس أعظم دروس.

”ها أنت ترى يا يسوع، أنى نشأت أحمل همّ كنيستك، مشغول بقضاياك، وكان يجب أن تضع بين يدي نورا أهتدى به، ولا تتركنى لظلمات نفسى، فأخبط في صخور حياتى، وأغرق فى بحورها“.

حزن أبى لما قررت السفر، وقال لى: أول ما تسافر تسافر للرزق؟ السفر للأرزاق يطول يا ولى، ولا يعرف الإنسان متى يعود منه إلى بيته وناسه. لكنّه فرح أيضا، وقال لى: الرجال هم من يسعون وراء أرزاقهم، أنت رجل يا ”صبحى“.

وقال لى: سافر إلى ”أسيوط“، بلاد الرب المباركة، هناك أصل جذور عائلتنا، وهناك سيحفظك ”المسيح“.

”أنت الوحيد الذى تعرف السبب الحقيقى لمغادرتى القرية، الغضب يا يسوع، الغضب لأجلك، فما كان ممكنا أن أبقى فى بلد لا تستطيع كنيستك أن تتسع فيه، ولا حتى أن تطفى بطلاء جديد، ولا أن يدق فيها ناقوسك المبارك، حتى صليبك المكسور لا نستطيع إصلاحه، كما أنك يارب ترى شعبك القليل ذليلا فيها، لسنا أكثر من خدم للمسلمين، وزعوا أجدادنا وآباءنا على قبائلهم، صار شعبك عبيدا، ترى عيونهم مملوءة بسطوة السيادة، وترى عيوننا مملوءة بهوان اللؤلؤ، أسمع أن عنايتك مسبوغة على شعبك فى ”أسيوط“، أسبغ على عنايتك يا يسوع“.

وَدَعَت أُمِّي النَّائِمَةَ مِنْذُ زَمَنِ فِي فِرَاشِهَا تَأْكُلُهَا الْأَمْرَاضُ، وَكَانَ الْوُدَاعُ الْأَوَّلُ وَالْأَخِيرُ، وَقَتَهَا نَظَرْتُ فِي عَيْنِي، نَظْرَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ تَحَوَّلَتْ عَيْنَاهَا لِتَجُولَ فِي كُلِّ وَجْهِ، وَنَزَلَتْ إِلَى رِقْبَتِي، وَإِلَى صَدْرِي، مَدَّتْ يَدَهَا الشَّبِيهَةَ بِغَضَنِ جَافٍ مَتِيئَسٍ، فَمَدَدَتْ لَهَا يَدِي، فَحَمَّسْتَهَا، جَذَبْتَنِي لِأَجْلَسَ عَلَيَّ حَاقَّةً فِرَاشِهَا، فَجَلَسْتُ، كَانَ الْمَكَانُ مَعْبَأً بِرَائِحَةِ الْمَرَضِ، الْمَمْرُوجَةِ بِرَائِحَةِ الْفَقْرِ، لَا شَمْسٌ تَدْخُلُ هَذَا الْخُنَّ الْمُسَمَى بَيْتًا، الْإِضَاءَةُ تَنْسَلُ مِنْ طَاقَةِ ضَيْقَةٍ اقْتَرَبَتْ مِنَ السَّقْفِ، أَوْانَ مَلَقَاةً هُنَا وَهَنَاكَ بِغَيْرِ عَنَايَةٍ، مَلَابِسٌ مَكْمُومَةٌ وَمَشْتَبِكَةٌ بَعْضُهَا مِثْلَ أَفَاعٍ وَوَلِيدَةٍ، تَمْرَحُ الصَّرَاصِيرُ فَوْقَهَا، لَا يُمْكِنُ لِأَدَمِيَّيْنِ الْعَيْشَ فِي مِثْلِ بِيوتِنَا، لَكِنِ تَعِيشُ فِيهَا الْجُرْدَانُ وَالشَّعَالِبُ، تَأَلَّفَهَا حَيَوَانَاتُ الْجَحُورِ.

فَهَمَّتْ نَظَرَاتُ أُمِّي بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنِينَ طَوِيلَةً، نَظَرَاتُ الْمَوَدِّعِ، نَظَرَاتُ مَنْ لَنْ يِرَاكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَيُرِيدُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِكُلِّ التَّفَاصِيلِ، يَتَفَحَّصُكَ، لِيَذْهَلَ مِنْ كَوْنِهِ يَرَى مَا لَمْ يَرِهِ مِنْ قَبْلِ، وَأَنْ مِنْ عَاشٍ مَعَهُ الْعَمْرُ الطَّوِيلِ، لَمْ يَكُنْ هُوَ نَفْسَهُ هَذَا الْوَاقِفِ أَمَامَهُ فِي لِحْظَةِ الْعَمْرِ الْأَخِيرَةِ.

\*\*\*\*\*

عَلَتْ صَرِيخَةُ الرَّاهِبِ "بِرُسُومٍ"، تِلْكَ الصَّرِيخَةُ الْحَادَّةُ، الْمَمْتَدَّةُ، ثُمَّ عَوَاءُ الدِّئِبِ، انْفَتَحَتْ عَيْنَا الرَّاهِبِ "يُوَأْسَسُ"، بَعْدَ أَنْ خَطَفَتْهَا صَرِيخَةُ الرَّاهِبِ، وَعَوَاءُ الدِّئِبِ، مِنْ رُؤْيَةِ زَمَنِ غَائِمٍ بَعِيدٍ، إِلَى رُؤْيَةِ حَاضِرٍ مَرْسُومٍ بِوَضُوحٍ، فَهَضَّ وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيْنِ وَاهْنَتَيْنِ، وَأَتَجَّهُ إِلَى فَتْحَةِ الْكَهْفِ، الْمَغْطَاةُ بِسِتَارَةٍ مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ، أَزَاحَهَا، فَتَدَفَّقَ نُورُ الْقَمَرِ الْمَكْتَمَلِ إِلَى الدَّخْلِ، وَانْسَابَتْ مَعَهُ نَسَاتٌ بَارِدَةٌ مَنَعِشَةٌ، وَسَطَعَ الثُّورُ أَيْضًا عَلَى وَجْهِ "يُوَأْسَسُ"، فَبَدَأَ قَدَيْسًا مَهْيِيًا.

تحرك إلى خارج المغارة، واستند إلى حاجز من صخور ناتئة، ونظر إلى أسفل، حيث الأشجار البادية في نور البدر، مثل قطع من عمدة تأبى المغادرة، كان الذئب مقعياً على الصخرة البارزة بين الأشجار، يرفع رأسه، ويعوى، وكان شبح "حجيزى" متصلباً، جالسا القرفصاء أمام خيط من دخان، يتصاعد ليتمزق ويتشقق بفعل الريح الهادئة، التي تسرح في ليالى الصحراء الساكنة، كان شبح "حجيزى" ينظر ناحية الذئب.

دق قلبُ الرَّاهبِ "يوانس"، وقلب وجهه في السماء السوداء المتلألئة بالنجوم، وقال لنفسه: توقعت يارب أن تسبغ نعمتك على راعى الغنم الضال، سقه إلى حظيرتك بمحبتك.

قفز الذئب من فوق الصخرة، وخطا خطوات قليلة في اتجاه "حجيزى" الذى تحوّل إلى صنم جالسا القرفصاء، توقف الذئب، ومطأ رقبته وعوى، ثم بدأ يخطو مقترباً من "حجيزى"، خطوات قاتل يستعد للفتك، ناباه بارزان، ونار حمراء تطلع من عينيه الصفراوين، وكان "حجيزى" أيضاً ينظر في عيني هذا القادم بالشر، ثم بدأ الذئب يتحرك حركة غريبة، يميل رأسه مثل كلب يبدأ الموالفة، ولتختفى من عينيه نظرة الإفراس!

وبدا أن "حجيزى" قد عادت الليونة إلى جسده، فها هو يحاول الوقوف، لكنّه ثبت في قرفصائه لما سمع زعيق الرَّاهبِ "يوانس" يأتيه هادراً من فوق الجبل: اثبت مكانك يا "حجيزى"، وتقبّل هدية الحمل الوديع، أقبل الذئب، يقبلك الخروف.

\*\*\*\*\*

كان عمري لم يتجاوز الخمسة عشر عاماً لما عملت في محل المعلم "نظير تكلا"، ستي صغيرة عن تحمّل متاعب الأرزاق، هشة عن حمل الهم، وأنا قروى



غريب في مدينة "أسيوط" الواسعة، لكنني رغم ذلك صرت أحسن حالا بكثير، صرت أمسك النِكلَة بيدي، وأرى التعريفَة والقرش في يد المعلِّم، وهو يعد نقوده لأي سبب من الأسباب، ورأيت المعلِّم، رغم أنه نصراني مثل ناسي في نجع "أبو ليلة"، عزيزا في مكانه، يُجالسه الثُّجار المسلمون، يشربون الشاي ويضحكون، ويدخّنون الجوزة فينفلت وقارهم، ويتكلّمون عن النِّساء بكلام أفهم بعضه، ولا أفهم بعضه الآخر، لكنهم كانوا يتفهّمون مثل المساطيل.

وعندما ينتهى العمل، أذهب إلى غرفتي على سطح العمارة التي يمتلكها المعلِّم "نظير"، ويسكن فيها أيضا.

الليل كئيب، دائما الليل كئيب، في نجع "أبو ليلة" كئيب، وفي "أسيوط" كئيب، لأنه في "أسيوط" عندما كنت أتمدّد للنوم كنت أتذكر نجع "أبو ليلة". ومَرّت الليالي السّوداء يا سيّدنا، ومع كل نكلة أدّخرها يخف سوادها، ولما صار معي خمسون قرشا عشت ليلة ولا كل الليالي، لم أر ظلاما، ولا أحسست بسواد، وإنما تراقص أمامي حلم كبير، أن أصبح صاحب محل "منيفاتورة" مثل المعلِّم "نظير تكلا"، وأكون قويا مثله، وأجلس في شارع الشُّوق، أمام دكاني، معلِّما محترما بين المعلِّمين، نصراني ومسلمين.

وعندما صار معي جنيه ورق كامل، طار الثّوم من عيني، وأخذت أقبّب الجنيه أمام اللّمة العويل، وأتأمل رسوماته، جمّل واقف وجمّل قاعد، وألوان حمراء فاتحه تحيط بهما، وكلام مكتوب لا أفهمه، أربعة جنيهات أخرى وأستطيع أن أنفرد بتجارة تخصّني وحدي.

تعرف يا "حجيزي"، هذا الجنيه استنزف من عمري سنتين كاملتين لكي أجمعه، عرفت هذا لأن طارقا طرق باب غرفتي هذه الليلة، وعندما فتحته،

رأيت المعلم "نظير"، وبجانبه وقف أبي، الذي انهار باكيا، وأخذ يولول، وصوته يخرج مخنوقا، يقول: سنتان يا ابن الكلب! سنتان لا تسأل عن أب أو أم، طيب أمك ماتت يا "صبحي".

أمي ماتت، وما المشكلة في أن تموت أمي؟ عاشت لا تنفعي بشئ، ولا أنفعا بشئ، ما فائدة حي لا يفيد؟! ميت نافع أفضل.

- الميتون ينفعون يا مقدّس "يوناثاس"؟! -

- لو ورّثونا نفعونا يا سيّدنا.

أمي ورّثتني الصّلاة، كانت في الفارعة والمليانة تضم أطراف أصابعها إلى بعضها، وتنقرهما نقرات متتالية على صدرها وجبهتها، تُصلّب كثيرا، من غير أن تهمس بكلمة، كانت لا تعرف أى كلمة من الإنجيل، ولا تحفظ شيئا من كلام الصّلوات، أقول لك، كانت لا تفهم حكاية "المسيح" الذي جاء إلى الدّنيا من غير أب، لم تصدّق هذا أبدا، وكانت تعتقد أن سنّا "مريم" تزوجت صاحبها "يوسف" النّجار سرا، وأنجبت منه "المسيح".

لم يكن أبي يتحدّث إليها كثيرا، تعرف أنت طبائع الرّجال، خاصّة في "الصّعيد" القاسي، الصّمت، والصّمت في البيوت يقتل العشرة، كان إذا تكلم معها ينهرها بسبب ضعف إيمانها، ويقول لها: ما فرقت عن المسلمين في شئ.

كانت أمي تعبد إله المسلمين من غير أن تدري، وكانت هناك صورة كالحة للمسيح مصلوبا، معلّقة على الجدار، أبي يهتم كثيرا بأن ينظر إليها وهو يصلي ويدعو، لكن أمي كانت تصلي وتدعو وهي رافعة وجهها للسّماء.

وفي يوم نهرها أبي: متى تُقبل صلواتك وأنت لا تنظرين إلى صورة الرَّب  
”يسوع“ المسيح؟

يومها قالت كلمة لم أفهمها، كانت غريبة، فبقيت لاصقة في عقلي، حتى فهمتها  
لماً وعيت، قالت: أنت تنظر يا ”فهم“ إلى الصُّورة طول عمرك وما فهمت  
شيئاً، أنا نظرت إليها مرّة واحدة، وفهمت كل شيء، ها هو ”المسيح“ نفسه  
يا ”فهم“ يرفع وجهه إلى السَّماء، وينادى أحداً فيها، من هذا الأحد إن لم يكن  
الله الكبير!؟

أُمي ورَّثتني حبَّ الصَّلَاة، وورَّثتني هذه الجملة التي قالتها لأبي، و فقط.

الجنين الثاني جمعته لماً أكتمل من عمري عشرون عاماً، ووضعت الجنينين  
بجوار بعضها، وأخذت أنظر إلى الجَمَلين الواقفين، والجَمَلين القاعدين، وأحلم  
باليوم الذي يكتمل لي فيه عشرة جَمال واقفة وقاعدة، في هذه الليلة، فتحت  
البَّاب لما سمعت صوت طرقات خفيفة تصدر منه، ورأيت المعلِّم ”نظير“،  
وبجواره وقف عمِّي ”نعيم“، المعلِّم ”نظير“ تركنا، وعمِّي ”نعيم“ دخل غرفتي،  
وجلس على فرشتي المبسوطة على الأرض، وقال: خمس سنين لا تأتي البلد  
لتطمئن على ناسك، يا قلبك القاسي يا ”صبحي“، طيّب، أبوك مات هو  
الآخر.

أبي ورَّثني بيتاً حقيراً، مثل حجر الثَّعلب، قال لي عمِّي ”نعيم“: ارجع وافتح  
البيت، حرام يخرب.

قلت له: افتحه أنت يا عمِّي.

وأعطاني كيس نقود فيه خمسين قرشاً فكَّته، وبصمت على مبايعة البيت له.

تعرف يا "حجيزى"، حزنت على أبى حزنا عميقا، حتى أنى لم أفتح كيس  
الثقود، رغم أن خمسين قرشا كاملة، ستوفر لى من عمرى سنة على الأقل،  
لكن الوالد جذر عفى فى دنيا الرّجال، وانقطع الجذر.

سألت عمى قبل أن يمضى إن كانوا قد ركبوا ناقوسا فى برج الكنيسة، فقال  
وهو يشوح بذراعه: الأول نصلح الصّليب المكسور!

\*\*\*\*\*

القمر يصب الثور صبا، الرّمال تقذفه متوهّجا، التّسمة عليّة، وقلب  
"حجيزى" يدق، دقّاته تضج فى الصّحراء مثل طبل رتيب منزج، وعيناه  
مشتتان فى عيني الدّيب الحاييتين، الدّيب الذى يقترب منه متسجّبا، كان  
"حجيزى" قد عاد جلسة القرفصاء لما سمع زعيق الرّاهب "يوائس"، وهو يأمره  
بالسّكون مكانه.

لكن ها هو الرّاهب صوته يدوى من فوق الجبل: اجلس يا "حجيزى" اجلس  
على مؤخّرتك، وارخ فخذيك.

وتهلّل صوت "يوائس" عميقا، كأنه نازل من ملكوت السّماء: سيّحوا الرّب  
تسبيحا، لأن الرّب يصنع عجائب.

كان الدّيب قد اقترب من "حجيزى" جدا، فلم يكن أمامه غير أن يخضع  
للأمر، فجلس، بينما رأسه بكامل انتباهته يصوّب نظراته نحو هذا المتقدّم  
صامتا، نحو صناعة العجيبة.

خيطا دخان واهنان يتصاعدان من كومة التّار المطفأة، وثلاثة طيور أطلق  
أحدها صياحا، وهى تمرق نحو الشّمال فوق الشّجرات المتراصّة، وليس بين

الدَّبَّ و”حجيزى“ آية مسافات، حتى أن ”حجيزى“ بدأ يحرك رأسه إلى الوراء ببطء، وفجأة، الدَّبَّ أقعى مثل كلب.

وبينا الرَّاهب ”يوائس“ يهبط في المدق الضيق بين صخور الجبل، مسرعا بحول عجوز، متساندا على عصاه التي ليست أكثر من جذع شجرة رفيع ويابس، أراح الدَّبَّ رأسه على فخذ ”حجيزى“ المرتعش.

رأى ”يوائس“ تمام المعجزة، فرعق وهو يهبط: سَبَّحُوا الرَّبَّ فِي الْأَعَالِي، الحى الذى ما توقَّف عن إعطائنا المعجزات، يا ”مرقس“، يا ”برسوم“، أخرجوا من كهوفكم وانظروا صنيعه الرَّبِّ، يا ”حنّا“، تعال متِّع قلبك بمعجزة ”يسوع“.

كان الرَّهبان يطَّلون من قلالهم الصَّخرية، الكهوف، وينحدرون ببطء نحو الرَّاهب ”يوائس“، الذى يقترب من ”حجيزى“ والدَّبَّ، وهو يزعق بصوت يتهدَّج بالبكاء: يا ”شنوده“، يا ”مئى“، تعاليا مجدداً ”المسيح“ الحى.

وعندما اقترب ”يوائس“ من ”حجيزى“ ألقي عصاه، وانكب يقبِّل رأسه، وهو لا يتوقَّف عن الكلام: قَبِلْتُ الدَّبَّ يَا ”حجيزى“ فَقَبِّلْكَ الحَمَل، لن نعمدك بالماء، فأنت تعمَّدت بيد ”المسيح“ نفسه، تعمَّدت بمعجزة.

بلَّت دموع ”يوائس“ عمامة ”حجيزى“، و”حجيزى“ صامت مدووش، والتف حوله الرَّهبان بلعاهم الكثة المشعثة، وشعور رءوسهم المتنافرة، كأنهم أشباح، سعدت أصواتهم الهادئة، يترنمون كأنهم يغنون: هالولويا. هالولويا. من هؤلاء الطَّائرون كسحاب، وكالحمام إلى بيوتها.

قال ”يوائس“ لـ”حجيزى“: الأرض يرثها الودعاء يا وديع.

همس ”حجيزى“ بصوت متحشرج: هذا ذئب أم كلب؟!  
ابتسم ”يؤانس“، ومسح عينيه من الدموع، وقال: سؤال ما يسأله بدوى أبدا  
يا قس ”وديع“.

نظر ”حجيزى“ فى وجه الرّاهب ”يؤانس“، ولم يكن باستطاعته أن يندهش  
أكثر، كان قد بلغ قمة الاندهاش عندما وضع الذئب رأسه على فخذه.

قال ”يؤانس: ما يجب أن يقال لك الآن يا ”حجيزى“، ولكن يا سيّدنا.

همس ”حجيزى“ بصوته المتحشرج: لكن أنا ما عرفت إجابة الشّرط، ما  
عرفت كيف لا أدفن بعد أن أموت!

رفع ”يؤانس“ وجهه إلى صفحة القمر البرّاقة، الذى مال نحو الغرب، وقال: أنا  
هو القيامة والحياة، من آمن بى ولو مات فسيحيا.

ثم نظر إلى ”حجيزى“، بوجه ملاء الشّرور إلى الغاية، وقال بصوت يكاد  
يرقص: فكيف و”المسيح“ بنفسه قد آمن بك!

\*\*\*\*\*

المعلّم ”نظير“ تعب من مرض ”السّكر“، وطاف فى أواخر أيامه على  
المستشفيات والعيادات، فى ”أسيوط“، وفى ”مصر“، حتى أطباء الجيش  
الانجليزى، فلم ينفعه طب ولا دواء، وكنت أنا الذى أدير المحل، طوال فترة  
غيابه فى رحلات البحث عن علاج، وفى ليلة طرق باب غرفتى طارق،  
قلبى ارتجف، لا أحد فى العادة يطرق باب غرفتى، تمر الأشهر وباب غرفتى  
صامت، والمرّات القليلة التى حدث فيها غير ذلك، كانت مربوطة بموت أحد  
ما، موته يوجع قلبى.

فتحت الباب، كانت السَّت "جميلة" زوجة المعلِّم "نظير"، قالت بأعصاب هادئة: عمِّك "نظير" يموت، وطلب أن يكلمك.

لما دخلت من باب الشقَّة، رأيت "سيرين"، فأحسست بضربة في قلبي، وشعرت بروحي تحترق، كانت "سيرين" تقف حزينة، ودموعها تجرى ولا تقف، لم يكن المعلِّم "نظير" يسمح لها بالمجيء إلى المحل أبداً، يقول: السُّوق مليئة بالرعاع والأوباش.

ولم أكن رأيتها في كل هذه السنين سوى مرَّة واحدة، لما كان عمرها فوق العشر سنوات بقليل، الآن عمرها ستَّة عشر عاماً أو سبعة عشرة، وفاضحة الجمال، ودموعها غسلت وجهها بحسن فتَّان، وغمزت لها السَّت "جميلة" بعينين عابستين، فاخفت في حجرة جانبية، لكنَّها سطعت في قلبي.

كان المعلِّم "نظير" غاطسا في فراشه، ولولا رأسه المنحوت على الوسادة المحشوة بالحرير ما رأيتَه، أغلقت السَّت الباب من الدَّاخل، ووقَّفت تنظر إلينا.

دعنتي عيناه للاقتراب، فجلست بجواره، ولصقت أذني بفمه، لم تكن أنفاسه لها العزم الذي أعرفه، لما كان يقهقه في جلسات الأُنس مع أصدقائه التُّجار أمام المحل، كانت أنفاسه ميتة.

همس: لى خمسة من الإخوة، ولك خمس سنين معي، هل رأيت منهم واحداً؟

هززت رأسي بالتَّفى.

قال: كتبت كل ما أملكه لـ "سيرين" وأمِّها، لكن المحل ستديره أنت، المحل يا "صبحي" لا يذهب بعيداً، ووقت أن تفكِّر "سيرين" في بيعه، اشتره أنت.

وعندما ابتعدت برأسى عنه، همس: اقترب.

اقتربت، فقال: إياك و”سيرين“، ”سيرين“ بنت ”نظيم تكلا“، من أكبر تجار المانيفاتورة في ”أسيوط“، مدينة ”المسيح“ المباركة، لكن أنت ممها فعلت سستظل ابن ”فهم“ الإسكافي، القادم من نجع في إحدى قرى مديرية ”جرجا“، لا تدق فيه أجراس الكنائس.

ارتجف قلبي، ودار رأسى، وزحفت يده العجفاء، وامتدت إلى التَّسْرِيجَة، نحو جنيه أحمر، فيه جَمَلان، أحدهما واقف، والآخر رابض، قرّبه مِنِّي، وهمس: خذ هذا الجنيه، واحفظ الوصِيَّة.

صعدت إلى غرفتي، وفي نور اللمبة ”العويل“ رأيت أن المعلم ”نظير“ قد وجَّه لى لكمة وعرة، كأن الرّجل كان كاشفا لحمى طوال الوقت، لكنّي يا معلّم ”نظير“ لم أحلم يوما بـ”سيرين“، فلماذا تحذّرني من التفكير فيها، ولماذا قلت لى الآن ما لم تقله لى يوما أبدا، الكلام الذى يذكّرني بأننى ابن صرماقى حقير؟

رصصت الجنيهات الثلاثة، وأخذت أتأمل الجمال البستة، لماذا لا يقوم الجمَل النَّاخِخ أبدا؟!

تعالت طرقات خفيفة سريعة على الباب، لا بد المعلم ”نظير“ قد مات، ولماً فتحت الباب، طالعنى وجه ”سيرين“ متلألئا بدموعه، فسقط قلبي يا سيّدنا فى هَوّة حباها.

”أنت إنسان يا يسوع، لكنك إله وابن إله، لا يغويك جمال النِّساء، ولا عطورهن، ولا هذا الشُّعاع الذى ينبثق من قلوبهن ليقيد قلوبنا، دعكت



المجدليّة قدميك بعطرها، وما تحركت فيك ذرّة حب، ولا ذرّة عشق، لكن من من الرجال يمكنه أن يفلت من غواية عيني سيرين، وأنا شاب فائر، يحمل بين ضلوعه قلبا غشيا، لم تصقله من قبل تجربة، وأنت يارب في الأعلى، تضع النساء في طريقنا، والحبّ في أرواحنا“.

في الصّباح جهمّنا المعلّم ”نظير“ للدفن، ووضعناه في تابوت لونه بني، يلمع خشبه مثل مرآة، ثم دفعنا بالتّابوت إلى داخل عربة مزوّقة بالمدّهّب، يجرها حصانان، وتثبّت في سطحها العلوى من أمام ملاكان من خشب، ومن الخلف أيضا، ومشى أمامها صفان من رجال يلبسون بذلات كاكية متشابهة، مثل عساكر الإنجليز، وينفخون في أبواق نحاسية كبيرة، فيصدر منها عويل رهيب.

أمشى في الجنّزة، لا أرى عربة حمل الموتى، ولا التّابوت الذى تسجّى فيه جثمان المعلم، وإني كنت أرى جسد ”سيرين“ المحشو حياة معبأ في ملابس سوداء، يتساند من فرط الحزن على أكتاف نسوة مشفقات، وكنت أرى روح المعلّم تحلّق فوق رأسى، وتهمس بصوتها الميّت: إحذر.

تعرف يا سيّدنا، ربما لو لم يجذّرني المعلّم ”نظير“ من التفكير في ”سيرين“ لما فكّرت فيها، ولما كانت المأساة، ولما كنت الآن هنا، أحكى معك وحولنا كل هذا الخواء.

تعرف، ربما لو لم يجذّر الله أينا ”آدم“ من أكل ثمار هذه الشّجرة الملعونة، ربما لو لم يخلق له ”حواء“، ربما لو لم يجمع عليه غوايتي ”إحذر“ و”حواء“، لما كانت كل هذه البشرية تعانى في هذه الأرض القاسية، التى لا تعطيك شيئا إلا وتأخذ مقابله جزءا من عمرك معجوننا بالآلام، مسكين ”آدم“، يلومونه في

الكنائس والأديرة على خطيئته، وأبسط منها يقعون فيها بكل يسر، ثم يكرّرون قصة النَّفى.

الله نفى "آدم" من الجنّة إلى الأرض، ونحن ننفى أنفسنا من ونس الدنيا إلى وحشة الصّحراء.

وأنا واحد من ملايين البشر الذين قدّر عليهم أن يكونوا أبطال نفس الترواية، حاصرته غوايتنا "إحذر" و"سيرين"، المعلّم "نظير" قال لى: إحذر أن تأكل من هذه الشجرة، إن أكلت منها موتا تموت.

لكن "سيرين" قالت: كل من هذه الشجرة تحيا يا مغفل.

لن أكون أبداً أكثر إيمانا من "آدم"، الذى خلقه الله بيديه، أكلت مثله.

ما أن انقضى أسبوع العزاء، وفتحت الدكان، حتى وجدت "سيرين" تدخل، فستانها أسود، ووجهها أبيض مخضّب بلون الورد، وشعرها حرير ذهبى يسيح خلف رقبتها، وكل هذا الجمال امتزج بمرح طفولى آسر، من يستطيع أن يربط قلبه عن الرعى فى مروج بنت مثل "سيرين"؟! لا أحد، و"المسيح" الحى لا أحد، و"المسيح" الحى يعرف هذا.

أنا ارتبكت، قالت: صباح الخير يا "صبحى".

يااااا، كم هو اسمى جميل، "صبحى"، كل الناس نادى على، وقالت "صبحى"، لكن صوتها كشف لى ما لم أكن مكتشفه من قبل، إن فى اسمى معنى الصّباح، وإن فى روحى ضياء.

جلست على الكرسي، وقالت: يا "صبحى" اعمل لى شايًا.

وعملت لها الشاي، وقدمته لها، وأخذته منى وهى تنظر فى عيني، وكانت مبتسمة، ومن غير كلام كانت تقول لى: لماذا أنت مرتبك هكذا.

وأنا مرتبك من دخولها المفاجئ إلى عالمي، ومرتبك من نظرات أصحاب المحلات والعمّال، التي ترقب ما يحدث بتعجب، أعرف أفكارهم التي دارت في رؤوسهم، البنت ما إن مات أبوها حتى بدأت تمشي على حل شعرها، وجاءت إلى الدكان لتجلس بشعرها المنساب بين الرجال والشباب.

وكنت مرتبكا من أجل شيء آخر، هذه الرّوح القلقلّة التي أراها تحوّم حل رأسي، تذكّرني بحفظ الوصيّة، وألا أقترّب من ”سيرين“.

أنا لم أقترّب أبدا، كانت هي التي اقتربت، حتى التصقت بي..، لم أقترّب أبدا، لكّتي كنت مستعدا للالتصاق بها، بل والانصهار فيها.

في ليلة، جاءتني، دخلت غرفتي بعد أن فتحت الباب، لم يكن لها مطلب، كانت فقط تريد دخول غرفتي، جلست على حافة السرير، نسيت أقول لك يا سيّدنا إني اشتريت سرير، المهم، قالت وهي تهز رأسها: يا ”صبحي“ إعمل لي شايا.

قلت لها: الست ”جميلة“....

قطعت كلامي، وقالت: أعطيتها قرصا مهدئا، ستنام حتى الصباح مثل الميّتة.

قلت: الست ”جميلة“ تتعاطى مهدئات!؟

بدا الصّيق التّاج عن ضجر، يرفرف في سماء وجهها الصافي، قالت: منذ الليلة سنتعاطاها.

قلت: لماذا!؟

كان وشيش الوابور خافتا، لكنه كان قد ملأ غرفتي بحالة من التوتّر، وكنت أضع عيني في الكنكة، أراقب الشّاي، الذي لمّا يبدأ في الغليان، سيفور منسكبا على الثّار المتدقّقة.

قالت: أريد أن آخذ راحتي، أريد أن أجلس من غير أن يضغط القلق على روحي، كفاني ما أصبت به من كبسة أبي على نفسي.

فار الشاي، وارتفعت طبقة كثيفة منه تريد الانسكاب، فرفعت الكنكة من على الثَّار قبل هذا الغليان.  
قلت: كان خائفا عليك.

قالت: كان خائفا على نفسه، لمَّا كان يعرف أنني تأخرت يوما عن ميعاد عودتي من المدرسة إلى البيت، يترك المحل ويأتي ليضربني، ليس له ولد ولا بنت سوى، ورغم ذلك كان يضربني ضربا بشعا، ويزعق: تريدان أن تأتي لنا بالعار!  
كان خائفا من العار يا "صبحى".

بعد أن أدت مفتاح نَفَس الوابور، خرج الهواء المكبوت في قلب فنطاسه الصغير ليمتزج بهواء الغرفة، فانطفأت الثَّار، وخمد وشيشها.  
قالت: وأمي صارت مثله، تخاف من العار اللابد في جسمي.

كنت أصب الشَّاي في الكوب الوحيد الذي أملكه، الكوب الذي أخذته من نجح "أبو ليلة"، كان الكوب الوحيد المعمول من زجاج في بيتنا، ولم يكن ضروريا لي أن أشتري أكواب أخرى، فليس لي ضيوف أقدم لهم شايًا في أكواب.

ولمَّا رفعت وجهي، مادًا يدي بكوب الشَّاي إليها، رأيت ما لم أتحَيَّل أبدا أن أراه، أعجب منظر، أعجب حتى من منظر الدَّب وهو يضع رأسه مطمئنًا على فخذك، أو على فخذ الرَّاهب "بولس".

كانت "سيرين" تفتح بلوزتها، ملابسها العلوية، لتكشف عن صدرها.

”يا يسوع إرحمني، أنت دعوت الآب ألا يضعك في التجربة، فلماذا تضعني فيها؟“

كنت قد نسيت ”المسيح“ طوال السنين التي مضت، مع أن ”أسيوط“ هي بلاده المباركة، لكن ”أسيوط“ هي أيضا بلاد القرش والتعريفة، تعريفة تضعها على تعريفة تصيران قرشا، والقرش على القرش بمرور الأيام يصيران جنيا، وقعدتي مع المعلم ”نظير“ علمتني أن ”الجنية“ قوّة عظمى، والتجار المسلمين صاحبوا المعلم ”نظير“ من أجل الجنية، لا من أجل ”المسيح“، النَّصاري في نجع ”أبو ليلة“ جيوبهم خاوية إلا من ”المسيح“، فلم يُغر ”المسيح“ المسلمين بالجلوس مع شعبه هناك، الجنية أقوى من ”المسيح“، فاندشغت به عنه، ولم أكن مخطئا، فأى غبي في هذه الدُّنيا يمكن أن يهتم بالأضعف؟!

كان باب غرفتي مفتوحا حتى هذا الوقت، فقامت ”سيرين“ وأغلقتني، كنت جالسا على كرسي خشبي واطئ أمام عدّة الشّاي، وكوب الشّاي ما زال في يدي الممدودة، وقلبي يضرب ضلوعي، لماذا تفتح ”سيرين“ صدرها وتغلق الباب؟!

اضْطَجَعْتُ على السرير نصف اضطجاعة، مثكئة على كوعها، أخذت مني كوب الشّاي، وصدرها العاري يتوهج بحمرة أشعة الثُّور الطّالع من فتيل اللبنة ”العويل“، آه يا خطيئتي، وحق ”المسيح“ بلواي أشق وأصعب من بلوى ”آدم“، هو فتنته شجرة، ثمرة ممنوعة، طعام أكل، لكن أنا فتنتي ”سيرين“، شجرة ملائنة بكل أنواع الثّار، شجرة حيّة، لها عينان شبقتان، تقولان ”أقبل وكل أيها الجائع“، و”المسيح“ الحى بلواي أوعر من بلوى ”آدم“.

قالت: ”بابا“ كان يدخل غرفة نومه، فكانت ”ماما“ تدخلني غرفتي، تطفئ أضواء الشقّة، إلّا من لمبة وحيدة أمام الحّمّام، ثم أسمع باب غرفة أبي ينغلق برفق، وأحس بوحدة قاتلة تحوطني، ولولا صورة ستّينا ”مريم“ العذراء، الملتصقة بالجدار المقابل لي، كنت مت من الخوف.

في ليلة قلت لـ ”ماما“: لماذا تنامين في غرفة بابا، ولا تنامين معي؟! هو كبير لا يخاف، وأنا صغيرة، وأخاف.

ضحكت، وقالت: الكبار ينامون مع الكبار يا ”سيرين“.

قلت لها: لكنك تأكلين معي، وتقعدين معي طول النهار، فلماذا تتركيني عندما يأتي الليل؟

رشفت ”سيرين“ من كوب الشاي رشفة هامسة، وابتسمت، ودارت برأسها تنظر إلى جدران حجرتي، ثم قالت: لولا أني أعرف إنك مسيحي لظننتك مسلما، ولا صورة للمسيح، أو ستّينا ”أم الثور“، أو الملائكة التي تقبض بأيديها على الرّماح، ولا حتى صورة قديس واحدة!؟

قلت لها: غطّي صدرك العاري يا ”سيرين“، ”المسيح“ لمّا يكون في القلب أفضل.

كانت فرصة لكي أظهر تديّبي، ومحاولة دفاع في مواجهة هجوم غوايتها، لكنّها لم تغط صدرها، بل لوت شفّتها بنصف ابتسامه مأكرة، وهزّت ثديها، فارتفعا ليظهر نصفها.

"اغفر لى يارب كلامى الآثم الذى أقوله الآن، لكن أقوله كى يعرف هذا الشيخ ماذا فعلت معى الدنيا، وليعرف أنى، رغم كل ما جرى، ما جئت إلى هذه الصحراء ملوئا بإثم".

رشف "سيرين" رشفة شاي أخرى، وكررت بضحكة فاتنة، وقالت: أمى ارتبكت ولم تُجبنى، لكنّها زعقت: صدّعت رأسى يا "سيرين"، كلامك كثير، أسكتى.

قالت: سكتُ، لكنى تكلمت مع صديقتى "روزا"، قلت لها: "بابا" و"ماما" يتركانى ليلا، ويدخلان حجرتهما، ويغلقان بابها.

فقلت لى "روزا": مثل "بابا" و"ماما" أيضا، لكن أنا عرفت لماذا "بابا" و"ماما" يغلقان الباب، إنها يتشاجران، تسَلَّتْ مرّة من غرفتى، واقتربت من باب حجرتهما، وسمعت "ماما" تن، وسمعت "بابا" يتأوّه، إنها يتشاجران كل ليلة يا "سيرين"، مع إنها طوال النهار يكونا مثل "سمن" على "عسل"! كان عمرى ست سنوات، وكنت أحب "ماما" جدا، وكنت أحب "بابا" أيضا، لكن "ماما" طول عمرها حنونة، تقْتَلِنى كثيرا، وتشتكى لى أحيانا من جفوة "بابا"، كانت تصعب علىّ لما أراها راکعة أمام صورة "المسيح"، وتشتكى له همومها، كلام "روزا" جعلنى أفكر فى أن "بابا" ربما يضرها ليلا.

فى هذه الليلة تسحّبت من فراشى، مشيت فى الطّريقة المعتمة، حتى اقتربت من باب غرفتها، كان هناك صمت، وكنت أشعر بخوف، أحس أنى اعمل شيئا خاطئا، لكنى اطمأنت على "ماما"، وعندما استدرت منسحبة، انبثق صوت أمى بتأوّه خاطف، توقّفت مكاني، لكن الصّمت كان قد حلّ مرة أخرى، ليحل فى قلبى رعب، كانت صورة الشهيد "مار جرجس" الرّائب

على فرسه، وقابضا على حربة، يرشق سنّها في قلب التّين، معلّقة على الجدار المقابل للطّرفة، وكانت صورة كبيرة، وظلال الصّوء القادم من اللّمة الوحيدة المضاءة عند الحمام، تسقط شاحبة عليها، أحسست بالتّين يتحرّك، يحاول الاعتدال من استلقائه تحت سيقان الفرس، الفرع شلّنى، و”مار جرجس“ يرفع الحربة ويغزّها مرّة ثانية بكل قسوة في قلب التّين، ييسّتى حربة الشّهيد، فوقفت مرعوبة، لترتفع تأوهات أمى متتالية، كأن سكينا تمزّقها، رجّنى الهلع، فاستدردت، وانكبت على باب غرفتها، وأدردت الأكرة، فانفتح الباب، لأرى في ضوء اللّمة السهّارى الخافتة أغرب مشهد.



## يَا دِينَ مُحَمَّدٌ

- أنا رأيت هذا الجيش يا "حجيزي".

- الجيش الفارسي؟!

- نعم.

- الجيش الفارسي مازال في "مصر"؟!

- نعم، مازال في مصر، مدفونا بكامله تحت الرمال، هنا، في صحرائنا.

في صمت الصحراء، وبعد أن انسحب "الگرد" القاتل، لم يكن مسموعا لى غير ثلاثة أصوات، تَنفُّسُ النَّاقَةِ، ولهات الكلب، ودَقَّاتِ قَلْبِي، غير أن صوتا آخر بدأت أسمعها، ضعيفا، هامسا، مثل طنين نحلة بعيدة، لم التفت للأمر، رغم أن نحلة تبقى لتطن بعد هذا "الگرد" المالحق، هو شيء يلفت الانتباه، لكثي بدأت أنتبه لما علا الصَّوت قليلا، لأسمع صهيل خيول تتقدم من أفق لا أستطيع تحديده.

هببت واقفا، وأمل مرتعش تدفق فجأة إلى روعي، هذه خيول تصهل، لابد على صهواتها رجال، ووجود رجال الآن يعنى العودة إلى الحياة من بعد موت.



كل ما يحدث كان غريبا جدا، وفكرت، ربما يكون ما أراه هو قبيلة من قبائل العجر تمشي في طريق الترحال الدائم.

لكن حتى قبائل العجر لا تصنع كل هذا الصخب في ترحالها، كما أنى لا أعرف قبيلة عجرية واحدة ممكن أن تبلغ في كبرها حجما يسد الأفق هكذا.

اعتدل الكلب ناصبا ساقيه، بينما ألقى على فخذه، وتشتجت أذناه، وبرق القمر في عينيه، ونبج.

حتى قبائلنا العربية الأصيلة توقفت عن الترحال، وإذا قرر أحد بطونها الترحيل، علمت بهذا كل القبائل من قبل تحركه، كما إن قبائلنا تنتقل في الصحارى بصمت يتنافى مع مثل هذا الضجيج، ثم أين هذه القبيلة التي إذا تحركت سدّت الأفق؟!

ظهرت ملامح الخيول، وهياكل الأجساد التي تمتطيها، أفراس ضخمة، ورجال كأنهم العماليق، ثم طوفان من جمال فوقها الهوادج تتأيل، وبشر يسبح مثل التمل، وكانوا يتصايحون بكلام كأنه رطن الإنجليز، كلام غير مفهوم أبدا.

وفي لحظة خاطفة، كان كل هذا يجتاحني، الرجال يرتدون الحديد، السيوف في أعمادها المعلقة بجنوبهم، الهوادج تهتز فوق أسنمة الثوق، تكاد تسقط على رأسى، وغرقت في بحر من كائنات تتحرك إلى اتجاه واحد، ثم اصطدمت بي هذه المرأة، "جاله"، وكانت تجر بغلا.

ماذا أقول لك يا "حجيزى" عن "جاله"؟! أقول: كل حريمنا ضعهن في كومة، و"جاله" ضعها في كومة وحدها.

لَمَّا صدمتني بكتفها، نظرت لى بعينيها، فنظرت فيها، فنسيت ما أنا فيه، ولمَّا الزيادة كانت ابتسامة انسلطت، فما شعرت بها وهي تمسك يدي، ولا شعرت بها وهي تعتلى البغل، وتركه بالمقلوب، ثم تجذبنى لأعتليه، فيصير وجهي مقابلا لوجه أجمل الحسنات، "جاله".

"جاله" لها عينان، ما هما بعيني بقرة، ولا بعيني غزالة، ولا هما الليل، "جاله" عيناها أيام وليالي، وشجن ضاحك، وغنج رصين، وسعادة الحزن، ما أعرف كيف يكون هذا؟! لكنه كان.

ولها وجه يا "حجيزي"، لا تقل لى بدرا منيرا، ولا رغيفا طازجا، "جاله" لها وجه يرتع في جمال ما رأيت له مثل أبدا.

ضحكت في وجهي، ورطنت، وبسطت كَفَّها على صدرها، وقالت: "جاله".  
وغرست طرف سبَّابتها بين ثديي، وهزَّت رأسها، كأنها تسألني عن اسمي، فقلت: "غنيمة".

أحاطت بكفَّيها جانبي وجهي، فسرت رعدة في جلد جسمي كله، كانت البسمة تملأ وجهها، رطنت هامسة، ما فهمت شيئا من رطنها، لكنَّها مالت برأسها ناحية رأسي، وقبَّلتني.

"جاله" جسمها لدن، مليان ومربرب، وبشرتها حمراء، نور البدر يلعب فيها، وشفتاها طريَّتان، لكنَّها أكلتا شفتي، وضغطت على فكِّي ففتحتها، لتستلقَّف لساني، وتمصُّه، حتى كادت تقلعه من جذوره، هذه قُبلة "جاله" التي ضعفت أعصابي، وجعلت دمي يجري هادرا في عروق مستسلمة، ليستند الصَّعيف، وينتصب المرخى.

المحممة، والصَّهيل، وتصايح العسكر، وغناء فارس تستشعر في بجة صوته  
أحزان الغريب، وثغاء الثوق، وأنا ما عدت أنا، لما أحاطت "جاله" رقبتي  
بذراعها، تأكل شفتي، ويدها الأخرى تقبض على الذى انتصب، وتدلّكه.

شئ موضوع في أجسادنا يا "حجيزي"، إذا استنفرتَه النساء، طيرونا لنعود  
إلى الجنة، ونساؤنا ما يعرفن الذى فينا، "جاله" تعرفه، واستنفرتَه، فطرت،  
غبت عمّا هو حولي، إلا "جاله" التى كانت تطير محلقة، وملتصقة بى، تدفع  
أجنحتى، فأعلو.

"جاله" هاجت مثل جمّل غاضب، فضغطت بكل جسدها علىّ، لأستلقى  
إلى الوراء، وتركبني، والبغل يرحّ جسدينا، فيتحرّكان متواجين مثل لساني  
لهب، تداعبها نسمة.

كانت تصهر جسدى كلّه، بجسدها كلّه، كأنها تريد أن تدخلنى فيها، أو  
تدخل فىّ، وكنت أغيب وأفتح عينيّ، فأرى شعرها الذهبى يتراقص تحت  
منديل موشى بزروع خضراء.

وكعادة "الگرد"، يهاجم بقوة، وبسرعة خاطفة، هجم كالبرق، فرأيت منديل  
رأسها يطير، وشعرها ينسكب مفرودا فى اتجاه الرّيح مثل نار، لكن "جاله"  
لم تنتبه، كانت منهمة فى التهاى، وأسنانها تكاد تقطع صدغى، لكن أنا  
أعرف "الگرد"، وأعرف أنه قادم لنا بالدّفن تحت الرّمال، فحاولت أن أدفعها  
عنى، لكنّها كانت قد صارت قطعة منى، لا يمكن نزعها.

وضرب "الگرد" ضربته العاتية، ليقلعنا من فوق البغل، ويلقى بنا فوق الرمال، فانفلتت "جاله" منى، وجلباها الواسع المعقود حول وسطها بحزام قماش يرفرف كأجنحة الطيور، كان الرجال يحاولون إناخة الثوق، وكانت النساء تصرخ من الرعب، وضاع سهيل الخيول في عذيف الريح الجبارة.

انفك نظام الجيش الفارسي، كنت أرى المخاليق تحاول الجرى نحو التياق والخيول والبغال، أنزعت الهودج من فوق أسمة الجمال، وطارت في الهواء مثل علب الصفيح، لتخبط الناس وهي تسقط، وكان هناك من يحاول التثبث خلف هذه الهودج، وأخرج الكثير منهم سيوفهم، وغرسوها في الرمال، وحاولوا التعلق بها، غرسوا الرماح أيضا.

أمسكت بجسد "جاله"، احتضنتها، واحتضنتني، كانت تبرطم في هلع، صوتها خافت مستغيث، كان كل منا يحاول التثبث بالآخر، ركلتنا الأقدام الفزعة، لكن دحرجتنا الريح، ليبدأ بعدها أسوأ ما في الأمر، بدايات الدفن.

رمال خفيفة، مقدوفة، تضرب الجلد مثل رعوس حراب من نار، وتملاً العيون باللهب، "الگرد" يُخضع المخاليق بهذه الرمال السفيفة، يُعجزها عن الحركة لما يضطرها إلى غلق العيون، فتستسلم راغمة إلى السكون، والسكون في "الگرد" يعني الموت، ولا شيء آخر.

بهت ضوء القمر النَّاصع، وصرنا كأننا في سحابة شاحبة بيضاء من دخان، ولم أعد أرى سوى قباب ظهور الحيوانات، وأكوام من الناس ملقاة حولها من غير حركة، وصياح الرجال المرتعب يختلط بعويل النساء، لتطير العاصفة هذا المزيج من الأصوات البائسة إلى بعيد.

والتصقت بـ"جاله" أكثر وأكثر، كانت بوابات الرمال قد انفتحت في السماء، فبدأت تنصب صبا، لتستسلم كل الأجساد تماما للردم، سمعت حشرات

”جاله“ تخرق أذنى، لكن أنا كنت أواجه الموت أيضا، وما كان بمقدورى فعل شىء غير التمنى على الله فى علاه أن ينهى كل شىء بسرعة، ومن غير عذاب طويل.

وفعلا، أظلمت الدنيا فجأة، ولم أشعر بأى شىء.

\*\*\*\*\*

اتهى ”سليم“ من نحت التمثال، دارت الأطفال الرُّعاة حوله، ودارت ”سكيرة“ حوله تنظر إليه مبهورة، تسأل نفسها: كيف استطاع ”سليم“ عمل هذا.

كانت تنظر إلى نفسها، التمثال يشبهها تماما، هى نفسها، لكنها مقدودة من حجر، حجر دبَّت فيه الحياة، يضحك، ويشم وردة.

”سليم“ يعن النَّظر فى عينيها المذهولتين، فىرى فيها إعجابا يركض، فيشف وجهه بابتسامة خجولة.

يصرخ ”سلمان“: دى ”سكيرة“!

حتى لكأن الغنم أعجبها التمثال، إذ أنها تركت الرِّعى، وأخذت تتكاثر حول الأطفال، الذين كانوا ينقلون أبصارهم بين ”سكيرة“ والتمثال بأفواه مشدوّهة.

لم تكن ”سكيرة“ تظن أنها جميلة هكذا، ولا رقيقة هكذا، وتمتت لو أن بيدها الآن وردة، لتشمّها مثلما يفعل تمثالها الجميل.

- زين، حلو.

- أعجبك؟!

طأطأت رأسها، ونظرت إلى الرِّمال، وهو أيضا.

\*\*\*\*\*

الثّاقناتن تمضيان على نفس التّغم الرّتيب، كأنّهما خُلقتا لصنع الرّتابة والملل، يهتز  
جذع ”حجيزى“ على الأولى، وجذع ”بكير“ يهتز على الثّانية.

اختفت ”الوعرة“ تماما، بينما أطلّت من الأفق قمم الصّخرات الأربع الشّاهقة،  
تلك التى تحيط بجبّانة الموتى، تلك التى تشبه الموميאות الفاتحة أفواهها،  
تريد ابتلاع السّماء.

بدا ”حجيزى“ وكأنّه يريد أن يبتلع بعينه كل المشاهد، فكل ما يراه الآن لن  
يراه مرّة أخرى، انقضت فرص الحياة، ومّت الخسارة.  
”متى بدأت خسارتك يا حجيزى؟“

”بدأت منذ بدأت تفتّش، لا يعيش الحياة من يقضى أوقاتها فى التفتيش، ثم  
إن ”شديد“ أبك علمك التفتيش فى أخطر صندوق، جسم الإنسان، ومن  
يعلم سر صنعة الإنسان، يكرهه“.

عندما قرّر أهالى ”الوعرة“ بناء ”مبضأة“ للمسجد، بدأوا يحفرون لها  
أساساتها، وفى لحظة صاح أحدهم: أعوذ بالله، يا دين ”محمد“! تعالوا انظروا.  
تكوّم النّاس فوق الحفر، ونظروا باندهاش وفرح لرأس حصان يتكشّف تحت  
الرّمال، رأس حصان بلحمه الطّرى، محاط بسيور لجام من الجلد، ولما سحب  
أحدهم جفن عينه جمّطت مثل الرّجاج، وأخذ النّاس فى سحب الرّمال،  
لتتكشّف رقبته، وشعر عُرفه، ثم صدره، وساقاه الأماميتان، كان النّاس  
يهلّلون وهم يضربون أكفّهم ببعضها، وعيونهم حائرة من العجب، يعلمون أن  
”الوعرة“ واحة عمرها مئات السّنين، هل يُعقل أن يبقى حصان ميّت،



مدفونا في الرمال مئات السنين، كما هو؟! لا تنهراً من لحمه أدنى قطعة، ولا تنبعث منه شمة عفن؟!

اتسعت الحفرة، وأخذ الناس يسحبون الرمل أكثر وأكثر، كان "شديد" أكثرهم حماساً، يزج الرمل بيديه وكله لهفة، كمن وجد كنزاً، لم يكن مندهشاً بقدر ما كان فرحاً، كل أهل "الوعرة" يعرفون عشقه وغرامه بالجثث، يأخذها، ويشق بطونها، ويحطّطها، ويرصّها في حجرات بيته، فتبدو وكأنّها حيّة، حتى يأتي بعض الرهبان بصحبة إنجليز أو فرنساويين ويشترون محطّاته هذه؟

زاد هياج الناس لما تكشّفت لهم قدم إنسان، قدم كاملة في كامل بهائها، تلبس حذاء جلدياً خفيفاً أحاطها بسيور سميقة، وتفجّرت طاقة أهل "الوعرة"، والتف الأطفال حول الرجال، وتسرّبوا من بين سيقانهم، ليطلّوا براء وسهم ناحية الناس في باطن الأرض، وقد مالوا على شيء لا يروونه، ويرفعون الرمال في العلقان، كان "حجيزي" يطل هو الآخر باحثاً عن أيه "شديد".

استلزم استخراج جثة الفارس وحصانه نهاراً كاملاً، كان "شديد" حريصاً على عدم تمزّق الجثتين، بحكم خبرته يعلم أنها ليستا بالقوّة التي تبديان عليها، وإنها عند أقل حركة غير مدروسة من الممكن أن تنهارا مثل جرف.

وعلى ضوء المشاعل بدأ الرجال والأطفال التفرس في ما يروونه من عجيبية، حتى النساء تلصّصن للفرجة على الفارس الذي يزغ من تحت أرض المسجد، ميتاً مع فرسه منذ مئات السنين، لكنه كامل البهاء تماماً، مثل فرسه.

الفارس ملابسه غريبة تماماً، لا تشبه ملابس أهل "الوعرة"، ملابسه قصيرة، وثقيلة، تغطّي أغلبها بصفائح حديدية مصطفة بإحكام، أخذت شكل

ريش طائر ضخيم، وتحصن رأسه بخوذة من نحاس أصفر براق، فخبأت كل وجهه، ما عدا عينيه المسبلتين، ولحيته السوداء القصيرة، ورقبته الغليظة.

كان الفرس مستلق على الأرض، وبجواره الفارس، بديا تحت أنوار المشاعل المهترئة ضخمين، وعندما حاول أحد الرجال نفض الرمال عن فخذ الفرس، زعق "شديد": لا أحد يلمسه، الشَّعر سيتساقط من مكانه، ويتشوّه منظره، أنا سأنتصرّف.

كان "حجيزى" وقتها صغيرا، ينظر بعيني طفل إلى كل هذا، ولم يكن يفهم حجم المعجزة، بقدر ما كان أبوه يفهم هذا.

ساعد أهل "الوعرة" "شديد" في نقل الجثتين إلى بيته، كان الأمر أصعب مما يتخيّل الجميع، احتاج مفروشات وأقمشة وأخشاب، وتسوية أرض، وتجهيز عجلات صغيرة، وزمنا ومجهودا امتدّا حتى أذان الفجر.

غرفة التّحنيط باردة، واسعة، لا نوافذ فيها غير طاقة ضيّقة جدا قرب السّقف، ينسل منها ضوء النهار خافتا، كان الفارس قد وُضع على المنضدة الكبيرة المقامة في وسط الغرفة، والفرس مقلوب على ظهره في أحد جوانبها، وقد بسطت تحته سجّادة كبيرة من "الحلفاء" الجّافة تغطّت بقماش سميك.

لم ير "حجيزى" أباه، في يوم من الأيام، سعيدا كل هذه السّعادة، كان يتيئاً لعمله وفي عينيه فرحة رصينة، كانت هذه المرّة الأولى التي سيحيّط فيها جسدا آدميا.

كما أنها كانت المرّة الأولى التي يرى فيها أباه، وهو يخلع كل هدومه، ولا يُبقى على جسده غير سرواله الدّاخلي الطّويل.

كان الأمر مخيفاً لـ “حجيزى”، وظهر ذلك الخوف فى عينيه، وسأل أباه لأول مرة هذا السؤال: لماذا تحبّط الجثث فى هذه الغرفة المظلمة، لماذا لا توقد مصباحاً يضيئها؟!

كان “شديد” قد أمسك بمشروط طويل النصل ورفيع، وبدأ يقطع به من أسفل الجسد المسجى، عندما توقّف فجأة، وأخذ يتأمل هذا الجسد المستكين، كان الإعجاب يتنطّط فى عينيّ “شديد”، همس: هذا يا “حجيزى” فارس شاب، لا يزيد عمره عن خمسة وعشرين سنة، جسده فى أوج اكتماله، أنظر لعضلاته، مازالت منتفخة وصلبة، جسد مثل هذا كنت أظن أنه سيكون أكثر تهزّواً بعد دفن استمر لمئات السنين، لكنّه مازال وكأنه مات بالأمس.

سكت “شديد” قليلاً، ثم قال مبتسماً: كأنه لم يميت أبداً، كأنه نائم.

- تسأل سؤالك يا “حجيزى” يا ولى، ماذا تريد أن تعرف؟ هل تريد معرفة سر الصّنعَة، أم تريد معرفة سر حكمتها؟!

- أنا أريد يا “شديد” معرفة لماذا نعمل هذا العمل فى غرفة مظلمة وباردة؟

- أنت إذن تريد معرفة سر الصّنعَة، لكن ليس بماهر من لا يعرف سر حكمة صنعته أيضاً، وأنت يا “حجيزى” ولى الذى خرجت به من الدّنيا، تتعلّم سر هذه الصّنعَة منى، واعلم سرّ حكمتها.

وبينما يسحب يده من جوف جسد الفارس، قال “شديد”: قَرّب الطّست.

زحزح “حجيزى” الطّست النّحاسى الكبير، حتى صار أسفل “شديد”، الذى رفع كلتا يديه وقد قبضتا على أحشاء الفارس كاملة، ليلتقى بها فى الطّست.

أغرقت الأحشاء حوافّ الطّست بالدّماء، أخذ "شديد" يقلّبها بيده، ويتألمها، القلب، الرئتان تحيطان به مثل جناحين، قصبه الغضاريف التي بينهما، المصارين، المعدة، رفع "شديد" وجهه، ونظر في عيني "حجيزي" المرتعبتين، ابتسم بسمة فيها حزن، وقال: أحشاء مثل أحشاء خروف، أو أحشاء جمّل.

طأطأ "شديد" رأسه ناحية الأحشاء، وأخذ شهيقا، فبدا الامتعاض على وجهه، قلب شفّتيه، وقال: بل إنّها أكثر عفنا.

أخذ يعصر ليمونا كثيرا، قال: إذا فارقت الأرواح الأجساد بردت، والبارد تفتته الحرارة، إذا اضطرت لعدم دفن الميت، فلا بد من أن تضعه في مكان بارد، وإلا تفتّت وتعفن، والثور حرارة يا "حجيزي"، لو تركناه يدخل الحجره سيسخّنهما، وإذا سارع الجسد نحو الفساد، ضاق أمامنا الوقت اللازم لتحنيطه، هذا يا ولدي سر الصّنعَة.

رفع الماجور المملوء بعصير الليمون، ودلّقه داخل تجويف الجسد المسجّي، أدخل يده وأخذ يدعك بجذر وبيطاء، همس همسا معجبا: صدر الانسان من الدّاخِل يختلف يا "حجيزي"، رحب وواسع!

كان يتحسس جوانبه منبرا، همس: بناؤه عجيب!

ثم أخذ "شديد" يحقّف الجوف بقطن ناعم باتقان، وبعد أن انتهى، حشى الجوف كله بكمية كبيرة من الملح، ثم أمسك بجديدة صغيرة مبطّطة الحواف، واتجه إلى الرأس، ليقلع عينيها.

كان الصّمت يعم المكان، كأن الوقت ليس نهارا يضح بالحركة، وكأنّ "الوعرة" كبس عليها سكون عجيب، لا أصوات ناس ولا بهائم ولا طيور، ولا حتى شقشقة عصفور شريد، فكان همس "شديد" متجلّيا: الموت لا يتفق مع

الحياة، كما لا يتفق الثور مع الظلمة، كما لا تتفق برودة مع حرارة، إذا أردت أن تحيط جثة ميتة، فافعل ذلك بعيدا عن مظاهر الحياة، لو أنك وضعت جثة داخل الثلج، وتركت بجوارها نورا، ستفسد مع مرور الزمن، الحياة لا تقبل الموت، هذا يا ولدى سر الحكمة.

يتذكر "حجيزى" أنه فجأة سأل والده: لماذا لم تحيط أُمى يا "شديد"؟  
ويتذكر "حجيزى" أن "شديد" صمت طويلا قبل أن يجيبه، كان منهمكا تماما في قلع العين.

\*\*\*\*\*

اقتربت الصخرات الأربع العملاقة، المحددة لجبانة موتى سكان "الوعرة"، وها هو المدق المؤدى إليها يتفرع عن المدق الأصلي المؤدى إلى "موط".  
فوجئ "بكير" بناقة "حجيزى" تنحرف إلى مدق "الجبانة"، فهتف: يا "حجيزى"!

لم يجب "حجيزى" على هتاف "بكير"، واستمرت الناقة تمضي في طريقها، فلم يجد "بكير" بدا من متابعة أبيه.

هنا، بالضبط، سقط "سعدون" مغشيا عليه، فمله الرجال على أكتافهم، تتقدمهم جنازة "جميل" وأمه "بشينة".

تتقدم النَّاقَتان نحو "الجَبَّانة"، ونور الشَّمس المتَّجه للمغارب يتوهَّج على الجانب الأيمن منها، ليرتقى ظلَّاهما وظلًّا راكبيهما طويلين على الرِّمال، يتراقصا على آكام صغيرة مثل أمواج نهر.

هنا نسي "سعداني" أن ابنه "صالح" ميّت على ذراعيه، فحاول أن يحمله على كتفيه، ليدلّل رجليه حول رقبته.

من هنا عبر كل الأموات، فوق أكتاف الأحياء، يحملونهم إلى قبور، يحفرونها بعيدا بعيدا، يدفنونهم فيها، ويتركونهم ليأكلهم التّسيان، الحياة يا "حجيزى" أمكر من الثَّعالب، تنتصر على الموت دائما بحجة أن رأحتة عفنة، وأنت يا "حجيزى" تحمل الآن على كتفيك آمال كل البشر القادمين من المستقبل، في الأُلأ يُدفنوا بعد موتهم، ويبقون على ظهر الحياة، يمارسونها بوضعهم الجديد.

"أنا الميّت الوحيد الذى يعبر إلى هذه الجَبَّانة على هذا المدق، ثم يعود منها عبره أيضا، وهذه أوّل بشارت التّصر فى معركتى الطّويلة".

تعبر النَّاقَتان بجوار الصخرة البحرية من الغرب مثل حشرقى نمل تنسابا بجوار رجل فارع الطول، وتتجلّى مشاهد القبور المتناثرة فى مساحة واسعة بين الأربع صخرات، أكوام من رمل تعلوها أبحار مختلفة الأحجام.

"لا كرامة للموتى فى هذا الرّمن، الفراعنة كانوا يهتّمون بموتاهم، يبنون لهم غرفا واسعة تحت الأرض، ويضعون لهم فوق قبورهم أبحارا ضخمّة مزوّقة بصور منحوتة"

- أنا رأيت هذه المقبرة يا "غنيمة" بجوار "موط".
- كانت الدنيا رائقة في أيامهم يا "حجيزى"، وأوقاتهم فضاء، الدنيا في أيامنا مشحونة مشاغل، ولن نضيع الوقت في الاهتمام بالموتى.
- الشَّيخ "مزيد" يقول أن القبر يتحوَّل إلى قطعة من الجَنَّة للصالحين، ويكون مَنسَعًا.
- يكون أوسع من "الوعرة".
- هذا كلام يضحكون به على الموتى يا "غنيمة"، ويريجون به ضائرهم، الحقيقة أن الحياة صارت مغرية لدرجة أنهم لا يصبرون على بناء قبور تليق بأحبائهم الموتى.
- أستغفر الله العظيم.

وقفت النَّاقَتان على قبر "سعدون"، قبر جديد بالكاد يتم يومه الأوَّل، مازالت آثار المياه بادية على الرِّمال، وأقدام النَّاس مطبوعة بالصَّمْت، وكان يلتصق بقبر قديم، قبر "زليخة".

وها هو قبر "غنيمة"، قريب من قبر "سعدون"، وجديد أيضا، بالكاد انقضى على بنائه أربعة أيام.

أناخ "حجيزى" ناقته، فأناخ "بكير" ناقته، ظلَّ الصَّخرة القبليَّة من ناحية الغرب ينشر العتمة في المكان، وتنتشر الرَّهبة بانتشار مئات من ظلال شواهد القبور.

البئر "المرة" محاطة بجدار واطى يلتف حولها، ومقبض جلب الماء الخشبي تصلب ساكنا أسفل غراب وقف عليه، ينكت بمنقاره تحت جناحيه.

تقدم "حجيزى" بخطوات وبئدة نحو قبر "سعدون"، وتوقف قبالة الناحية المقابلة لقدميه، تحشرج صوته وهو يقول: السلام عليكم يا "سعدون".

كانت عيناه تنضحان دموعا، وكان ينظر إلى قبر "غنيمة" وهو يهمس،: "غنيمة" لما مات تركنا اثنين، نتعاون على الحزن، لكن أنت يا ابن الكلب تتركنى لمن؟

مسح مخاط أنفه في كم قميصه، وقال: الحمد لله، باقى لى يومان فقط.

رفع "حجيزى" صوته، دون أن ينظر فى عينى "بكير": اعمل لنا شايًا.

وتأمل قليلا قبر "سعدون" الملتصق بقبر "زليخة"، ثم ذهل "بكير" وهو يرى "حجيزى" يميل بأذنه ناحية قبر "سعدون"، ويقول: أنا أسمعك يا "سعدون"، قل.

- أنت تريد ألا تُدفن فى قبر، وأنا يا "حجيزى" أحلم لو يدفنونى فى قبر واحد مع "زليخة"، ما أقدر أتخيّل الحياة من غيرها، وما أقدر أتخيّل الموت من غيرها، تعرف يا "حجيزى"، أنا أفكر فى عمل غرفة تحت الرمال فى "الجبانة"، مثل غرفة المساخيط التى فى "موط"، تكون لى ولـ "زليخة"، نعيش الموت أنا وهى سويا.

- ولماذا غرفة تحت الأرض يا "سعدون"، خذ غرفة من غرف البيت، وأنا أحططكم، واجلسا فيها سويا.

- سيكون منظرنا مثل عفاريت مخيفة يا "حجيزى"، وسيتفرّج علينا الناس، ولن نأخذ راحتنا، قبر تحت الرمال مثل غرفة أفضل.



كانت "زليخة" من تلك التوعية من النسوة اللاتي لا يعشن مع أزواجهن زوجات فقط، ولكن أمهات أيضا، لم يخدمها أن "سعدون" عاش معها التسنين الطويلة التي لا تعرف عددها يضحك، ولا يتحدث معها أبدا عن عدم الخلفة، كانت هي نفسها تتعذب لأنها لم تربّ طفلا لها في هذه الحياة، حتى تتذوق طعم الأمومة الفياضة المكبوتة في أعماقها السحيقة، مثل ماء برّ استعصى على الشرب، فما بال الرجل "سعدون"، الذي يعنى الولد له أبوة وفرا وعزا!؟

كانا يركبان على سطح عربة نقل قضت مدة خدمتها ضمن عربات الجيش الإنجليزي، ثم تكهنّت وباعوها في مزاد ليشتريها الناس، ويتنقلون بها. العربة ترج على الطريق الرملى الصعب، ما بين "الخارجة" و"موط"، كان هناك أناس آخرون من أهالي الصحارى يركبون معهم، فلم يستطع "سعدون" أن يأخذ "زليخة" في حضنه ويواسيها.

كانا عائدتين من "أسيوط" يحملان قفّة كبيرة مملوءة بالحزن وخيبة الأمل، لقد قال الأطباء أن "زليخة" لا يمكن أن تنجب، وأن "سعدون" فيه بذرة عيال، لكنّها ضعيفة أيضا.

وفي "موط" حطّها في هودجها، وأمسك برسن الثّاقة، وشدّها إلى الدّرب الذي يبدو دائما وكأنّ لا نهاية له، ضاربا في الغرب، على لُجج بحر الرّمال.

وعندما رأى أنّها قد انغزلت في الصحراء، قال رافعا صوته: رأسك صلب مثل الصّخور يا "زليخة"، قلت لك نكتفى بما قالته "بهيجة" و"صدوق" العرّاف، لكن لا بد تتعبيننا.

فلَمَّا لم يسمع لها صوتا، على ضحكة إلى السماء، وقال: لكن أنا أقدر على الخلفة.

فقال بسرعة البرق: أنت بذرتك ضعيفة يا "سعدون".

وسكت "سعدون" لحظة، ثم انطلق يقهقه، وقال: أنا بذرتي ضعيفة، هذا طبيب حمار ابن كلب، لا يعرف شيئا.

عندما وصلا إلى شجرة البرتقال، التي تبزغ في هذه الصحراء المديدة شجرة وحيدة، يرتاح تحتها المسافرون، كان الليل قد وصل أيضا، فحمد "سعدون" الله أنهما قد وصلا إلى هذه الشجرة، فالمبيت في الصحراء تحت ظل خير من المبيت في الظل.

أناخ الثقة، وعندما همّت "زليخة" بالخروج من الهودج، زعق "سعدون": إصبري.

تقدم ناحيتها، ثم وقف يتأمل وجهها، وسرح، فنظرت في عينيه مندهشة، وقالت: مالك يا "سعدون".

قال: أتذكر ليلة الفرح يا "زليخة"، وقتما أنزلتك من الهودج المزين بالشرائط الحريرية الملونة، كنت مغطاة الوجه بالطرحة البيضاء، وكان نفسي أرى وجهك في هذه اللحظة، كان نفسي أرى وجهك وأنت تنزلين من الهودج ويدك في يدي، هات يدك يا حبيبة قلبي.

رفعت "زليخة" حاجبيها، وابتسمت، وقالت: الدنيا ليل، لن ترى وجهي في الظلام.

قال: وجهك يا "زليخة" بدر نوار، أراه الآن بكل تفاصيله.

أزلها من الهودج، وضمها في حضنه، فبكت، وهمست: أطباء "أسيوط" ذبحوني يا "سعدون".

وهو يجلسها على الصوفة التي فرشها على الرمال، ملاصقة لجذع شجرة البرتقال، قال: أطباء "أسيوط" بهائم، وأنا الآن سأجعلك تحبلين.

ضحكت ضحكة تحيي الأموات، وقالت ساخرة: يا رجل لِمَ ليلتك، ما قدرت تعملها في سنين، تعملها الليلة؟!

وهو يحيط بذراعه رقبتها، ويضغط عليها لتستلقي، قال: أنا كل ليلة أركبك يا بنت الناس، وأسقى أرضك، لكن أرضك ما تنبت زرع.

ضربت الكلمة قلبها، فضربت كتفه بقبضة يدها، وقالت: أنت بذورك ضعيفة، لا تنبت في أسخى أرض.

لسعت الكلمة روحه، فسحب ذراعه من حول رقبتها، وأعطها ظهره، وسكت.

كانت حبات برتقال ملقاة وقد أحاط بها سيف الرمل حتى منتصفها، وبدت داكنة بسبب ظلمة سماء ت برق فيها النجوم.

أحسّت ببرد الشتاء الصّحراوي المصاحب لليل، ولقّت ذراعها حول رقبة "سعدون" وجذبتة، فارتقى رأسه في حجرها، وسقطت على جبهته قطرات دموع دافئة، وهمست "زليخة": قُطع لساني قبل أن أقول لك هذه الكلمة.

اعتدل "سعدون"، التقط برتقالة مغروسة في الرمل، وقدمها إليها، وقال: كلي هذه البرتقالة، لتغيّر رائحة فمك العفن، حتى أستطيع أن أقبلك.

واستلقى على قفاه يضحك، بينما هي تزغده بقبضتي يديها.

هَمَسَتْ: الطَّرِيقُ!

قال: أين الطَّرِيقُ؟ ليس هنا إلا صحراء واسعة، ولا ظل يبدو في الأفق لمرتحل.

همست: النَّاقَةُ ترانا.

قال: هيا بنا خلف الهودج.

عمل "سعدون" في هذه الليلة العجب، وكان أول ما عمله، أن قال لها: أنا سأجعلك تحبلين وتلدِين الآن.

فهاجت مكامن "زليخة".

التقم شفيتها، وأخذ يمصّها، وكانت يده تزيح أغطية رأسها، وتفك عقيدة شعرها لينسال كالحريز، وتسيخ أعصابها، وتهيج مكامنه.

ذهب برد الصَّحراء عندما بدأت نار المعاشرة تتأجج، وكانت شفتا "سعدون" تأكلان لحم رقبتها، ويده تفك أربطة ملابسها، وفتحت "زليخة" عينيها بعد جهد، فرأت حَبَّات البرتقال معلّقة بأغصان الشَّجرة تشتعل بالحمرة، فأغلقتها.

من فتحة الصَّدر الواسعة بزغ نهد مضى مثل عجينة الخبز، وكان "سعدون" جائعا من أثر الرِّحلة المجهدة، فأكل طويلا، حتى أن "زليخة" لم يعد لها وجود، وكانت يده على بطنها، وأصبعه الوسطى تدور على حواف السُّرة، ثم تنغرس في عمقها، لتمتص رحيق الحياة.

وعندما أتت "زليخة" أيننا طويلا، رغت النَّاقَةُ، فأفاقت "زليخة"، وأرادت أن تعتدل، خوفا من أن تكون النَّاقَةُ قد رأت قادما على الدَّرب، فضغط

عليها "سعدون"، وهمس بصوت ملثا: الثّاقة سمعت أُنينك فضبعت،  
تطلب الذّكر.

انسدحت "زليخة" على الصّوفة مرّة أخرى، ونغجت: مسكينة الثّاقة.  
وضع "سعدون" شفّتيه على حلمة أذن "زليخة" وقال: صَعْب عليك حال  
الثّاقة؟!!

كان يرضع حلمة أذنها، فهمست بصوت بعيد حالم: مسكينة الثّاقة.  
أخذ "سعدون" يدها المستسلمة، وسحبها حتى رححه الملتهب بين ساقيه،  
فقبضت عليه، قال بصوت محموم: ما تقولين في رمحي؟  
شهقت شهقة خاطفة، وقالت بصوتها البعيد: طويل يا "سعدون"، أطول من  
كل مرة، ونار.

همس في أذنها: لا يصعب عليك حال الثّاقة، رمحي يكفيك ويكفيها.  
همست: أمك ما ربّتك يا قليل الأدب.

وكانت ستقول شيئا، لولا أنه كان قد قبض بيده على كأسها المملوءة شهوة  
وجمر، فخطفت صرخة مائعة.

قبض على الكأس قبضا محكما، وأدخل أصبعه فيه يقبّل الجمر، والجرم يلسع  
قلب "زليخة" فتتأوه، ثم أخذ يلسع كل جلدتها فبدأت ترتعش.

ونبت من الشّرق بدر ضخم، عندما ألقى بنوره الأحمر على "سعدون"  
الواقف يزرع هدومه بلهفة، بدا جيّئا نحاسيا، يؤدّي رقصة متشجّجة فوق  
جتيّة عارية تماما، ارتمت مرتعشة في ركوة من حجيم.

ارتقى عليها مصابا بالشُّعار، فأخذ يعض كل قطعة من جسدها الفائر، وعندما وصل إلى الكامن يغلى بين قمعين من سكر، اهتبره بأسنانه وشفثيه ولسانه، فنشبت أصابعها في صدغيه، وصاحت بانكسار: ما عملت هذا من قبل يا مفتر، حرام على أمك.

صعد إلى أعلى، ومزّر ذراعيه من تحت إبطيها، ليسط كفيّه تحت رأسها، ويغرق أصابعه في موج شعرها، وألقى برأسه في جوار رأسها، كان يزفر بأنفاس محمومة، وكان يمرر رموحه بين ضفتي مجرى اللحم دون أن يولجه فيه، فتهمس "زليخة" بصوت باك معذب: حرام عليك يا ولد عمي، ما أصعب عليك؟! أدخله تبرد نارى.

همس في أذنها بصوت ملجلج فرحان: ما قلتِ مثل هذا الكلام من قبل يا شرموطة.

تاهت وقالت: مسكينة الثّاقة.

وفجأة انبثق ساقاها يضربان في السّماء، قمعا سكر، وربلتان فاجرتان، يريجهما زلزال، وتفتح "زليخة" مثل أفعى أصابها هوس: أدخله، أدخله.

وصارت طائر عقاب يطير إلى ذرى الفرح والسّعادة، وركب "سعدون" ظهره، يحكم قيادته.

غمس رأس رموحه في نبع اللحم، فهيج المتّقد، وتأوّهت "زليخة" آهة ممدودة متوسّلة، وهمست ترجموه: أدخله كله يا "سعدون"، ما تترك منه شيئا للثّاقة، أنا أحبك يا زوجى.

- تحبين رموحي.

- أموت في رموحك.

- وأنا أموت في كأسك.

- وكأسي يموت في رمحك.

غرس رمحه كله في نبع الّيران، متوّجّج في متأجّج، لتتغلق بصائر الأرواح أمام برق تبلّج، فغرست أصابعها في ظهره، تضمّنه إليه، وخرج من أعماق منطقة في حنجرتها صوت مشوى: رمحك وصل إلى قلبي يا "سعدون"، نكني بقوة يا حبيب روح "زليخة".

الرّفث هيّج "سعدون" فخمى وطيسه، فأخذ يدكّها دكّا، وصوت ارتطام اللحم باللحم صافيا في سكون الصّحراء، مثل ضربات قرون تيسين ينتطحان، وانسطلت "زليخة"، وسكر "سعدون"، وارتدّت النّاقة ورغت، وهي تسمع فجأة شجرة "زليخة" المهولة وهي تهوى من شاهق، شجرة متقطّعة لإنسان يفتس، و"سعدون" انتصب جنّيا نحاسيا، يخور خوارا متمرّقا، ليكون بعد ذلك سكون، سكون يتراقص برغاء النّاقة التي جُتّت.

## مِكْحَلَةٌ لَعَيْنَيْنِ لَا تَكْتَجِلَانِ

كان "حجيزى" و"سعدون" و"غنيمة" يدورون حول تمثال "سكيرة" وأنفاسهم منبهة، وشمس الظهيرة تخرق كبد السماء بكامل ألقها، فينزل نورها عموديا على هذا الصنم، فلا يجعل له ظلا، وإنما كل تفصيلة فيه مغمورة بالضياء الوهاج، وساطعة.

الأغنام اضطجعت فى الظلال الضيقة للضخور المائلة وأشجار الصحراء الصغيرة، تجتر، وتنظر حولها بعيون ناعسة.

همس "غنيمة": "سليم" هذا جن ابن عفاريت!

قال "سعدون": عمل "سكيرة" بنت "رسلان" بشحمها ولحمها من الحجر!  
فقال "حجيزى": كأن البنت محنطة.

قطب "غنيمة" وجهه، وقال: أعوذ بالله يا أخى! الجثث المحنطة مريعة، وهذا تمثال كله حلاوة، لو يعمل لى الولد تمثال مثل هذا، انظرا للبنت كيف تشم الوردة!؟

قال "سعدون" وهو يتحسس بكفه الصدغ الحجرى: ما يعمل هذا الجمال الفائق غير الحب يا "غنيمة"، وأنت وجهك عكر ما يُحب.



ضحك "غنيمة" ضحكته التي يشبه صوتها صوت أحجار تتساقط: "سليم" يجئني يا بارد.

شوح "سعدون" بذراعه، وهو يتَّجه إلى ظل إحدى الصُّخور القريبة: حب البنات شيء يختلف، يعمل عجائب.

جلسوا في ظل الصخرة الذي أخذ يتَّسع، كانت الرمال البعيدة تتراقص بالسراب، وعندما أخرج "سعدون" عدَّة الشاي، هتف "غنيمة": أنا لا أحب شاي السبرتاية هذه، الشاي المغلى في نار الحطب لا مثيل له، وقفز يجمع حطبا.

وعندما توهَّجت النَّار، نظر إليها "حجيزي"، وضحك.

تغطَّت الكنكة بالهباب فور دفسها في كومة الحطب المشتعلة، وكان "سعدون" يمسك مقبضها عندما قال "غنيمة: لماذا تضحك؟! "

- تذكَّرت هذه الليلة الأولى التي قضيتها في جبل الرُّهبان، لمَّا حاولت أعمل شايًا، وكلَّمًا أشعلت النَّار تأتي ريح قوية مصوَّبة ناحيتها وتطفئها.

حواف الشاي داخل الكنكة ترتفع ببداية الغليان، وديب الفوران القادم يستشعره "سعدون" وهو يدغدغ جلد كَفِّه، ومن غير أن يرفع عينيه عن وش الشاي، قال: أنت يا "حجيزي" إيمانك ضعيف، ضحك عليك الرَّاهب "يونَّاس" وجعلك تترك دينك، وتصير نصرانيا.

يغرس "حجيزي" كَفِّه في الرمال، ثم يقذف بها، لتنهال على ظهر "سعدون"، وتتسرَّب إلى قفاه: حكاية انتهينا منها يا ابن الكلب.

أخذ "سعدون" ينفذ قفاه بيده الأخرى، دون أن يترك مقبض الكنكة، لكنه هتف بضيق: انت من فتح السيرة يا "حجيزى"!

وهتف "حجيزى": وأنت ما صدقت أنها فتحت حتى تسخر!

قال "غنيمة": واه يا "حجيزى"! تريد تتبع دين النصارى ولا نسخر منك؟! جيد إننا ما قطعنا رأسك!

فقال "حجيزى" متحدّياً: والله لو وجدت عندهم ما أريده ما تركتهم، فى دينهم نام الذئب على مخذى، وفى دينكم يتحول زوج من بنى آدم إلى زوج بغال!

ورغم أن الشأى فار، إلا أن "سعدون" تركه واستلقى على ظهره من استغراقه فى الصّحك، ومن بين شهيقه وزفيره المتقطّعين قال: قلنا لك من قبل أن هذا كلب وليس ذئب، ما يوجد ذئب فى الصّحراء يأمن لابن آدم.

انفعل "حجيزى" وهو يلكر "سعدون" فى جنبه: وأنا ضروسى تخلّعت يا بهيم، وأعرف الفرق بين الذئب والكلب، ما ترتعد فرائص "حجيزى" من رؤية كلب.

ما عرف الذئب من نظر إليه وهو يحوم بعيدا، لكن عرف الذئب من اقترب منه، لدرجة يكاد معها أن يرتطم خطمه بأنفه.

ليس فى عينيه هذا العبط الذى فى عيني الكلب، وإنما فيها إرادة وعزم، وما يغلب الذئب إلا إنسان فى عينيه إرادة وعزم أكبر.

لمّا نزل من على الصخرة التى بين أشجار جبل الرّهبان، وأتجه نحوى، وسطع البريق الأصفر فى مقلتيه، ارتعش كل جلدى، ووقف شعر رأسى، واهتز جسمى من قوّة دقات قلبى.

كان يخطو ناحيتي ببطء شديد، يشد شفتيه ليكشف عن أنياب ما رأيت مثلها من قبل، معقوفة وطويلة ومدببة تخترق الحجر لو أرادت، وكنت أشعر بزئيره الممتد يكلمني: أنت فريستي يا "حجيزي".

من غير تفكير، كانت يدي تتسحب نحو "كوز" الشاي الذي يغلي. وماذا يفعل كوز الشاي ومقبضه معمول من سلك ضعيف، الذئب بأنيابه هذه قادر على تمزيقها وابتلاعها أيضا.

لكن فجأة اكتشفت شيئا، اكتشفت أن هذا الذئب لن يقضى على حياتي فقط، ولكنّه سيقضى على ما أحيأ من أجله، على الذي ضيَّعت كل مباح الحياة من أجله، على الذي جعلني اتبع الرّاهب من أجله، وأترك ديني من أجله، هذا الذئب سيمزق جسدي، سينهشه، بحيث لا يبقى أى أمل في بقائه بعد الموت جسدا سليما معافى في دنيا الأحياء، وسيدفن هؤلاء الرّهبان أشلائى في قبر، لأضيق تماما في طى اللّسيان، حتى قبر يزار في الأعياد لن أحصل عليه.

كان هدفي يضيع، وصعب علىّ حالى، وصعب علىّ أكثر أن يضيع هدفي بمخالب حيوان، ولو كان ذئبا، فنويت أن أدافع عن هذا الهدف.

جرى "ضب" على الرّمال، وألقى بنفسه في حجر تحت إحدى الشجيرات، ورفعت بعض الأغنام رءوسها من على ظهورها إثر حركة "الضب" المفاجئة، وهبّت نسمة رطبة في هجير الظّهيرة أنعشت الأرواح.

رشف "سعدون" رشفة طويلة استنزفت ما تبقى من شاي في كوبه، وضحك، وقال: عمّا تدافع يا مسكين؟! ماذا تفعل أصابعك أمام مخالفه؟!

وماذا تفعل أسنانك أمام أنيابه؟! وماذا يفعل جسدك العجوز الهزيل أمام عضلاته الصلبة العفيفة؟!

- هذا كلام البلهاء الأغبياء مثلك يا "سعدون"، لكن الكلام السليم أن الذئب لا يملك عقلا مثلى.

غريزته فقط تقوده لقتلى، لكن أنا غريزتي وعقلي يقودانتي لقتله، وما كانت يدي أدوات تصلح لمبارزته، فقررت أن يرى في عيني قوة تخيفه، ثم بعد ذلك يفعل الله ما يريد.

صوّبت عيني في عينيه، وقلت لنفسى: إنه مجرّد كلب.

وعندما هممت بالوقوف لأهشّه كما يهش الإنسان منا أى كلب، سمعت صوت الرّاهب "يونّاس" يأتيني من أعلى الجبل، يطلب منى عدم الحركة، لكن الذئب كان قد بدأ يحرك رأسه مثل كلب، وانظفاً شرر عينيه، وجاء هادئاً، وحطّ رأسه على فخذي هذه.

كركب صوت "غنمية": ما أصدّق حكاية أن الذئب وضع رأسه على فخذك هذه أبداً، ولو حلفت على الماء فيجمد.

عاد "سعدون" إلى الورااء متّكئاً على ذراعيه، وقال: ضحك عليه الرّاهب ابن المرأة، عمل له سحراً.

عندما كان "حجيزى" منهمكا فى الكلام، لم يشرب شايه، ولما صمت، نظر فى عيونها السّاخرة، وأخذ الكوب الذى برد، ورشف رشفاته المخطوفة.

\*\*\*\*\*

- هناك أناس يا سيّدنا يظلمون في سعى إلى الله طوال عمرهم، ولا يقبلهم، وهناك الخاطئون الذين ينسونه دائماً، لكنه يسعى هو إليهم حتى يقبلونه!

”يهودا“ يا أخى كان من تلاميذ ”المسيح“، حضر معه، ورأى جميع أعماله، لكنّه طرده! و”شاءول“ كان يقتل أبناء الرّب، لكنّه هو بنفسه سعى إليه، وجعله القديس ”بولس“ الرّسول الأعظم!

نظر الرّاهب ”يوانس“ إلى أفق الشّرق المواجه للجبل، ثم همس: من لم تتلوّث يده بدماء الأبرار خسر، ومن أجرى أنهاراً من دماهم رج! أى حكمة هذه التى يريد الرّب أن يعلمها لنا!؟

كانت الشّمس تشرق، والرّمال على مدى الشوف تخرج من عباءة الرّمادية، وآفاق بعيدة محاطة بضباب، وينعكس الثور على وجهى ”حجيزى“ والرّاهب المجهدين، كانت ملاحظهما رغم كل هذه الفضفضة التى قضت على ساعات الليل، متقلّصة بالألم.

قال الرّاهب كلمة مريعة، اهتز لها كل جسده: حكمة هذه أم عبث!؟

قال ”حجيزى“ من غير أن يهتز له طرف عين: أى أحد عاقل سيقول: عبث.

وشقت سكون الصّباح الباكر تلك الصّرخة التّائحة الطّويلة، صرخة الرّاهب ”برسوم“، ثم ظهر منحدرًا على المدق بين صخور الجبل، نخيلاً فى جلباب ممزّق كالح، كاد وجهه يختفى فى شعر مهوّش مُتلتك، كان ينحدر بسرعة، وصراخه مستمر، حتى توقّف أمامهما، وقال بصوت رفيع يشبه صوت امرأة: ليس هناك عبث، ربّنا ”يسوع“ لا يلعب، ربّنا رب قلوب، والقلوب مساكين

الإخلاص، والقلب الذي ليس فيه إخلاص خربان، وصاحبه يخسر، لم يكن في قلب ”يهوذا“ إخلاص للمسيح، وكان ”شاءول“ يقتل أبناء الرّب يا خلاص.

كان ”حجيزى“ ينظر إلى الرّاهب ”برسوم“ الذي يصعد المنحدر بنفس السرعة التي هبط بها، بينما انكفأ وجه الرّاهب ”يوائس“، تدمع عيناه، وعلت صرخة ”برسوم“ البلهاء، قبل أن يتوقّف مكانه، وينظر إليهما من فوق، ويقول: لا يهتم الرّب ”يسوع“ بأبنائه أنفسهم، إنه يهتم بإخلاصهم.

- من هذا؟!

- هذا هو الرّاهب ”برسوم“، وراءه قصة موهولة، أتت به إلى هذه الصّحراء، منافي الرّب.

تعرف؟! وراء كل راهب من هؤلاء قصّة مليئة بالتّعاسة، وفي كل قصة امرأة، امرأة خائنة، أمّ خائنة، أخت خائنة، زوجة خائنة، حبيبة خائنة، المهم، امرأة ما تدفع الواحد ممّا لترك الحياة، وتسليم نفسه إلى هذا الموت، سكون الفيافي ووحشتها، ننفي إليها أنفسنا باسم الرّب.

ابتسم ”يوائس“ برُكن شفّتيه، وقال: نكرّر دائماً قصّة ”آدم“ و”حواء“، والطرد من الفردوس، إلى الأرض القاحلة، ونحاول أن نتطهّر بعذاب الوحدة والتوحد، هذا الجحيم الذي يشعله كل واحد ممّا لنفسه بداخله، لكن بعد كل هذا العمر، بعد مائة عام أو يزيد، أقول لك بمنتهى الإخلاص: لن يتطهّر الماء أبداً من القذارة إذا أصابته، وستحوّله النّار ممزوجاً بدنسه إلى بخار ينتهى إلى عدم.

كانت الشمس قد أشرقت بتامها، والصَّحراء سطعت.

- لكن يا مقدّس، هل كان هذا ذنبا حقيقيا؟!

ابتسم "يوائس"، وقال بصوته العميق: وهل يمكن أن يكون شيئا آخر يا راعي الغنم؟!

- يستحيل على الذئاب أن تأمن لابن آدم!

- نعم، لكن لا يوجد ما هو مستحيل بالنسبة لمشيئة الرب، انت يا سيّدا من تلك النوعية التي يسعى الرب إليها، فيأخذك إليه بمعجزة.

نظر "حجيزي" في عيني الراهب العميقتين رغم ضيقهما، وقال: لكن يا أيها الراهب أنا من أخضع للذئب، وليست مشيئة الرب.

حرّك الراهب جلد جبهته المتجمّد، رافعا حاجبيه، ومصوّبا نظرة ساخرة لعيني "حجيزي"، لكن عيني "حجيزي" كانتا مثل مرآتين عاكستين، تصوّبان نفس النظرة إلى عيني الراهب.

همس "حجيزي": لا أعيش حياتي أبحث عن مهرب لجثتي من الدفن، لأتركها ببساطة لأنياب ذئب يمزّقها.

لقد غرستُ إرادتي في عقله، وأخضعته لي.

انكسرت نظرة الراهب "يوائس"، كانت نظرة "حجيزي" نافذة، كأنه يفرس إرادته في عقله، ليخضعه هو الآخر.

همس "يوائس" محتارا: لكنّها تضع رءوسها أيضا على فخذ الراهب "مرقس"!

كانت الشمس قد أشرقت تماما، تنشر دفئا وليدا، يدب في الرمال بخطوات غير مستقرّة.

\*\*\*\*\*

فتح "غنيمة" عينيه، شمس الضّحي منيرة، والكلب يربض بجواره واضعا رأسه بين ذراعيه، والثّاقة في مناخها الرّصين، تجتر هادئة، تنظر إلى ما حولها من وسع لا نهائى نظرات حكيم.

اعتدل جالسا، وأخذ ينظر حوله، ثم هبّ واقفا، اتجه نحو الثّاقة، نزع المسحاة من ركبها، وعاد إلى مكانه، وأخذ يحفر.

- ما حدث كان حقيقيا، لم يكن حلما، حلمت كثيرا، ورأيت رؤى كثيرة، ما رأيته كان حقيقة، ما عملته "جاله" معى لا يمكن أن يكون حلما، لم أر ما عملته هذه المرأة من قبل لأحلم به، كان جديدا، ولو لم أتأكد من صحة ما رأيته لجنّنت.

"هل تدرك خطورة ما تفعل يا غنيمة؟ أنت تائه في مفازة، وتحتاج مجهودك كاملا لمحاولة الوصول إلى منفذ للحياة، وأنت بدلا من المشى في أية ناحية، تتحرك إلى أسفل، نحو باطن الأرض، أنت يا غنيمة تحفر قبرك بيدك".

- لو وصلت إلى "جاله"، وفردت طولى بجوارها ومت، أفضل من الموت في المتاهة، لتنهش الطيور والصّباع جسدى.  
"لكن ستنهش الطيور والصّباع جسدكما أيضا".



- طالما نحن سويا، لا يهم كيف يكون المصير.

أخذت أحفر، والحفر في هذه الرمال السَّفيفة يقطع النَّفس، تحفر مهما تحفر، تجد الرمال تنزلق مرّة أخرى إلى مكانها.

نصف النهار انقضى وأنا أحفر، وشربت أكثر من نصف قربة الماء، وبالكد عملت حفرة بعمق طولى، كانت الهواجس تقتحمنى، تحاول أن تثنينى عن تكلمة الحفر.

”الغرد أطاح بعقلك يا غنيمة، لو كانت جاله حقيّة، كنت وجدتها، هذا الذى رأيت هو تهاويم شياطين الصّحراء، ما رأيت شغل عفاريت، العفاريت تريد دفنك، وأنت تنساق خلف إرادتها، كل ما رأيت كان شغل عفاريت يا عبيط“.

- كانت الحفرة تعمق، والكلب ينظر إلى من أعلى ويزوم زومات متقطّعة، وفي لحظة أحسست ألا جدوى من استمرار الحفر، فأى شبر آخر أحفره عميقا سيجعل خروجى من الحفرة مستحيلا، لأموت مجّانا، وبمنتهى الحمق، لكن فى نفس اللحظة التى بدأ الكلب ينبج بعزم، أحسست بلمس شىء تحت قدمى، ليس بلمس الرمال، وعندما نظرت إليه...

كانا يجلسان تحت شجرة برتقال، من تلك التى تحيط بالبر السّاخنة، العصافير تشقشق، وطيور أبو قردان البيضاء، تقف على حواف جدول

مخضوض ينساب مبتعدا نحو الزُّروع البعيدة، مد “غنمية” يده إلى جيب في جلبابه القصير، أخرج منه طرحة ملوّنة مطوّية بعناية، ومد يده بها إلى “حجيزى”.

أخذ “حجيزى” الطّرحة، وفردها على متسع ذراعيه، كانت مزوّقة بزهور كبيرة متشابكة، يحف بجوانبها زيق مذهب عريض.

قال “غنمية”: طرفها هو الذى داعب باطن قدمى، وما أن رأيته حتى نسيت كل الأخطار، وقّرت الاستمرار فى الحفر، فمعنى أن أجد طرف الطّرحة فلا بد سأجد رأس “جاله” الملقوف بها، معنى أن أجد طرف الطّرحة، أن كل ما رأيته كان حقيقياً، ولم يكن أبدا شغل عفاريت.

كان بناح الكلب يزيد من عزمى، كان ينبح كالمجنون، فأيقنت أن ثمة جثة....

- تعرف يا “حجيزى”؟! ما إن طرأ على ذهنى أنتى أبحث عن جثة “جاله” حتى همد جسدى فجأة، ماذا سأفعل بـ “جاله” وهى ليست أكثر من جثة؟! ثم اكتشفت شيئاً آخر، هذا المنديل طيّره الهواء بعيداً عن “جاله”، وطالما الذى وجدته هو المنديل، فإن “جاله” بعيدة عن مكان الحفر.

كان “حجيزى” يتأمل الطّرحة بعينين مندهشتين، حتى أنه قال: تريد أن تقول إن هذا المنديل لامرأة من جيش فارسى، مدفون فى صحرائنا منذ آلاف السنين!؟

- الجيش الفارسى دُفن أمام عيني، لكن هل أنا أخطأت لما لم أوصل الحفر، بحثاً عن جثة “جاله”؟

لم يجب "حجيزى" على تساؤل "غنيمة" الحائر، كان منهمكا في تأمل الطَّرحة، ويتحسس بأطراف أصابعه زيقها الذهبى.

\*\*\*\*

"زليخة" تعبت من التسنين التي مرّت عليها، وهي ليست أمّا، فقالت في نفسها: ضرورى "سعدون" يكون تعب هو أيضا، أنا أرضى لا تصلح للزَّرْع، لكن هو بذوره ضعيفة، وربما تنبت في أرض غير أرضى.

"سعدون" يدخن حجر المعسل الصّباحى، أمام باب حظيرة الغنم، النهار يشقشق، والضوء هادئ، والجوزة تكرر، وجاءت "زليخة" وجلست بجواره، وفي وجهها يلوح ثقل كلام تحمله في قلبها، ليس من عاداتها الجلوس معه فى الصّباح الباكر هكذا، عاداتها الانشغال فى إطعام الطيور والبهائم، وسقى الغنم قبل أن تسرح إلى المراعى البعيدة، وحلب اللبن من الثّاقة، ومن الجاموسة.

نظر إليها، وقال: خير يا "زليخة"!

قالت: منذ متى ونحن متزوجين يا "سعدون"؟

شد نفسا، وقال: لم نكمل يوما يا حلوة.

قالت: أنا اتكلم بجد.

أشاح بوجهه بعيدا، وهو يقول: يا فتّاح يا عليم، يا رزّاق يا كريم، مالك يا "زليخة"؟!

قالت: أريد أن أفتحك فى موضوع.

لم يتكلم، وإنما شد نفساً طويلاً من الجوزة، فانتحبت كركبتها.  
قالت: سنين طويلة انقضت يا "سعدون"، الشَّعر بدأ يشيب في رأسك،  
وأنا لا أريد ان أحرمك من الخلفة.

نظر إليها مبتسماً، ثم قال متهاكماً: ماذا ستفعلين؟ ستفتحين بيت الولد  
بالعافية؟!

ثم علت قهقهته، ولحم بطنه يرقص، فتدحرجت قطعة من البص من فوق  
حجر الجوزة، وسقطت على حجره، فخطفتها "زليخة" بسرعة، وألقت بها  
بعيداً.

قالت: فشئتك عائمة، أنت ستموت من كثرة الضحك، في مرّة سيأتيك  
"عزرائيل" وأنت سكران في الضحك.

قال: كلامك يا "زليخة"!

قالت: تزوّج يا "سعدون".

شمس الصَّحراء تسطع بسرعة، ونورها يكون ضعيفاً، لكنّه يشب قوياً، فغمر  
الثور وجه "سعدون"، الذي نظر إلى "زليخة" باندهاش مربع.  
قالت: أنا أنقى لك العرائس، وأزوّجك.

- انتقت لى يا "حجيزى" أجمل واحدة، "بثينة" ابنة عمّها، وهى التى جلّتها  
بـ"الثورة"، وهى التى غسلتها فى البئر الساخنة، وهى التى جرّت الحَمَل  
الذى جلست "بثينة" فى هودجه، وعند البيت، أمسكت يدها، وسلّمتها  
لى، شىء يجن الذى لا يُجن.

دق قلب "سعدون" دقات رجّت جسده البدين، وهو يدخل بعروسه الغرفة، ويغلق الباب في وجه "زليخة"، كانت دموع تترقرق في عينيها، فأول مرّة منذ أيام لا تعد ولا تحصى، يفصل باب غرفة بينهما، وينقضى ليل من غير أن يكونا في سرير واحد.

- وقفت "بثينة" بجانب الباب المغلق، ترفل في ملابس عرسها الملوّنة، ووجهها طاقة نور تشع من خلف الطّرحة الشقّافة المنسدلة على وجهها، كانت تضع عينيها في الأرض، فمدت يدي وأمسكت بيدها، وسحبتهما إلى السرير، ماذا كان بإمكانى أن أفعل غير ذلك؟! كانت عيناى تريان ريكّة مشاعري، وقلبي ينظر إلى "زليخة" المكوّمة في ركن من أركان غرفتها، تبكى من غير صوت، لم أكن أسمع نشيجها، لكنّي سمعت صأصأة فرخ حمام كان منزويا هو أيضا في ركن من أركان حجرة "بثينة".

ضحك "سعدون"، وقال: كانت "زليخة" متأكّدة من أنى لن أستطيع عمل شيء هذه الليلة، فوضعت لى فرخ الحمام، أذبحه وأصبع بدمه منديل الشّرف.

"سعدون" وجهه وجه عريس، يلمع بجمرة الدّم الجارى، وملابسه وعمامته تلمعان بالحدّاثه، ويجلس على المصطبة التي أمام بيت "حجيزى"، يتكئ بظهره إلى الجدار، وينظر إلى الحميرة، والعصافير تعود إليها في المغرب، كان يأخذ راحته في جلسته، فلقد أراح فحذا على المصطبة، ونصب الآخر، ورمى ذراعه على ركبته، كان "حجيزى" يشد الدخان من الجوزة، والدخان تدفق من فمه وأنفه وهو يقول: والله أفرخ الحمام كرهت العرسان.

ضحك "سعدون"، وقهقهه، وأخذ الجوزة من "حجيزى"، وقال: أنا والله صَّعْب علىّ حال الفرخ، ما رضيت بذبحه.

قال "حجيزى": وماذا عملت؟

"سعدون" بخلق فى وجه "حجيزى"، ونفث الدخان فتلوى كأفاع.

كان يحمل الهم، وكلّما اقترب من السرير خطوة، الهم يثقل، و"بثينة" منقادة خلفه، وصدره يضيق: كيف أنام مع امرأة غير "زليخة"؟ وكيف أسعد بالعروسة، و"زليخة" من غير عريسها؟

- ما كنت أنا الذى أتحرك يا "حجيزى"، كان غيرى من رفع "بثينة" من تحت إبطيها، ووضعها على السرير العالى، وهى جلست على الفراش، وأزاحت الطّرحة من على وجهها، فرأيت القمر بدرا، وسمعت صأصأة فرخ الحمام، ثم بدأ يتجلّى لى صوت غناء اللّساء خارج الغرفة على نقر الدّفوف، وخشولة حناجر الرّجال، وأدركت أن الجميع يقف ينتظر رؤية الدّم.

لم يكن هناك مفر من نسيان "زليخة" فى هذه اللحظة، ولما انسدل شعر "بثينة" على عاتقها، وتوهّج صدرها، نسيت الدّنيا، وغرقت فى الجنّة.

وأخذ جسد "سعدون" يتمايل من سطوة الضّحك الذى يضحكه، وهو يقول: كتب لفرخ الحمام عمر جديد يا "حجيزى".

\*\*\*\*\*

راقبت "سريرة" الثاقبان وهما تمضيان إلى بعيد، فوق الأولى "حجيزى" الذى لن تراه حيًا بعد اليوم، كان بداخلها يقين بهذا، وفى عينها دموع الملح، والشَّمس مالت عن كبد السَّاء، وبجوارها وقفت "ثرثيا"، تربت على كنف "سريرة" المتيسِّس، وتهمس: قال إنه سيعود يا "سريرة".

- سيعود إن شاء الله، لكنَّه سيعود جثَّة من غير روح، سيعود ميتا، "حجيزى" أنا أعرفه.

وظلَّت واقفة، متَّكئة على عصاها، ترقب التُّقطتين الكالحتين اللتين غاصتا فى عمق التماعه اصفرار الرِّمال اللامنتهية، ترقبها بعينين غائميتين من إثر الرِّمن، والبكاء.

فور ضياع التُّقطتين فى السَّراب، دارت برأسها ناحية رءوس التَّخيل التى تبدو من خلف البيوت، ونظرت إلى الطَّرِيق الضَّيِّقة التى تمر أمام المسجد، لتخترق تلاحم المنازل، وركَّزت نظرها العليل فى عمق هذه الطَّرِيق، تذهب بعقلها إلى منتهاه، حيث النَّاحية الأخرى من "الوعرة"، حيث بيت أيها القديم، حيث طفولتها، وحيث شبابها، وحيث جنونها، وحيث جرأتها التى نقرت منها أمَّهات شباب الواحة.

"جميلة، وجريئة، صفتان لما تجتمعان فى البنت، تصير مخيفة"،

نصيحة سمعها كل شباب الواحة من أمَّهاتهم، أو آبائهم، وقتما كان يهم الواحد منهم بالكلام عن رغبته فى الزَّواج من "سريرة"، و"سريرة" مجنونة، كادت تطيح بعقل أمَّها، التى قالت لها: بنت فى العشرين ولم تتزوَّج، لن تتزوَّج، أنا تزوَّجت وسبَّي ثلاثة عشر عاما، وها هن البنات حولك يتزوجن وأعمارهن أقل من الخمسة عشر، يا بنت تحشَّمى، ما ينفع البنت أن تقف خارج البيت وتضحك للرائح والغادى.

أما أبوها فقد أبطل الكلام معها، وبقي غضبانا منها، وغضباننا عليها.  
لكنّه أبطل الغضب، لما جاءه "حجيزى" وطلب يدها، وهى وافقت، وكانت فرحانة.

- يا "سريرة"، أنت جد فرحانة؟! "حجيزى" عمره خمسين سنة، ولا يضحك، ويحيط جث الحيوانات!

- خمسين سنة يا أمى، لكن شبابه عال، الذى يراه بالكاد يعطيه عمرا لا يتجاوز الخمسة وثلاثين سنة، وأنا أول بخته، امرأة قبلى لم تدخل قلبه، ولا دخلت حياته، وأنا سأجعله يضحك، وسأجعله يريّ الحيوانات، ويرعى الغنم.

أعدت أمّها التّظر فى عينيها، كأنها تستوثق صدق فرحتها، فأطلقت "سريرة" زغرودة طويلة، فقامت أمّها مرتاعة، وكبست بكفها فم "سريرة"، ويدها الأخرى تلكرها فى صدرها، وتهتف بانهار: تريدين فضحنا؟! ما رأينا عروسة تزغد، يا قليلة الحياء.

نزعت "سريرة" كفّ أمّها من على فمها، ونظرت فى عينيها بتحد، وقالت: حتى تصدّقى إننى فرحانة.

ابتسمت "سريرة" فانبسّطت تجاعيد وجهها، ودارت برأسها تنظر إلى مكان النّقطتين المتحرّكتين على المدق الصّارب فى الصّحراء، فلم ترهما أبدا.

دخلت البيت، وأنجّمت بركتها البطيئة إلى الدّكة التى تحت شجرة التّين فى وسط الفسحاية، ونادت على "ثريّا" قبل أن تمسح بكف يدها على فرشاة



الصُوف المنبسطة على الدِّكة، ولَمَّا ظهرت لها "ثريًّا" من باب غرفة الخزين،  
قالت: تعال يا بنت نعمل كحل "الدلال".

اندهشت "ثريًّا"، وقالت: وماذا تعملين يا "سريّة" بكحل  
"الدلال"؟! أنا ما رأيتك تكتحلين به أبدا!

فقلت "سريّة" بتبرم ونفاد صبر: يا بنت تعال نعمل كحل "الدلال".

هتفت "ثريًّا" بضيق: انتهى من تنظيف حجرة الخزين ونعمل "الدلال"،  
و"المحراوى"، إن شئت!

لكن "ثريًّا" لَمَّا رأت جلد وجه "سريّة" يرتعش، وشفيتها ترتعدان، وسمعتها  
تنن: نفسى يا "ثريًّا" أعمل كحل "الدلال" الآن، ما عندى صبر يا بنتى.  
قالت: حاضر يا أمّ "بكير"، يا غالية.

كانت قطع من الشَّمس تحترق فضاءات ما بين أوراق شجرة التَّين، وتسقط  
على رأس "سريّة"، ووجهها، وحجرها، وكان ذباب يغير على وجهها وهو  
يطن، فتهشه بكفِّها، وبينما "ثريًّا" تبحث فى أحد الصَّنَاديق داخل غرفتها عن  
القطن الذى ستصنعان منه كحل الدلال، كانت "سريّة" تمشى فى مفازة  
الذكريات، حتى وصلت إلى أيام فرحها.

"سريّة" شابّة، فى العشرين من عمرها، فى أوج جمالها، تقف فى حوض ماء  
البئر السّاخنة، والبنات حولها يقذفنها بالماء، يبللن ثيابها لتخلعها، وهى  
تدارى وجهها من رذاذ الماء، وتصرخ فيهن، بينما ضحكاتهن تصنع ضوضاء  
مبهجة، كان لابد أن تخلع ملابسها، وتغتسل فى هذا الماء الساخن، هذا سيلو

الأفراح في واحة "الوعرة"، لكنّها لم تخلع ثيابها التي التصقت بجسدها الرّيّان، فهجمت البنات عليها، وألقينها في الماء، وبدأن في نزع ثيابها عنها بالقوّة، ومحاولاتها المتمتّعة فشلت، وصارت عارية كما ولدتها أمّها، وضربها الخجل من عيون البنات والنساء الكبيرات الواقفات يضحكن حول الحوض، وضربها الخجل من عيون العصافير التي كانت تتأملها باندهاش، وهي واقفة على الأغصان، بين أوراق شجر البرتقال.

بنات "الواحة" يجدن، في مثل هذه المناسبة، فرصة لممارسة نزقهن، يغسلنها، ويدعكن جلدها، وأكفهن المملوءة بالشبق تمر برقّة على ثديها، وعلى سرّة بطنها، وفخذها، واحدة منهن قالت بصوت مائع: حظ "حجيزي" من السّماء، وقع على غزالة ما لها وصف.

ثم هصرت ثديها وهي تهتف: أنظروا إلى رمّانها.

وعلت الضّحكات، بينما صمتت هي تماما، فلم يكن أمامها إلا الاستسلام، استسلام أحبّته وقتها، بينما جسدها مغمور في المياه الدافئة.

أخرجها من سرحانها في غيم الدّكريات قدوم "ثريّا"، كانت تحمل بين يديها القطن الأبيض ناصعا، وزجاجة مملوءة بزيت زيتون، وطبقا من الصّباح التّظيف المطلى بالميناء الملوّن، وإناء فخّارى أسود قديم.

جلستا على الدّكة في مواجهة بعضهما، وبينهما عدّة صنع كحل "الدلال"، كانت "سريّة" قد شدّت مزقة صغيرة من القطن، وأخذت تبرمها بين طرفي إبهامها وسبّابتها، وكانت "ثريّا" قد دلقت في طبق الصّباح بعضا من زيت الرّيتون، وضعت فيه "سريّة" لفافة القطن المبروم، وبدأت تبرم واحدة أخرى.

همست "سريرة": ليلة حتى يا "ثرياً" مررت النساء عجينة الحلوى على جلدى كله، فما خرجت بشعره واحدة، كنت يا بنت كما حجر المرمر، لامعة وملساء، وأتى لم تتركنى فى حالى، دعكت جسدى كله بـ"الثورة"، وكبست عينى بالكحل "الحمراوى"، لأجل ما يجلى بياضها، مثل التار هذا الكحل "الحمراوى"، لكن كحل "الدلال" رطب، ويرسم العينين فتملان وجه الواحدة منا، الرجال مغرمون بالعيون الواسعة.

المهم، أدخلونى فى بيت "حجيزى" مثل واحدة من حور العين، وأعطينى أقى مكحلة كبيرة، ملائنة بكحل "الدلال".

وتهدت "سريرة"، وقالت: وظلت حتى الآن ملائنة.

نظرت "ثرياً" إليها، وقالت: عندك مكحلة ملائنة من خمسين سنة؟! أين هى؟!

- فى الصندوق، تحت السرير.

قالت "ثرياً" بلهفة: أريد أن أراها.

قالت "سريرة": إذهبى هاتهما.

دخلت "ثرياً" حجرة "سريرة"، وأجهت مباشرة إلى السرير التحاسى العالى، ثم جلست على ركبتيها، فرأت الصندوق، لم يثر اهتمامها كما أثاره عندما رآته أول مرة، مزوّقا بأوراق أشجار وزهور فضية وذهبية، خشبه بى، نُحِتت فيه دوائر ومربعات ومثلثات تداخلت فى بعضها بنسق بديع، الصندوق معمول من خشب ثقيل، لم تستطع "ثرياً" سحبه من أسفل السرير، فتسحبت على ركبتيها حتى وصلت إليه، ورفعت غطاءه بسهولة، فرأت

ملابس "سريرة" موضوعة بعناية ومرتبّة، ملابس لم تر "سريرة" ارتدتها من قبل، هناك قمصان نوم ما زالت في أكياسها، وهناك أوراق لم تهتم "ثرّيّا" بالنظر إليها، فهي لا تجيد القراءة، وهناك زجاجات عطور لم تُستعمل، وها هي المكحلة.

كان طبق الصّاج قد امتلأ بلفافات القطن المبرومة الغارقة في زيت الزّيتون، عندما ظهرت "ثرّيّا" قادمة، تمسك بيدها الحافظة الجلديّة للمكحلة، وهي تنظر إليها بإعجاب مخلوط بالانهار.

قالت "سريرة" بلا مبالاة: هيا "ثرّيّا"، أشعلّي النّار.

لكن "ثرّيّا" قالت: المكحلة جلدها كأنه معمول اليوم، رسومات الطّيور تكاد تفر.

ابتسمت "سريرة" بسمة مريضة، متهمّة، وقالت: ما لزوم المكحلة وليس هناك عيون تكتحل؟! أشعلّي النّار يا بنيتي.

أخذت "ثرّيّا" لفافة قطن من تلك المغموسة في زيت الزّيتون، وثبّتتها جيّدًا بطرف سلك رفيع إلى منتصف فوّهة زجاجة صغيرة، ثم أشعلت النّار في ذؤابتها، بينما أمسكت "سريرة" بالقعبة الفخّارية، وكفتها فوق خيط الدخان الصّئيل المتصاعد من لهب النّار.

قالت "سريرة": ويمكن "حجيزي" يعود حيًّا، مستحيل يكون رأى الغيب وتأكّد من يوم انتهاء أجله، لا أحد في هذه الدنيا يعرف متى سيموت، وليست كل الرّؤى تتحقّق على كلام المعرّين، حتى المعرّ كان داخل الرّؤيا!  
قالت "ثرّيّا" ضاحكة: قلبي يقول لى إنه سيعود يا "سريرة".

ابتسمت "سريرة" وقالت: لو عاد، سأضع في عيني كحل "الدلال"،  
وأعجب له.

ثم استدركت: أمسكى القعبة.

أمسكت "ثرياً" القعبة، سهاد اللهب يتصاعد إلى قلبها، ليلتصق به، هذا هو  
السهاد الذي لمّا تكشطه نساء "الوعرة"، يعنّنه في زجاجات صغيرة جداً  
كحلاً للدلال.

أما "سريرة" فإنها أخرجت إحدى زجاجات مكحلها العتيقة، وفتحتها بيد  
مرتعشة، ثم أمسكت المرود بأصبعين مرتعدين، وغمسته في الكحل العتيق،  
ثم رفعته إلى إحدى عينيها، ومزّرتة ببطء مهزوز بين جفنيها الذين انطبقتا على  
المرود بشوق وحنان شديدين.

عندما فتحت "سريرة" عينيها المكتحلتين، نظرت إليهما "ثرياً" فارتجف قلبها،  
لقد ظهرت عينا "سريرة" مرعبتين، ولمّا سألتها عن رأيها، قالت "ثرياً"  
بصوت بارد: حلوا يا "سريرة"، حلوا.

لكن "سريرة" لمست الرّنة الباردة التي في صوت "ثرياً"، فقالت: الكحل  
للصبايا يا "ثرياً"، ليس لمن يودّ عن الحياة مثلنا، الله يسامحك يا "حجيزى".

## صَلِيبٌ مَكْسُورٌ أَعْلَى بُرْجِ الْكَنِيسَةِ

لسعة برد ليل ما قبل الفجر، وكان القمر قد غادر السماء تماما، والحلك مدلم، حتى أن الأشجار ضاعت ملامحها في بهيم ظلماء اصطبغت بها الصَّحراء، وغرق فيها جبل الرُّهبان.

قال "حجيزى": نحتاج نارا نُدفء بها جلدينا.

قال الرَّاهب "يوآنس": لو أستطيع أن أخرج هذه الجذوة المتقدة في قلبى لأدفأتنا.

\*\*\*\*\*

اعتدلت "سيرين" من اتكائها على مرفقها، ومدت يدها بكوب الشاي تعيده ممتلئا إلى "صبحى"، فأخذه منها مستغربا ما يجرى، لتضع وجهها بين كفيها، وتغرق في البكاء.

كان ثديها قد تضامًا في عريها، لكن لم يكن لها أن يتضح، وقد منع ذراعاها الملتصقان، وشعرها المنسدل حول جانبي وجهها، مسقط نور لهب اللبنة العويل عنهما.

خنقت العبرات صوتها: رأيت ما لم أكن أتخيله، ولم أفهمه، لكنى استبشعته.

وأخذت تنتحب، و”صبحي“ يسك بكوب شايبا، ينظر إلى كنفها المرتجبن حيرانا.

ارتعبت ”سيرين“ من صورة القديس ”مار جرجس“، من هذا الرُوح الذي يعلو ويهبط ممزقا تبتينا يرفس رفسات الموت الأخيرة، كانت تقف أمام باب غرفة والدها، وفي اللحظة التي صكَّ فيها سمعها صوت زئير التَّنين، سمعت تأوهات أمها المتتالية، فتلبَّسها الرُّعب، الذي شلَّ لسانها، لكنَّه لم يشل يديها ولا ساقها، لتهمج على أكرة باب غرفة المعلم ”نظير“، وتفتحه، وتدخل.

الللمبة ”السَّهَّارى“ تشع نورا خافتا، يسقط على جسدين عريانين تماما، المعلم ”نظير“ يعلو التبت ”جميلة“ التي كانت منسدحة على ظهرها، بينما فحذاها يسترخيان ويعودان للضَّغط على جنبى ”نظير“ مثل زعنفتى سمكة، وكان ”نظير“ مرميا بصدرة على صدرها، يأكل رقبتها وأذنيها، وكان فحيح يمتزج بتأوّه.

وقفت ”سيرين“ مثل صنم، كان أبواها يتعاركان فى الفراش، وأبواها يبرك على أمها يأكلها مثل كلب يأكل دجاجة تموت.

وبينا تحاول التخلص من شللهما لإنقاذ أمها، فكَّرت: لماذا يتعاركان عريانين؟! ثم رأت ”سيرين“ ما أطلق الصَّرخة من حنجرتها، صرخة ملتوية وسائحة يتصاعد منها دخان الحرائق، رأت رُحما ينبثق من أيها، رُحما مشدودا التمع لمعة وامضة بنور السَّهَّارى الخافت قبل أن يواصل الطعن ممزقا جلد أمها، وكانت أمها تتأوّه، وتتلوى مثل التَّنين الذى يموت تحت سيقان فرس القديس ”مار جرجس“.

”لم تكن روح المعلّم نظير فقط هي التي تنظر إلينا وقد سكنت في أحد أركان سقف الحجرة، كنت أنت يا يسوع تطوّف، ورأيها أنت يا يسوع وهي.. يا ويلي.. يا مخجلي.. لكنك يا ربّ رأيّني لا أخطئ“.

باغتت ”سيرين“ ”صبحي“ بما فعلته، إذ أن حكيها كان قد أربكه، فلقد وجد نفسه محصورا بين شهوة تفجّرت فيه، وحياء يصطحبه دائما مثل ظلّه، وتحذير المعلّم ”نظير“، وغضب ”المسيح“، أربعة أحوال مثل أجنحة الصّليب، تعلق عليها مقتولا، وفاجأته ”سيرين“ وهو في هذه الحالة، فمدّت ذراعها بسرعة خاطفة، وقبضت على قضيبه.

ارتجج جسد ”صبحي“ بجرعة لا إرادية، فانسكب الشّاي من الكوب الذي بيده، كانت ساقه قد قفزت من مكانها أيضا لتضرب ”الوابور“، فتسقطه على الأرض، فينسكب منه الكيروسين، بينما يده الأخرى تحشّبت أصابعها المغروسة في لحم كف ”سيرين“ تحاول نزعها عن قضيبه، لكنّها كانت قد كلبشته بأصابعها المضمومة عليه، كأصابع ميّت يحاول التعلق برقبة زجاجة مملوءة بأكسير الحياة.

كانت تهمس منتحبة: عشت طول حياتي بعد الذي رأيته أظلم أمي.

كان ”صبحي“ مفزوعا يحاول الوقوف، وكان يشعر بعضوه يمتلئ ويشتد رغم قبضة ”سيرين“ المحكمة.

- أبي يعدّها كل ليلة، فلماذا تذهب إليه في غرفته وتركني وحيدة، كيف تتحمل طعنات هذا الرّمح.



استطاع "صبحي" الوقوف أخيرا، وبإيديه الاثنتين حاول فك قبضتها، كان يتعامل مع المستحيل، كلما حاول ضغطت أكثر، فتؤلمه ألما يهصر الرُّوح.

رائحة الكيروسين كتمت هواء الغرفة، وكذلك رائحة الدخان المتصاعد من لهب اللبنة العويل، ورائحة شعر "سيرين" رائحة قرنفل يزوي، و"صبحي" يشارف على الاختناق، وهو يرى وجه "المسيح" ناظرا ناحية "سيرين" مربداً، ثم يفتح فمه ويرعد: اضربها.

كانت تقول: أنا ظلمت أمي طول هذا العمر، أنا يا "صبحي" لى جسد لا أعرف لماذا يثور منذ فترة، ويطلب هذا الرُّوح، ويريد تجربة الطَّعن؟! في هذه اللحظة هوت روح المعلم "نظير" من ركنها عند سقف الحجرة، لتسقط على الأرض، وتصرخ: اقتلها يا "صبحي"، اقتلها، إياك و"سيرين" يا ابن الإسكافي.

وانطلقت يد "صبحي" بصفعة هائلة على وجه "سيرين" ألقتها صريعة على الفراش.

كانت النَّار ترمى بدفئها ووهجها، حتى أن حشرات تلبد بين أغصان الأشجار التي في سفح الجبل جاءت لتحترق في ألسنة لهبها، حتى أن مساحات من هذا السَّفح أضاءت، ليتراقص عليها ظلا العجوزين.

- بكيت كثيرا يا مقدّس، هوّن عليك.

مسح الرَّاهِب وجهه، وهمس: أبكى العمر الذى ضاع، ضيَّعته هذه الصَّفعة،  
لما صفعت ”سيرين“ كنت أصفع حياتى، فهربت منى، لتواجهنى بعد ذلك  
بصفعة قلبتنى، وما عرفت بعدها كيف أعتدل.

- ”سيرين“ هربت منك؟! -

رفع الرَّاهِب ”يوائس“ وجهه من فوق ألسنة اللهب، وحدَّق فى عيِّى  
”حجيزى“ طويلا، كان تحدِّ يبرق فى عينيه، وبدا أنه يهم بقول كلام خطير،  
ثم طأطأ رأسه مرَّة أخرى ناحية النَّار، وفى الوقت الذى كانت تعلق فيه  
طقطقة حشرة يلتهمها اللهب، ارتفعت صرخة الرَّاهِب ”برسوم“ الحادَّة،  
الطَّويلة، المعدَّبة.

رفع الرَّاهِب ”يوائس“ وجهه مرَّة أخرى، وأيضا حدَّق فى عيِّى ”حجيزى“، ثم  
قال: سأقول كل شىء يا ”حجيزى“، أنت أتيت إلى جبل الرَّهبان من أجل  
أمر أعدَّه الرَّب، وأنا لم أجلس هنا مع بشرى غيرك، فكلنا هنا نتفرَّغ للجلوس  
مع الرَّب، لا مع البشر، ونحن لا يمكننا إلَّا أن نتحدَّث مع ”يسوع“ بأدب،  
نشكره على محبَّته، ورحمته، ونفغى له، ونمجِّده، لكننا لا نشكو له الآمنا،  
أقصد... لا نشكو له الآمنا بشكل حقيقى.. أقصد...

أخذ صدر الرَّاهِب يعلو ويهبط مثل صدر الغضبان، ورأسه يدور مثل رأس  
الحيران، وصرخ الرَّاهِب ”برسوم“ مرَّة أخرى، فهتف ”يوائس“: الرَّب هو  
سبب الآمى، وسبب الآم ”برسوم“، وسبب الآمنا كلنا، يجب أن أتكلَّم  
الآن، وأقول كلَّ شىء، ويجب أن يسمعنى ”يسوع“، أنا أمدحه طول  
عمرى، أمدحه وقلبى معبأ بالآلام، وهو لا يقدِّم لى أىَّ حل، بل ألقى بى فى  
منافيه هذه، لسمع إذن تدمُّرى ولو مرَّة واحدة، ليتَّسع صدره لغيظى  
المكبوت من تصرُّفاته المريعة.

امتقع وجه "حجيزى" وهو ينظر إلى شفتى الزّاهب الذى انفلت عياره.

- لماذا يجارب الرّب جسدى؟ لماذا يصرخ فى دائما لأهتم بما لا أراه على حساب ما أراه؟! لماذا يطالبنى بمراعاة روحى، ويأمرنى بإهلاك جسدى؟!!

تخيّل يا "حجيزى" أنى لم أصفح "سيرين"، وأنى سمحت لجسدى بأن يلبى نداء جسدها، ما الذى كان جرى؟! كانت اختلفت الأمور، ودارت العجلة فى اتّجاه الحياة، إمّا كنت تزوجتها، أو كنت شبعت منها ثم تركتها، لكّتى فى كل الأحوال كنت سأشتري محل "مانيفاتورة"، وربما صرت أكبر تاجر أقمشة فى بر "مصر"، ولم يكن ضاع العمر بين السّحالى والضّبان والتّعالب والدّئاب، وهذه الأجساد التى تحيا ميّتة.

لكن كيف للرّب أن يطيب باله وعبيده فى هناة؟! لا بد من العذاب والألم، البنت تمسك قضيبى الذى نفر فى قبضتها، وجسدى طاب له المشهى، وبدلا من أن أمرح فى جنان "سيرين" وأشجارها، وأعبّ من نهر حبا وأروى عطشى، يظهر الرّب فى سماء الغرفة غضبانا! وتظهر روح الملعون "نظير" غضبانا، وأنا كنت فى عز شبابى، وكلام أبى عن "المسيح" فى صدرى لم يزل غضّا، وصعّب علىّ صليبه المكسور فى نجح "أبو ليله"، ولم أشأ أن أكسر أيضا صليبه الذى فى قلبى، وبغباوة العبيد ضربتها بكف زهقان، أطرش من وشيش الغضب، وخرجت من الغرفة مسرعا، أقف على السّطح المكشوف، أسحب الهواء إلى رئتّى المخنوقتين.

يا لغبائك يا "صبحى"! تطيع روحا تهيم فى سماء الحجر، وتعصى جسدا كاملا بصّا دافئا، يريد أن يمنحك حبّه فى فراشك؟! يا لحماقتك أيها الرّاهب المغبون "يوائس"!

- ويعد؟

- ها أنا كما قلت لك، أفضى أيام العمر منفيًا في هذه الصحراء.

- تنفى نفسك لأنك ضربت واحدة على خدّها فتركتك وهربت؟!

- لا، نفيت نفسي لأنى قتلت "سيرين".

- قتلتها يا مقدّس؟!

بعد ظهيرة اليوم التالى، وبينما "صبحى" فى المحل، يتعامل مع الزبائن، ورأسه يمور بما جرى فى الليلة السّابقة، رأى "سيرين" تدخل، وجهها رائق ومبتسم، وملابسها ملوّنة ومحبوكة، وشعرها منطلق، وفى يدها كيس به لفافة.

ابتهج قلب "صبحى" لمراها، لكنّه كسر عينه ونظر فى القماش الذى يقطعه للزّبائن، كان خجلا مما حدث بالأمس، بينما "سيرين" بدت وكأنها لم تكن تحيا أساسا بالأمس، كانت جديدة تماما.

وبعدما غادر الزّبائن المحل، أخرجت اللفافة من الكيس، وفتحت أوراقها، كاشفة عن حلوى البسبوسة، قطعا متراصة فى طبق كرتونى، وضعتته على التّضد الذى تراصت فوقه دفاتر حسابات، وأوراق فواتير، وابتسمت وهى تهز رأسها، وقالت: اعمل لى شايا يا "صبحى".

وقف "صبحى" ليعمل لها الشّاي، وكان قد رأى الصليب مخضراً فى رسغها اللدن، صليبا مبهجا، مشعًا بالحياة، وليس أبدا خشبة لعنة، تُزهق عليه روح ابن الإنسان.

ما الذى يفعله الليل بـ"سيرين" فيجعلها غير سويّة؟!

فتح "صبحى" باب غرفته، فدخلت، دموعها تسيل، وفمها يشهق، وألقت بنفسها فى أحضانه، فصرخ الرب "يسوع"، الطواف فى سماء الحجره: احذر يا ابن الإنسان.

وصرخت روح المعلم "نظير"، التى عادت للسكن فى ركنها بجوار السقف: احذر يا ابن الإسكافى.

صفت الصرختان وجهه رغبتة، فأزاح "سيرين" من بين ذراعيه وصدرة بجفاء، فنظرت فى عينيه، وهمست: لماذا تكرهنى؟!

اتجه "صبحى" إلى صندوق متوسط الحجم موضوع بجوار الحائط موازيا للسريـر، فتحه، وأخرج منه علبة صغيرة مكسوّة بالقטיפه الحمراء، رفع غطاءها الصغير، وأخرج منه سلسلة ذهبية تدلّى منها صليب لمّاع، ومد يده بها إلى "سيرين".

ابتسمت، وقالت: أنت تجبنى يا "صبحى"؟!

لم تحفل بالسلسلة الذهبية، وإنما وضعتها فى علبتها، ثم ألقت بها على السريـر، وأخذت تفك أزرار قميصها، استدار "صبحى" مبتعدا عنها إلى الوابور، وجلس على الكرسى المنخفض، وأخذ يكبس الوابور، يعدّه للعمل واشتعال الثّار.

سمعها تقول: أنا لا أريد شايا يا "صبحى"، أنا أريدك أنت.

- هل يمكن لشاب أن يسمع مثل هذا الكلام ولا يلبى يا "حجيزى"؟!  
نكس "حجيزى" رأسه، وأخذ يقبّل الثّار بأحد أعواد الخطب، ولم يُجب.

- "سيرين" نادت على بصوت مبحوح: تعال.

أنا نظرت إليها، فوجدتها مستلقية على السرير عريانة كيوم ولدتها أمها،  
وتحت باطها علبة القטיפه، لكن كيف لي أن أذهب إليها وضجيج صرخات  
"المسيح" والمعلم "نظير" يعصف بي؟! لم يكن ممكنا أبدا أن ألقى بنفسى فى  
رغبتها، وهناك أعينها الغاضبة تهتك عرينا.

ثم، كيف خلعت "سيرين" ملابسها كلها، واستطاعت أن تتمدد بكامل عريها  
هكذا، من غير ذرة نخل؟! بل وتدعونى كى...

فى صخب الناس، وهوس دنياهم، يضع صوت الروح، أحبال الحناجر لها  
الغلبة، والألسنة تتكلم بكل ما يؤذى كينونة الأجساد، فى حين أن الروح  
تتكلم بالحق، للحقيقة، من أجل صالح هذه الأجساد، والصحراء، هذه  
المنافى الساكنة، بيئة صالحة لسامع صوت الروح، الصوت الخفيض الهامس  
كصوت ملاك.

أنا سمعت هذا الصوت، كثيرا سمعته، وطويلا كانت روحى تشرح لى ما  
جرى، لكن كيف أستمع لصوت روحى، وأتجاهل صوت الرب؟! ما تقوله  
روحى لا يستقيم مع كلام "يسوع"!

روحى تقول: "سيرين" أصدق منك يا "صبحى"، أحببتك بروحها، فدق  
قلبها، وأرادت أن تضمك إليها بجسدها، فطلبت منك ذلك، ولم تخبئ شيئا،  
تعاملت مع الأمر ببساطة.

لكن كلام الرب ليس هكذا، الرب يتكلم عن الزنا، ليس رجل وامرأة  
يعرفان بعضهما فى فراش من غير علم الناس ومباركتهم إلا زانيين.

قلت لروحي: "سيرين" كانت عاهرة، ليست أكثر من عاهرة، أقدم لها حتى في علبة مكسوة بالقطيفة، وهي ترفضه، وتطلب جسدي!

أيام طويلة قضيتها في هذا الكهف أجادل روعي، أحاول إقناعها بأن "سيرين" كانت مُشينة، وكانت تستأهل قتلها، وفي مرّة بصقت، وزعقت: كانت مومسا.

فإذا بي أرى روعي تتكاثف في فضاء الكهف، بنتا بيضاء مثل نتف القطن، بنتا تشبه...

كانت روعي يا "حجيزي" تشبه "سيرين"!

آه، كم هو غبي هذا الإنسان؟! معقولة أنا عشت حياتي كلها، روعي في داخلي تشبه "سيرين" ولا أعرف؟!

نظرت روعي لى فترة طويلة بغضب، قبل أن تعود إلى الورا فتختلط بالتؤوات الصخرية لجدار الكهف، ثم تندفع إلى الأمام، وتركل وجهي بقدمها. شعرت بدوار رهيب، وأنا أسمع صوتها مثل صلصلة الأجراس: أنت من ضيع "سيرين" يا أحمق، وأنت من ضيعت نفسك.

\*\*\*\*\*

الرب لا يصمد كثيرا أمام المال، والمال لا يصمد كثيرا أمام الحب، الحب يهزم الجميع، إذ أن "صبحي" بعد اكتمال هذه السنوات الخمسة في "أسيوط" كان قد نسي الصليب المكسور، وكنيستته العاجزة عن التوسّع في "أبو ليلة"، كما أنه لم يعد يهتم بالحمال الحمراء الشاخنة بأنوفها على أوراق الجنبيات الأبية، وإنما صار يقف في محل "المانيفاتورة" ذاهلا مثل مريض، ناحلا من حب

”سيرين“، الحب الذي تبيحه له صاحبة الشأن، بينما تمنعه عنه تحذيرات الرب، وأحقاد ميّت مثل المعلم ”نظير“.

لم تعد ”سيرين“ تأتيه، لا في المحل، ولا في غرفته، كانت تأتيه من قبل في المحل من أجل أن تمهد للقاء الغرفة الليلي، لكن لقاءات الغرفة كانت تنتهي دائما بما هو مهيّن لها، مرات عديدة تتعرّى له، مرات تلتقي بنفسها عليه، تتحمل لكزاته ودفعه لها، على أمل أن تنتصر يوما، أن يلين، كانت تظن أنه يعاني من الخجل، أو من تركيبة شخصيّة خاصّة معقّدة، وفكرت أنها في كل ليلة قد تكسر جزءا من حائط الصّد هذا، وتحل عقده.

في هذه الليلة أفلحت بعد طول تشابك في أن تدفعه لتلقى به في السرير، ثم تعلوه، شعرها مموّش، وعرق جبينها يلتمع في الثور الهاديّ للمبة العويل، ونهداها يتدلّيان فوق وجهه اللاهث، كانت تضغط على كتفيه، وكان يستطيع أن يزيحها عنه بسهولة، لكن جسده كان يتأمر عليه أيضا، أحب اعتلاء ”سيرين“، وكانت الرّغبة تجتاحه مثل فيضان هادر، لكن عيناه ترفضان دائما أن تلتقيا بعينيها، دائما تنظران إلى أعلى، وتدوران في محجريهما كأنه ينظر إلى أشباح تطوّف الحجرة بهوس.

كانت تضغط على كتفيه تمنعه من الحركة، وقالت بضيق فيه رجاء: لماذا ترفض؟! أشعر به تحتى مثل الحجر، فلماذا ترفض!؟

هتفت بصوت مكبوت: لا تضربني، لا تدفني، ولكن أخبرني، قل لي.

- لو قلت لك ستسخرين مني.

أرخت ملامح وجهها الغاضبة، وقالت بلهفة: لن أسخر منك، صدّقتي.



رفع "صبحي" ذراعه اليمنى، وتتبع بسبّابته شيئاً يتحرّك في سماء الحجرّة، لم تتمكّن "سيرين" من رؤيته، لكنّها سمعت صوت "صبحي" مخنوقاً، يهمس: ها هو "المسيح" محتاجاً، ينظر إلينا بغضب.

وعندما ضمّت شفّتها إلى بعضها مذهولة، كان "صبحي" يشير إلى ركن قرب السقف، ويقول: وها هي روح المعلّم "نظير" تصرخ في "إحذر يا ابن الإسكافي".

اكتمل ذهول "سيرين"، ومن غير كلام لبست هدومها، ومن غير كلام مضت.

- لم أعد أرها، وعادت الأيام إلى سوادها القديم، تمر بطيئة، لكنّها كانت أكثر مرارة، كان غياب "سيرين" قد أفقد حياتي روحها التي عملت في وجداني مؤخّراً، فأعطت للدنيا طعماً آخر، لا يكون لما لا تكون.

وفي عصرية كئيبة، جاء المعلّم "اسطفانوس"، صاحب أحد محلات "المانيفاتورة" المجاورة، وجهه السمين مريداً، وشاربه المفتول مرتخياً، وجلس على الكرسي، وأمال رأسه إلى رأسى، وهمس: بنت المعلّم "نظير" مالت ميلاً شنيعة يا "صبحي"، ولولا أنى أعرف مقدارك عند المرحوم، ومقداره عندك ما أخبرتك، البنت مالت ميلاً شنيعة، وتمشى على حل شعرها مع ولد مسلم، الثّاس رأوها تدخل بيته يا "صبحي"!

"السّماء تلبدت بالغيوم، والشّحب الحمراء في سواد الليل تتصادم، وتدوّى بهزيم الرّعد، وألسنة البرق تتلوّى فتشرخ الفضاء الغاضب، أحد هذه

الألسنة يضرب الصليب المكسور المغروس في أعلى برج كنيستنا، فيزرعه ليلقى به فوق أحد أسطح البيوت القريبة، والمسيح يهوى من تحويمه في حجرتي، ليسقط على الأرض وهو يعوى، وثمة خنجر مرشوق في قلبه، على مقبضه مرسومة إحدى عيني سيرين، سيرين قتلت المسيح، والمسلمون يمارسون هوايتهم في السخرية من الرب يسوع وشعبه، حتى في مملكته القائمة في أسيوط.

لا أعرف كيف انقضى الوقت، وبعد العشاء أغلقت المحل، ومضيت متجها إلى حجرتي، الشوارع هادئة، قليل من الناس، وبعض عساكر إنجليز يصخبون، وسيارة تمضي لتتبعها بعد حين سيارة أخرى، وقرم مكتمل يسير فوقى، يمشى معى، لكيتي أذكر أنى في هذا الوقت كنت متملكا نفسى تماما، كنت قد قررت قتل "سيرين"، وكان هذا يسبب لى راحة خدرت أعصابى.

وصلت إلى باب عمارة المعلم "نظير"، ولأول مرة، وأنا الذى دلفت من هذا الباب سنين طويلة، أنتبه لضخامته، وأنه من حديد تشابك والتوى ليرسم ملاكين على ضلفتيه، بينما دارت الصلبان تؤطر أعلاه.

صعدت على السلام الواسعة، كانت تلمع بنور مصباح باهت تدللى من السقف العالى للمدخل، وعند باب شقة المعلم "نظير" توقفت.

باب خشبى ثقيل، له شرعتان من زجاج أبيض مغبش، احتمنا بشبكة حديدية زرقاء مزوّقة.

طرقت الباب، ومع الصمت بدأ قلبى يخفق، ثمة مفتاح لجرس كهربائى بجوار الباب، ضغطت عليه، فأطلق صليلا حادا، وسمعت حفيف خطوات خفيفة تقترب من الباب.

جاءنى صوتها، صوت ”سيرين“: من؟  
- ”صبحى“.

إنها السّاعة التى قبل الفجر تماما، أحلك ساعة، وساعة الصّقيع، ووقت الحزن، وبكى الرّاهب ”يوانس“، ونشج، والنّار ارتسمت فى دموعه، ووجهه توهّج بنورها.

قال: فَتَحَتِ الباب وأطلّت فى عيني، توهّجت فرحة خاطفة فى عينيها، ثم انطفت.

لا أعرف كيف قتلتها حتى الآن؟! كيف هانت على؟! هل كنت ممتلئا بالشّيطان إلى هذه الدّرجة؟! إلى حدّ البلادة...  
وقتها كنت أظن أنتى ممتلى بالمسيح!

- ماذا تريد؟

- أريدك أنت.

- لكّنى سأخرج الآن.

- أحتاج الكلام معك.

صمتت، فقال بنبرة حاملة: سأنتظرك فى غرفتى.

”إلى أين ستخرج هذه العاهرة؟! بالتأكيد تنوى الذهاب إلى عشيقها المسلم، الكافرة، لن تتمكن أبداً من الذهاب إليه بعد الحين، فهي ابتداء من الآن تعيش لحظاتها الأخيرة“.

فتح ”صبحي“ باب حجرته، وأتجه فوراً إلى الصندوق الخشبي المجاور للوابور، الذي يضع به مستلزمات طعامه، طبق وكسرولة وحلة صغيرة وملعقتان، إحداها صغيرة لتقليب الشاي، وسكين صغير ذو نصل طويل قوى، اصطدمت يده بالسكين، فأمسك بها، وبسرعة خبأها تحت وسادة السرير، كانت دقات قلبه قد صارت ضارية، وتحت ضلوعه يتزلزل، أشعل عود ثقاب، وأضاء اللمبة ”الكيروسين“، ونظر إلى فضاء غرفته، كان خالياً، لا مسيح، ولا شبح روح المعلم ”نظير“.

ظهرت ”سيرين“ في باب الحجر، واقفة، كأنها لا تريد الدخول، فقال ”صبحي“: ”أدخل“.

قالت بصوت خفيض ساخر: ربما ”المسيح“ يكون في غرفتك، وروح المعلم ”نظير“ أيضاً.

نظر إلى فضاء الغرفة وهو يهيم بقول ”لا“، لكنّه فوجئ به، في قلب الفضاء، ينظر إليه متألماً، وقد نشر كَفَّ يده على جرح كبير عند قلبه، يبكُ الدماء.

ابتسم ”صبحي“ ابتسامة شاحبة، فدخلت ”سيرين“، وجلست على حافة السرير، من غير أن تغلق باب الحجر كعادتها، فأتجه ”صبحي“ إلى الباب وأغلقه، فنظرت إليه ”سيرين“ نظرة مندهشة.

- جلسْتُ على الكرسي الواطئ، أمام وابور الجاز، وأخذتُ أعده للاشتعال،  
بينما أفكر في كيفية قتلها، كيف أغرس فيها السيكين؟ وأين؟ أى منطقة في  
جسد الإنسان إذا عَرَّست فيها نصلاً حاداً، يموت بسرعة، ومن غير ضجيج،  
ثم فكرت في جدية ما أنا مقدم عليه، هل فعلاً سأصير قاتلاً؟! وهل فعلاً  
سأقتل ”سيرين“ بالتحديد؟!

سألتهُ بصوت مرعوش: كنت ستخرجين لمقابلة هذا السافل؟!؟

لم تبد عليها أيّة مفاجأة، بل خيّل لى أنى رأيت طرف ابتسامة على شفيتها،  
وقالت: من أخبرك؟

- إذن ما سمعته صحيحاً؟

- صحيحاً أو غير صحيح، ما الذى يعينك فى هذا الأمر؟!

- يعينى أن هذا السافل مسلماً.

رأى ”صبحى“ زاوية شفيتها تنقلص، ليشع وجهها باحتقار غريب، فتظهر  
”سيرين“ أخرى غير التى عرفها، ”سيرين“ قاسية ومتمترّة.

- فقط هذا الذى يعينك؟! لو كان السافل مسيحياً لن يشغلك الأمر؟! يا  
لها من خسارة.

ووقفت كأنها لدغت، وعندما همّت بالتحرك ناحية الباب، أمسك ”صبحى“  
بذراعها ليمنعها من المغادرة، فنظرت إليه نظرة طويلة متهمّكة، قبل أن تجذب  
ذراعها، لتنفلت من قبضة يده، وتتحرك فى اتجاه الباب.

في لحظة خاطفة، ففكر في أن يخطف السيكن من أسفل الوسادة، وينهال بها طعنا في ظهرها وعنقها، لكنّه وجد نفسه يهرول ناحيتها، ويقبض على عضدها قبل أن تصل إلى الباب، ثم يجذبا بقوة، ويلقى بها على السرير.

بوغتت "سيرين" بهذا التصرف، وحاولت أن تعتدل، لكن "صبحي" كان قد جثم فوقها وهو يلهث، وأحاط عاتقها بكفيّه يدفعها للسكون التام.

- المسيحي عندما يركبك لا يفكر سوى في أنه يقضى شهوته مع عاهرة، لكن المسلم عندما يركبك، يركب كل المسيحيين، ويدل "المسيح".

- لم أكن أظن أنك سافل إلى هذه الدرجة.

حاولت نزع ذراعيه، بينما كانت تطلق كلامها الملتهب: أنا التي أردت أن أذل مسيحك، وليس المسلم، أنا التي أردت أن أعطيك درسا، مسيحك الذي يمنعك مني، لم يمنع المسلم مني، لو كان مسيحك مهتما بالأمر كما تظن لقتل المسلم قبل أن يلمسني.

مدت ذراعيها بكل قوتها، وأحاطت بكفيها رقبته، وهي تدفعه عنها، كانت تفتح: مسيخ وهم، وروح المعلم "نظير" وهم، وأنت أغبي إنسان قابلته.

انسلت يد "صبحي" إلى أسفل الوسادة، وقبضت على يد السيكن، بينما "سيرين" تواصل فحيحها: المسلم أذكى منك، لما رأني أخرج إلهه من رأسه، وتمتع بي.

كانت هذه آخر كلمة لـ "سيرين" في الحياة، فلقد جحظت عيناها، بينما بؤبؤاها يدوران في محجريها، وانفتح فمها ليشهق شهقة طويلة، ونصل السيكن يمزق قلبها، ولهب اللبنة الكيروسين مستقرا في مكانه، كأنه لهب مرسوم في لوحة، لكنّه يشع نورا أفلح في أن يرى "صبحي" على ضوءه ابتسامة "المسيح"

المغتبطة، ونظرة حيرى فى عيني روح ”نظير“ المستكينة فى زاويتها قرب  
السقف.

\*\*\*\*\*

سن الشمس ييزغ من الأفق، بالكاد يرسل نورا باهتا، ورمال الصّحراء  
تصطبغ باللون الرمادى، والعصافير تشقشق داخل الأشجار.

وما زالت التيران تططق وهى تلتهم الحطب المكوم تحت الأكف الأربعة  
المبسوطة فوق اللهب، تمتص الدفء.

- كانت ليلة طويلة.

- نعم، ليلة طويلة.

- متى يعود ”عبدالله“؟

- لم؟!

- سأعود معه إلى ”الوعرة“.

صمت الزّاهب ”يوانس“ طويلا، ونفض عن حجره حشرة نمل كبيرة، ونظر  
إلى قرص الشمس الذى ظهر مستديرا، مستندا بجأفته إلى رمال الأفق،  
وقال: من كان منّا بلا خطيئة فليلقك بحجر يا ”حجيزى“، حتى أنا نفسى  
تتمنى لو أنها الآن تعود إلى نجح ”أبو ليلة“، ربما ما زال الصّليب هناك  
مكسورا فأصلحه.

مد يده وأمسك بعصاه، وتساند على يده الأخرى، ونهض واقفا، وقال: لا  
أحد يعرف متى يأتى ”عبدالله“، لقد مضى بالأمس أمام عينيك، ربما يأتى

بعد أسابيع، أو أشهر، عموماً، أنت أمامك فرصة طويلة وممتدة، لتصغى في هذه المنافي إلى صوت روحك، لعلك تنقذها قبل فوات الأوان.

ابتسم "حجيزى" ابتسامة ساخرة، منهزمة، وقال: عمرى ثمانين عاماً يا مقدّس، لقد فات الأوان بالفعل.

قال الرّاهب، بينما يستدير للمضى نحو المدق الصّاعد إلى الجبل: ربما تعيش عشرين عاماً أخرى، عشرون عاماً أخرى ليست بالزّمن القليل.

كان يصعد المنحدر، بينما صوته الباكي ينساب إلى أذنى "حجيزى": "لنبدأ بدءاً حسناً، ارحمنا إلى الأبد، الليل عبر، نشكرك يارب، إحفظنا فى هذا اليوم بغير خطيئة، وانقذنا.



## الْوَلِيفُ تَنْسَحِبُ رُوحَهُ لِبُعْدِ الْوَلِيفِ

أخذ "غنيمة" يزيح الرَّمْلَ بمسحاته ويلقى به في الحفرة، يعيد ردمها، طالما أنه ليس بمستطاعه إخراج جثة "جاله"، فلن يسمح أبدا لضواري الصَّحراء بنبش الحفرة والفتك بجسدها.

وبعد أن انتهى، جلس يفكّر في حاله، لم يزل تائها، والشَّمْسُ تميل نحو المغيّب، ها هو مكان الغروب، هذا هو الغرب، لكنّه لم يستطع رغم ذلك أبدا تحديد اتّجاهه، ولم يكن مستعدا للبقاء في نفس المكان ليلية أخرى، سكون المرتحل في الصَّحراء لو لم يكن من أجل استراحة، فهو خطوة نحو الموت، لا بد من الحركة قبل نفاذ الزاد والماء.

- إلى أين نتحرك؟

كان يوجه خطابه لكلبه، الذي كان يقعى على مؤخّرته، ناصبا ذراعيه أمامه ويلهث، لكن الكلب أرخى أذنيه، وأطلق نباحا خافتا ممدودا مثل الأنين.

أما الثّاقَة فمستمرّة في الاجترار، تفتح عينين مطمئنّتين غبيّتين، لا تريان أن ثمة مشكلة هناك.

دار "غنيمة" برأسه في كل الاتجاهات، كلها متشابهة، رمال منبسطة من غير آخر، سفيفة، رمال خالية من أية معالم، حتى هذه الأشجار القصيرة لم تعد هناك بعد أن دفنها "الغرد".

"من قال لك أن هذه الناحية هي ناحية غروب الشمس، ربّما غربت هناك، في تلك النّاحية الأخرى! مسلك الشمس لا يبدو واضحاً في سماء صحراوات بلا معالم".

نظر طويلاً إلى كلبه المهموم، اللاهث، ثم أعاد سؤاله: إلى أين نتحرّك يا كلب يا ابن الكلب؟

- ليست العصافير فقط هي التي تصلّي مرّتين في اليوم يا "حجيزي"، الكلاب أيضاً تصلّي مرّتين، مرّة في الفجر، ومرّة في العشاء، تسمعها كيف تعوى لما تسمع أذان "سعدون"؟! حتى الكلاب يا أخي تعرف الله! كلبى لما سألته "إلى أين نمضي؟!"، رفع رأسه إلى أعلى، ونظر بعينه إلى السّماء، وعوى، فذكرني بالذي عنده الحل، وطريق الهداية، الكلب هو الذي ذكرني بالله يا "حجيزي".

قرّر أن يصلّي لله ركعتين، يسأله فيها النّجاة، لكن ما عملته معه "جاله" في ليلة الأمس أصابه بالجنابة، وكان لا بد أن يغتسل.

الماء في القرية ليس بالكثير، طالما أنه لا يعرف نهاية متاهته، ورغم أنه يعلم أن هناك تيمّماً يمكن أن يتطهّر به، إلّا أنه لم يكن يعرف كيفيّة، الأخذ من الماء الآن لمجرد الاغتسال هو تصرف يوجع القلب.

”قَدِّمِ لَهِ يَا غَنِيْمَةَ، بِمَاذَا سَتَفِيْدُكَ قَرْبَةُ الْمِيَاهِ لَوْ بَقِيْتُ ضَالًّا فِي هَذِهِ الْمَفَازَاتِ، سَتَشْرِبُهَا ثُمَّ تَمُوتُ مِنَ الْعَطْشِ أَيْضًا، لَكِنْ لَوْ هَدَاكَ اللهُ رَبَّمَا تَصِلُ إِلَى النَّجَاةِ وَفِي الْقَرْبَةِ مِيَاهٌ، قَدِّمِ لَهِ يَا غَنِيْمَةَ“.

- فِي لِحْظَةِ خَاطِفَةِ غَلْبَنِى الشَّيْطَانِ، وَرَمَى فِي ذَهْنِي تَسْأُولُ، لِمَاذَا لَا يَقْدِمُ اللهُ حُلُولًا إِلَّا إِذَا قَدِّمَ لَهُ الْوَاحِدَ مِنَّا مَا يَمْلِكُهُ؟! لِمَاذَا دَائِمًا يَتَعَامَلُ بِمَنْطِقِ التُّجَّارِ، هَاتِ وَخُذْ!؟

اسْتَغْفَرْتُ اللهُ بِسُرْعَةٍ، عَرَفْتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَرِيدُ قَتْلِي، يُوَقِّعُنِي مَعَ اللهِ، الْكَافِرُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ مَا يَقْدِمُهُ اللهُ لَنَا أَكْبَرُ وَأَقِيمُ بِكَثِيرٍ مِمَّا يَأْخُذُهُ مِنَّا، وَهُوَ سَيَأْخُذُ قَلِيلًا مِنَ الْمَاءِ، وَسَيُهِنُنِي الْحَيَاةُ كُلَّهَا.

رَغْمَ أَنَّ الصَّحْرَاءَ بَلَقَعَا خَاوِيًا، إِلَّا أَنَّ ”غَنِيْمَةَ“ جَعَلَ النَّاقَةَ الرَّابِضَةَ سَاتِرًا، وَخَلَعَ هُدُومَهُ، وَصَارَ عَارِيًا، وَعِنْدَمَا دَارَ الْكَلْبُ لِيَأْتِي وَيَقْعَى فِي مَوَاجِئِهِ، ضَرَبَهُ بِحِصْوَةٍ، وَهُوَ يَنْهَرُ: جَرْرُ، كَلْبٌ مَا عِنْدَ الَّذِي خَلَقَكَ حَيًّا.

- يَتَصَرَّفُ الْإِنْسَانُ مِثْلَ الْحَيَوَانَاتِ يَا ”حَجِيْزِي“، كَانَتْ الصَّحْرَاءُ مَا فِيهَا شَكْلُ ابْنِ آدَمَ عَلَى مَدَى الْبَصْرِ، وَلَيْسَ مَعِي سِوَى نَاقَةٍ بَهِيمَةٍ، وَكَلْبٌ لَا يَعْقِلُ، وَأَصْرُ رَغْمَ ذَلِكَ عَلَى السُّتْرَةِ مِنْ عَرَبِيٍّ! مِثْلَ الْقَطِ الَّذِي يَقْضِي حَاجَتَهُ عَلَى الْحَجَرِ الصَّلْدِ، وَيَصِرُ، بَعْدَ انْتِهَائِهِ، عَلَى تَحْرِيكِ ذِرَاعِهِ كَأَنَّهُ يَدْفِنُ خِرَاءَهُ، وَهُوَ لَا يَدْفِنُ شَيْئًا، الْغَرِيْزَةُ تَحْكُمُ الْجَمِيعَ، عَاقِلٌ أَوْ غَيْرَ عَاقِلٍ.

يصب "غنيمة" الماء من فم القربة على كفه، ويدعك جسده، والرّمال التّاعمة على جلده تتحوّل إلى معجون لزج، وحارق، فيضطر إلى صبّ الماء بغزارة، وعندما انتهى، كان الماء قد شارف على التّفاد، وكانت فرصة التّجاة كذلك، فنظر إلى الماء المتبقّي، ودق قلبه هلعاً، سينفذ الماء قبل أن يصل إلى أى أفق من هذه الأفاق، وليت الحياة تكون عند الأفق، ربما بعد الأفق آفاق أخرى قبل التّجاة، التي قد لا يصل إليها.

صلّى لله واقفاً، وصلّى راکعاً، وعندما سجد، وانكفأت رأسه في الرّمال، لسعته حرارتها، لكن حرارة دموعه كانت أسخن، وسخونة مأزقه كانت أشد لهيباً، واستعمل قلبه، كان لا بد أن يستمع الله إليه، والامات.

- رأيته يا "حجيزى".

- رأيت من؟

- رأيتُ الله.

- أنت رأيت الله؟!

- رأيته.

- طيّب! وما شكله يا ابن الكلب.

انسان ضخم لا مثيل لضخامته، الضُّخور الشّاهقة هذه التي حول جبّانتنا تحت قدمه مثل ذرّة رمل، رجل جميل الوجه، مليئ بالحنان والحب، عمره في الخمسينيّات تقريبا، يلبس على رأسه تاجاً تتقلّب فيه جواهر مثل الشُّموس، ويرتدى قميصاً لونه أبيض زهري يكب أنواراً، وأصابع يديه مُلبّسة

خواتم وهَّاجَة، تشع ألوانا مضيئة، وكان يجلس فوق شجرة تلتع ببروق خضراء، وقدماه مدليتان، وليس فيها خوف أو حذاء.

- يا رب، انقذني.

- سأنقذك.

- الحمد لك يا رب.

- لكن ليس قبل أن تدفع الثمن.

في هذه اللحظة أردت أن أسأله: لماذا وأنت الله الكريم، لا تعطى الإنسان شيئا إلا وتأخذ منه ثمنا؟!!

خجلت، ولساني عجز، لكن الله يا "حجيزي" يعلم ما في النفوس فعلا، كإنه سمع سؤالي، فقال لي: لا يجيأ الإنسان إذا أخذت منه من غير أن أعطيه، ولا تتحقق قيمته إذا أعطيته فقط، من غير أن آخذ منه، هكذا يصير مجرد عبد، وأنا ما خلقت الإنسان ليكون عبدا دينيا، يأخذ من غير عطاء، وإنما خلقتة خليفة لي، ربا على هذه الأرض، كما أنا أعطى، هو يعطى أيضا، وكلما أعطى بالرِّضا، صار ربا أقوى.

نظر "حجيزي" في عيني "غنيمة"، ثم قال: أنا أصدِّقك هذه المرّة يا "غنيمة".

- لماذا تصدِّقني هذه المرّة؟!!

- هذا الكلام الذى قلت أن الله قاله لك، كلام موزون، ومعانيه عالية، وأنت حمار لا تستطيع تأليف مثل هذا الكلام، آخرك الكلام عن "شقمق" بيك.

- طيّب، المهم، دعني أكمل لك...

- هذا كلام سمعت مثله من "المسيح" نفسه.

نظر "غنيمة" إلى "حجيزى" نظرة مشفقة، وقال: أنا الذى لا أصدّقك هذه المرّة يا "حجيزى"!

\*\*\*\*\*

التّاقان رابضتان فى متّسع بين القبور، الشّمس غابت تماما، وكان "بكير" قد عمل شايًا، ومد يده بكوب إلى أبيه، وبجركة لا إرادية أخذه "حجيزى"، بينما مال برأسه ناحية القبر الجديد، مستغرقا تماما فى سماع صوت "سعدون" المدفون تحت الرّمال، ولم يكن بمقدور "بكير" فعل شيء غير التّظر إلى أبيه باندهاش صامت.

- أنا أخطأت لما سمعت كلام "زليخة"، كانت تريد سعادتي، لكنّها أهالت علىّ الأحزان، وأوّل الأحزان كان موتها.

الوليف تنسحب روحه لبعد الوليف، ويتبخّر لحمه عن عظامه من حريق الوجد، فينحل، حتى يموت، ولم يكن "سعدون" بالنّسبة لـ "زليخة" مجرد زوج، كان وليفا، وكانت فى كل صباح من صباحات عرسه، تحمل صينية واسعة، عليها أطباق الفطور، ممتلئة بزبد وجبن ولبن وبيض، وحلوى العجوة، وتذهب بها إلى باب غرفته، وتطرق طرقة مستحيّة، يسمع "سعدون" الطّرفة فيرتبك، ويدفع "بثينة" كي تفتح الباب، فتقول له: افتحه أنت. فيهمس لها وهو يكاد يبكي: حرام عليكى، ما أستطيع التّظر فى عينها.

وتقف "زليخة" تنتظر طلةً وجه "سعدون"، تريد رؤية السعادة في عينيه، وتريده يرى الحزن في عينها، لكن دائماً يطل وجه "بثينة"، بارداً، تأخذ منها الصّينية، ولا تعرف ماذا تقول، فتغلق الباب.

وتقف على الباب وهي تحمل الصّينية الواسعة، رصّت فيها أصناف طعام الغداء، الفطير الرقاق، وطاجن المرق المعبأ باللحم، وطبق الملوخية، وطبق الفاصولياء، وخبز. ويطل وجه "بثينة"، ولا يظهر "سعدون"، وتأخذ "بثينة" الصّينية، وجهها بارد، لا تعرف كيف تنطق كلمة شكر، إنما يركبها الحياء، فلا تعرف ماذا تقول، وتغلق الباب.

وكذلك في العشاء، تحمل الأطعمة، وتنتظر طلةً "سعدون"، فلا يطل، ليبدأ عذاب الليالي.

عندما دخل "سعدون" بعروسه في أوّل ليلة، دخلت "زليخة" غرفتها، فما عرفتها، أحسّت أنها قد دخلت مكاناً غير مكانها، مكاناً يشبهه، نفس الدُّولاب، والسّرير، والمرآة المعلقة على الحائط، والكرسى الخيزران القديم، لكن مواتاً بارداً يحيط بكل هذه الأشياء، بينما أشياءؤها، التي عاشت معها كل هذه السنين الطويلة، دائماً تكون حيّة ودافئة.

وقفت فترة بجوار الباب، قدماها ثقيلتان، تريدان الدّوران إلى الخلف، والخروج، لكنّها من غير شعور، وجدت نفسها على السّرير، متكئة على وسادتيه العاليتين، وعيناها تدلقان ماءً حاراً، وصار السّرير صحراء واسعة، تتوه فيها وحيدة، وليلها زمهير، فتدلّت من السّرير، وتركت الغرفة.

كان باب الغرفة الأخرى في مواجهتها، غرفة العرائس، فانقبض قلبها واعتصر، لكنّها مضت إلى عمق البيت المكشوف للسّموات، السّواد العلوى، وبريق نجوم أخاذ، وقط يمضي بجذر المفترس على أحد الجدران، ودجاجة تقأقئ قافأة

مفاجئة مذعورة، ودفعت "زليخة" باب غرفة الخزين، فانسكب الظلام في وجهها، لكنّها تلمّست طريقها إلى أقرب جوال من الأجلة المملوءة بالذرة الشّامية، جلست عليه، ثم فردت جسدها، ونامت في الكوايس.

بعد مرور السّبعة أيام التّعريس، لم يكن هناك مفر من أن يترك "سعدون" غرفته، ويخرج ليجارس الحياة، التي يبدأها بأذان الفجر، فطلع من الباب ينظر إلى الأرض، مخافة أن يصطدم بـ"زليخة"، فتأتى عيناه في عينيها، فيرى ما لا يجب أن يرى.

وأذن "سعدون"، فحمل الهسيس صوته إلى أذني "زليخة"، فاعتدلت من منامها على جوال الغلّة، وأخذت تسمع بقية الأذان، مثل الأيام الخوالي، أذان رائق خاشع، يخرج من قلب راض، فيحرّك الكوامن، لتطير بالسّامع إلى سماوات الله.

وعندما انتهت الصّلاة، وشقشقت العصافير، حمل "سعدون" همّ العودة إلى البيت، وعندما دفع الباب ودخل، حدث الذي خشيه، وجاءت عيناه في عيني "زليخة"، فرأى الذي لا يجب أن يراه، ذبول الرّونق، وغيض البهاء، وسهام عتاب ترتشق في قلبه، هاله نحول "زليخة"، واتّساخ ثيابها، وجفاف شعرها، فوضع نظره في الأرض، وانطلق إلى غرفة "بثينة"، وأغلق الباب، وارتمى على السرير، الذي أحسّته "بثينة" يرتعش، فاستدارت في مضجعتها، ونظرت إلى "سعدون"، فرأته يبكي.



- مالك يا "سعدون"؟!

- "زليخة" تدبل.

- إذهب إليها الليلة، واجبر خاطرها.

- ما أقدر، مخجلان منها.

- تريد أن تتركها حتى تموت؟!

- جاء الليل يا "حجيزي"، وخرجتُ من غرفة "بثينة"، ساقاي تحملان قلبا ثقيلًا مثل جبل، فتتحركان ناحية غرفة "زليخة"، تزحفان زحفا، ماذا أقول لها؟! وهل ستقول لي شيئا، أم إنها ستنظر لي نظرة مرّة، مثل تلك التي نظرتها لي بعد صلاة الصُّبح وتسكت؟! وماذا لو قالت لي كلاما يذبح؟ وماذا أقول لو أنها بقيت صامتة؟

وجدت نفسي ملاصقا لبابها، ورفعت يدي، ووضعتها على الأكرة، وأدبتها، فاصطدمتُ بالظلام، تحب "زليخة" دائما النوم في عتمة الحلك.

تنحمت حتى تنتبه لدخولي إن كانت نائمة، وحتى أشجع نفسي إن كانت مستيقظة.

لم أسمع صوت حركة، حاولت أن اخترق الظلام برؤيتي، فلم أر شيئا، اقتربت من السرير، شيء ما أحسست به يقول: "زليخة" ليست في السرير.

مددت يدي أتَحَسَّس الفراش، ولم أجدُها فعلا، ففزعت، كان الفراش مرتبًا، لا يوحي بأنَّها كانت تنام وخرجت مثلا لقضاء حاجة، كان الفراش مرتبًا، يوحي بالهجر، أين ذهبت المرأة؟!

أخذت إحدى اللمبات العويل، أشعلت فتيلها، وخرجت أبحث عنها في كل أركان البيت التي من الممكن أن تكون قد ذهبت إليها في هذا الليل، ركن الطبخ، الكنيف، الفسحاية، العشش، لم تكن موجودة في كل هذه الأماكن، وعندما وصلت إلى أعلى درجات القلق، لمحت عيناى باب غرفة الخزين الموارب، ذهبت إليه، ودفعته، وعلى الصَّوء المتراقص رأيتها هناك، نائمة على الجوال الممتلئ بالغلَّة.

لم تكن نائمة، إذ أتى ما إن دخلت الغرفة حتى اعتدَّلت، وقفت مكاني، ولم أستطع الاقتراب منها، لكَّتي سألتها: لماذا تنامين هنا يا "زليخة"؟! لم ترد على سؤالي، وبقيت مشيخة بوجهها عني، تنظر إلى بؤرة مظلمة بين قدميها.

يا "زليخة" يا شقية، من الذى أشقاك؟ أنت أم أنا؟ أنت لما اقترحت علىّ الزواج من أخرى؟ أم أنا لما وافقت؟!

انفتح قلبي يا "حجيزى"، ففاض بكل شوقه إليها، وصعَّب علىّ حالها، وصعَّب علىّ نفسى، فوجدتني أندفع ناحيتها، وأجلس بجوارها وأبكي، وحرقتني البكاء فأجمشت، وكادت اللبنة تسقط من يدي.

"زليخة"! آاه يا "زليخة"، ما كانت "زليخة" زوجتي وحببتي فقط، كانت أما يا "حجيزى"، لديها غفران تمنح منه فلا ينتهى، أخذت اللبنة من يدي،

ووضعتها على الأرض، وقالت: أنا ما أعرف غير ”سعدون“ الذى يضحك،  
إضحك يا ”سعدون“.

قلت لها: أضحك لو جئت معى إلى غرفتك.

- غرفتى؟!!

- غرفتنا.

- لى شرط.

- أشرطى.

- لا تم مرة أخرى عند ”بثينة“، أنت زرعت البذرة ورويتها، ما عادت  
هناك ضرورة للذهاب إلى الغيط.

- الغيط يحتاج صاحبه يطل عليه ويتابعه.

- لكنه لا يحتاج لرمى بذور جديدة، ما أمنعك من الطل، أمنعك من البذر،  
وهذا شرطى.

- لكن ”بثينة“ ليست غيطا، إنها امرأة لها حقوق يا ”زليخة“.

قالت بجدّة وصرامة: هذا شرطى، وألا دعنى لحالى، واذهب لحالك.

أنا سكت يا ”حجيزى“، وهزرت رأسى بالموافقة، وقلت لها: طيّب، إذهبي  
استحمى، رأتحتك صارت عفنة.

لكرتنى فى كتفى، ووجهها انشرح، وأنا سبقتها إلى غرفتها، أفكّر فى شرطها.

قال ”حجيزى“: وماذا فعلت؟!!

- كنت أعيب وأقضى وقتنا عند "بثينة"، وبعدما أنتهى أذهب إلى غرفة الخزين لأخذ "زليخة" إلى غرفتها، كنت أقول لها: اكتشفت بورة في الغيط لم تكن مبدورة فبدرتها.

انطلق "حجيزى" يقهقه، لم تكن عادته القهقهة أبدا، دائما إذا ضحك بيتسم فقط، كأن القهقهة تؤلم عضلات وجهه، لكن أن يزيد الأمر إلى حد الاستلقاء على الرمال، فهذا هو الذى جعل "بكير" ينظر إلى أبيه وقد أخرسه المشهد تماما، هل جُن "حجيزى"؟! يجلس أمام قبر، ينصت لميِّت، ثم يقهقه حتى يستلقى على ظهره؟!!

\*\*\*\*\*

"الوعرة" انقلبت ترغى مثل الثوق بحكاية تمثال "سكيرة"، واشتهر في بيوتها أنه لولا أن "سليم" ولد "بكير" عشقها ما كان عمل هذا الصنم، فغضب "رسلان"، ولم يكتف بجلف يمين الطلاق من أمها إن أقدمت "سكيرة" على الخروج من البيت، وإنما ذهب إلى "حجيزى"، فوجده جالسا على المصطبة، ومن غير سلام قال: تكون يا عم "حجيزى" خصومة ليوم الدين بينى وبينك، لو لم تحطم هذا الصنم الذى نحتته وُلد "بكير".

- هذا والله منتهى العجب! وأين الأصول يا "رسلان"؟! قل أو لا السَّلام عليكم واجلس.

- لا سلام ولا جلوس قبل أن تحطمون صنمكم، تريدون تشويه سمعة البنت؟!!

- تقصد التمثال الذى عمله "سليم" فى الصَّحراء البعيدة؟

- بعيدة أم قريبة، ما تفرق، المهم هناك قُطران أسود يخرب البيوت.

- طيب إجلس وتكلم ما تحب.

- لا يا شيخ "حجيزى"، حطّ الصنم حتى لا يتحطّم الذى بينى وبينكم، وإلا أذهب لأحطّمه، فيتحطّم كل الذى بيننا، أمامكم ثلاثة أيام.

تهد "حجيزى" وقال: ما أعرف ما الذى يضيرك من هذا التمثال.

ابتسم "رسلان" ساخرا، وقال: كأنك لست من أهل البادية والعرب!؟

أشاح "حجيزى" بذراعه وهو يقول: والله أنا كرهت باديتكم، وكرهت العرب، هذا يا رجل يا عبيط تمثال يخد "سكيرة"...

زعم "رسلان" مقاطعا الكلام: يخد "سكيرة" ويقتل سمعة أهلها، كلامك هذا لا نفهمه يا شيخ "حجيزى"، احكه مع صاحبك، لكن لا تحكه لى.

وذهب "رسلان" وصدرة يغلى مثل المراحل، وكانت الشمس تشعل التيران.

"يحيون بقلوب مغلقة، يؤلّهون تقاليدهم، ويحطّمون الجمال، يخترعون قيا قاسية، كأنهم يحبّون تعذيب أنفسهم، ما أردت من الإنسان تقديس ما يفقده بهجته، أو ما يمنع خلوده، الآب الذى أرسلنى قال لى هذا، وقال إن مسرّته فى أن يصير الإنسان ربا، لا عبدا، الآب أرسلنى لأعلم هذه الحكمة، ولأكرز بأن المجد لله فى الأعلى".

هذا كلام قاله "المسيح" لـ "حجيزى" فى تلك الأيام التى قضاها فى جبل الرهبان، لكن "حجيزى" لم يستطع قوله بهذه الدقة، لما جلس مع صاحبيه "سعدون" و"غنية"، وإنما قال: ناس قلوبهم مغلقة، يعدّيون أنفسهم ويعدّيون من حولهم، ماذا يضير "رسلان" لو سكت؟! تقاليد؟! ملعون أبو التّقاليد

التي تعذب النَّاس، الولد "سليم" بعد أن يتعب كل هذا التَّعب نُحطِّم له  
تمثاله؟!

قال "سعدون": نُحطِّم التمثال أفضل من عمل المشاكل.

وكرّبت حنجرة "غنيمة": والله عمل المشاكل أهون من تحطيم هذا التمثال،  
خسارة.

وفي المغارب عادت القطعان من مراعيها، وعاد "سليم"، فنأدى عليه  
"حجيزي": "سليم".

- نعم يا جَد.

- غدا تحطِّم هذا التمثال، عمُّك "رسلان" غاضب.

- ما للتمثال وما لعم "رسلان"؟!

- التمثال لإبنته "سكيرة" يا "سليم"، أنا ما أحب اللف والدوران.

وظهر "بكير" قادمًا من عند المسجد، غاضبًا، وعندما اقترب من أبيه وولده  
زعم: ولد يا "سليم"، باكر تذهب وتحطم تمثالك، كنت الآن سأسبيح دم  
"رسلان" الكلب، اياك أن تترك أحدهم يحطِّمه، ولكن حطِّمه بيدك.

\*\*\*\*\*

الأغنام نشيطة، تمشي مهرولة نحو مراعيها، تترك خلفها ما لا يُعد من البؤر  
على سطح الرِّمال، شمس الصِّباح حانية، ونسيم الشُّروق باهيا، والرُّعاة  
الصِّغار يرحون خلف قطعانهم، و"سليم" يحمل معولا على كتفه، ويحمل في  
صدره قلبا يتصدع.

”كم نهار من النَّهارات القائِظة قضيتها وأنا أنحت تمثال ”سكيرة“؟ كم شظية أصابت بشرة وجهي ودخلت في عيني؟ كم مرّة طرق الجاكوش أصابعي بدلا من الإزميل؟“.

القطعان تتحرّك نحو وجهتها في خط مستقيم، وبعض كلاب الرعي تمشي في جوارها مشيا ملولا، أحيانا تترك القطعان وتتّجه إلى صخرة أو شجرة صغيرة، ترفع إحدى ساقها الخلفيتين، وتقذف بولها بسرعة. و”الوعرة“ تبتعد تخلفا.

فكّر ”سليم“ في أن حبس ”سكيرة“ في البيت ليس أمرا خطيرا، فهي له في نهاية الأمر، طالما أن قصّة عشقه لها قد شاعت، لن يتقدّم أحد للزواج منها، وسيضطر العم ”رسلان“ للموافقة على زواجه منها، وحتى إن رفض سيحتال من أجل الوصول إليها في محبسها، وإطلاق سراحها، والهروب سويا من ”الوعرة“، إلى حيث بلاد التيل، ليختبئا في الرّحام، ويتزوّجا.

الرّعاة الصّغار يرحون خلف قطعانهم، ولا أحد يشعر بهذه الآلام التي تأكل ”سليم“، حتى ”سالم“ و”سلمان“، هما يتقافزان بين الرّفقاء وهما يضحكان، لا يعيران ما هو فيه أدنى اهتمام.

ها هي ”سكيرة“ تظهر في مدى البصر، واقفة وقفتها الخجولة، والمعول على كتف ”سليم“ يتننّس بعمق، ما أوقع شكل المعاول، كأنها مناقير طيور آكلة جيف، أو خاجر قتل، وكلما اقترب من التمثال، أحس أنه يسمع دقات قلبه الصّخري، كأنه استشعر قدوم المعول.

وقف "سليم" أمام التمثال، وقد وضع المعول بين ساقيه واعتمد على مقبضه الخشبي الطويل، ينظر بعمق إلى عيني "سكيرة" الحاملتين، والتأطرتين إلى أسفل مستحييتين بينما تغرق بروحهما في عبير الورد التي تشمها.

"كم من الوقت بذلته وأنا أرسم هاتين العينين؟ أنا منحتها من روي هذه الحياة السارية فيها".

مد يده يتلمس الحدين المليئين، التاعمين مثل بشرة عذراء حقيقيّة، اندهش، كأن التمثال دافئ، رغم برودة فترة الصّباح، وضع كفيّه على الصّدغين الموردين يريد التّأكد ممّا شعر به، كان التمثال فعلا دافئا، كأنه حي، كأن "سكيرة" هي من تقف الآن، وكأنها ستغادر وقفها، وتتحرك.

نزع كفيّه من على صدغيها، فراها تدير رأسها وتنظر إليه نظرة صامته طويلة، ارتعش، بينما جمّد مكانه فصار صنما هو الآخر.

- تحمل معولك تريد تحطمي؟!

- أنا أحمل المعول، لكنّي لا أريد تحطيمك، أنت يا "سكيرة" عالمي.

- فلماذا تحمل المعول؟!

- حملته حتى لا تراق الدّماء، الخصومة ستنتقد بين عائلتي، وأنا أريد "سكيرة"، ستروح مّي إن جرى الدّم.

- لا تحطمني بيدك، دعهم يفعلون ذلك.

- لا أستطيع أن أتخيّلك بين هؤلاء الهمج، وهم يرفعون المعاول بقلوبهم الكارهة، ويفتتونك إلى مئات القطع.



- وأنا سأموت فعلا لما تفتتني أنت.

- أنا لن أفتتكَ يا "سكيرة"، كيف أفتت حبيبتى؟!

رفع "سليم" معوله، وهوى به إلى جذر التمثال، إلى أسفل القدمين الموضوعين في خف أخضر، ومع صوت ارتطام سن المعول بالصخر تجمّع الرعاة حول التمثال، كان "سليم" لا يمس التمثال بضربة واحدة، لقد قرّر أن ينتزعه سليما، وكانت السماء قد التمتعت بالزُرقة، والشّمس بالبرتقالى.

\*\*\*\*\*

- أنا ما فهمت شيئا من كلام الله لى، ما معنى أنه خلق الانسان ليصير ربا لا عبدا؟!

سكت "حجيزى" طويلا قبل أن يقول: أنا يا "غنيمة" لست بقارئ مثلك، لكن الله كريم ويجب أن يكون الإنسان كريما مثله، والله رحيم ويجب أن يكون الإنسان رحيا مثله، الله وضع الإنسان فى الأرض خليفة له، والجنّة لكل من استطاع أن يكون ربا خليفة، والنار لكل من لم يحقق مراد الله، وأصر على أن يكون مجرّد عبد.

همس "غنيمة": يمكن!

قلت له: كيف ستنقذنى يارب؟

- اركب ناقتك ودعها تمشى بخيارها، الإبل عجائب الصحراء.

ركبت النَّاقة، كان الظَّلَام قد بدأ يفرد عباءته، وأخذ الكلب يُرَقِّص ذيله ويهز رأسه وقد أرخى أذنيه، كأنه سعيد بالتحرك، لم أنهز الناقة لتتحرك، وإنما بقيت ساكنة فوقها، وبقيت هي ساكنة أيضا لفترة طويلة، تنتظر منى توجيهها، وعندما لم يحدث، استدارت وهي ترغى، ثم غزت السير تخترق العتمة المقبلة.

لماذا استدارت النَّاقة؟ بالتأكيد استدارت لأنها تعرف أن السَّلامة في هذه الجهة، فأحسست بالرَّاحة، وعلمت أن عيون الثَّوق ليست متبلِّدة، وإنما حكيمة، وواثقة، هذه الإبل تتركنا نقودها أحيانا إلى حتفها، رغم أنها دائما تعرف طرق السَّلامة، وها هي ناقتي تغز السير في إحداها.

لم تقابلني "جاله" غير هذه المرَّة الوحيدة، فكيف أمكنها أن تتعامل معي بكل هذا الحب؟! عيناها شبعتان بالأنس، وقلبا عمران بالألفة، كأني رأيتها قبل ذلك، لكن لا أعرف أين، لن ألق بـ"الزبير"، سيمضى الجاحد من غير أن يحاول رؤيتي، كأني لست أبيه.

كان القمر يبزغ ذهبيا، وبدأ قلبي يعانى من ضربة قلق مفاجئة، كيف أسلم مصيرى إلى ناقة؟!

"تسلم مصيرك إلى ما أمرك الله أن تسلم إليه مصيرك، اهدأ ولا تجزع، وثق بالله، الذى ما أخلف مواعيده".

- المهم يا "حجيزى"، النَّاقة ظلَّت تدب في الصَّحارى طوال الليل، ونعست فوقها من هدَّة التعب، ولما فتحت عيني، كانت الشَّمس تشرق، والثَّور ينتشر، وما حولى من فراغ ممدود، يشى بما هو موجه، كأنتى يا "حجيزى" ما تحركت خطوة واحدة، نفس المشهد، رمال لا تنتهى، ورأس النَّاقة شامخ أمامى، والكلب يسعى تحتها، أحسست بجوع شديد يفترس معدتى، فأنخت

الثَّاقَة، وتناولت من خُرْجِها كسرتى خبز، أَلْقَيْتِ بواحدة للكلب، وأَكَلت الأخرى، لم أغمسها بالجبن خشية العطش، وإنما أَكَلت طعاما ممزوجا بالخوف، وشربت ماء مخلوطا بالقلق.

كنت أفكّر في أنه ربما عند قدوم الليل سنصل إلى عمار ما، لكن أتى الليل ولم يأت العمار، وبقيت نفس اللوحة الثَّابِتة، التي لا تعطيك أى إحساس بأنك تتحرّك، رمال بلا أفق، وصخور صغيرة ناتئة هنا وهناك، قلت لنفسى: لماذا لم أضع شاهدا على الحفرة التي انطمرت "جاله" تحتها برمال الغرد؟! ربما في يوم من الأيام أستطيع الوصول إليها فأبنى لها قبرا يليق بها.

ابتسمت بطرف شفّتى، بسمة مريرة ساخرة، وقلت لنفسى: لمّا تنجو أنت أولا، وتضمن أن جسدك لن تأكله ضواري الصَّحراء، فكّر في قبر لـ "جاله"، يكفي أنك ضيّعت وقتك ومجهودك وماءك من أجل أمر غبى، عندما أخذت تحفر وتحفر وتحفر، ألم يدر ببالك أبدا أنك تحفر لإخراج جثّة؟ ماذا كنت ستصنع بجثّة؟! حتى وإن كانت جثّة "جاله"؟! أدركت هذا في آخر لحظة! لما استنفذت رصيда ليس بالهَيِّين من فرصة النّجاة، يا لحماقتك يا "غنيمة".

كم شمس عبرت السَّماء؟ كم قمر؟ هزل الكلب، وأكيد هزلت أنا، وعندما ضربت يدي في الخُرْج، وأخرجت آخر كسرتين من الخبز، أيقنت أنني صرت على مشارف هلاك حقيقى، فحتى قرية الماء لم يعد بها سوى قطرات تجمّعت في قعرها، وفكّرت طويلا، وأنا أنظر في عيني الكلب المعلّقتين بكسرة الخبز، في أن أحتفظ بهذه الكسرة الأخيرة لى، لكن جوع الكلب البادى في عينيه، تلك النّظرة الرّاجية، جعلنى ألقى بها إليه، وأنتظر عوض الله، لكن أين الله؟! ألم يقل لى إنه سينقذنى؟ لماذا إذن لا ينقذنى وينهى هذا العذاب؟

أوقف "غنيمة" الثّاقّة، كانت الشّمس في كبد السّماء، والرّمال ملتهبة، لكن عذاب "غنيمة" كان متأجّجا، فلم يشعر بسعير الرّمل وهو يلفح جبهته المغروسة في الرّمال يصلّي لله.

- يارب، قلت إنك ستنقذني، وها هو زادي ينفد، والصّحراء باقية على حالها، ما لها حد.

- أليست الثّاقّة تمضي بك؟

- إنها تمضي بي، لكنّها على ما يبدو تمضي في عماء، ربما تدور في مكان واحد.

- في متاهة الصّحارى القى قيادك إلى ناقتك، اركب ناقتك والزم الصّمت.

ركب ناقته، ولزم صمته، ومضى يوم من غير كسرة الخبز، ويومان، فاضطر إلى إخراج الجبن المالح، التهمه هو والكلب، وليس هناك ماء.

ومضى يوم، من غير خبز ولا جبن، ونار الظّمأ تشوى جوفه، ولمّا رأى الكلب يلحق حجرا، أخذ شظية صخرة صغيرة، وضعها في فمه، وأخذ يمصّها، لتستنفذ هذه الشّظية آخر قطرات ماء ريقه.

ومضى يوم لاحت فيه أنفاس "عزرائيل"، كان الكلب قد عجز عن المشي، فوضعه "غنيمة" بين يديه على شدّاد الثّاقّة، لكن حتى الثّاقّة نفسها ضعف مشيها، قضت أياما طويلة من غير طعام ولا ماء.

- أنخت ناقتي يا "حجيزي" لتستريح، لو ماتت الثّاقّة مت معها، لكنى كنت بالفعل أموت جوعا، وعطشا، ويأسا، وعندما رأيت الكلب ملقى أمامي من الوهن، خطرت الفكرة البشعة في رأسى، أن أذبحه وآكله، فيذهب جوعى، وأشرب دمائه فيذهب عطشى.

”إنها ليست فكرة بشعة يا غنيمية، إنها فكرة خلّاقة، وبدلاً من أن تموت أنت والكلب، فليمت الكلب وتحيا أنت، وبهذا يكون هذا الكلب قد أنقذك من الرّدى مرتين، مرّة عندما ذكّرك بالله في الأعلى، فوهبك أملاً في الخلاص، ومرّة عندما وهبك حياته نفسها“.

أخذ السّكّين ”المطواة“ من مكانها في الشّدّاد الخشبي، كانت التّاقة منيخة من غير أن تجتر، لم يكن في جوفها ما تجتره، حتى أن سنامها قد تهذّل، وصار مثل وسادة متهرّئة، وكان الكلب، رغم أنه ملقى على جانبه يلهث من فرط عطشه، يتابع بعينه تحرّكات ”غنيمية“، فراه يسحب السّكّين، ويشد نصلها من منامه، فيلتمع في وهج الشّمس، ثم رآه يتقدّم ناحيته.

عندما مال ”غنيمية“ منحنيا نحو كلبه، رفع هذا الكلب رأسه، ونظر في عيني صاحبه، كأننا تهطلان دموعاً، ثم آخر ما رآه نافورة دماء تضرب وجه ”غنيمية“، قبل أن يئنّ أنينا طويلاً، ثم يرفس بأقدامه، ليكبس ظلام لم ير مثيله من قبل.

طالما أن الإنسان يجيد ذبح الخراف، لن يكون صعباً عليه ذبح كلب، لكن قد يصعب عليه لو أن الأمر يجري تحت ضغط ظروف غرائبية، فقد كان أول ما اهتم به ”غنيمية“ هو أن يشرب أكبر قدر من الدّماء المتدفّقة، ليس ثمّة اهتمامات عنده بالطعم، فقط هناك حريق بداخله، ويريد إطفاءه بأيّ سائل يتيسّر وجوده، كان يجرع الدّماء كأنها ماء، ولم يتأفّف إلا مؤخّراً، بعد أن انطفأ الحريق.

فجأة بدأ يقبىء كل ما شربه، وكلما رأى دماء تتدفّق من فمه إلى الرّمال نبج، وحمل جثّة كلبه، وصعد إلى شّدّاد التّاقة، ونحسها، فقامت تترنّح، وفي الأفق ظهر اسوداد، وسواد الآفاق في الصّحراء يعنى الحياة، وظهرت صخور عالية،

فصرخ "غنيمة" مثل المجانين، حتى التّاقة اعتدل مشيها، اتّزنت مَهرولة نحو السّواد، وأخذ "غنيمة" يرفع ذراعيه إلى السّماء ويهتف: الحمد لك يارب، الحمد لك يارب، وعدتّ وما أخلفت.

وفي تمام غمرته بفرحة النّجاة، وهرولة التّاقة نحوها، انسلت جثّة الكلب من على الشّدّاد، وسقطت بعنف على الرّمال، وتقلّبت مثيرة الغبار قبل أن تستقر هامدة، ونظر إليها "غنيمة" نظرة أسي، ولم يجد في نفسه العزيمة الكافية لإيقاف ناقة بدأت تركض نحو مشارف الحياة.

بكي "غنيمة" وهو يقول لـ "حجيزي": أحيانا تضطرنا الطّروف ألا نهتم بنهايات من أعطونا كل حياتهم، بقيت نهارا أحفر من أجل "جاله" التي عشت معها ساعة، أما الكلب الذي أعطاني حياته، تسقط جثّته في العراء، فأتركها نهبا للضّواري! يعلم الله أني ما حملته معي على التّاقة إلا لدفنه، لكن الطّروف.

العصافير تشتشق تطلب الدّفء، تتحوّل شجرة الجميز في المغارب إلى عمارة اللقيا بعد شقاء النّهار في مطاردة أرزاق صعبة رغم يسرة وجودها، يُصعبها الإنسان بمطاردته لهذه العصافير بالمقاليع مرة، وبالفضاخ المدفونة مرة، وبهذه الشّخص التي ينكتونها في غيطانهم وحقولهم مرّة أخرى.

العصافير ستتشق في المغارب، وفي كل شروق.

## المجدُّ لله في الأعلى

تنقضى الأيام، وتهلك الليالي، وقافلة "عبدالله" الصغيرة لا تجيء، و"حجيزى" يجلس تحت ظلال الأشجار، ويجلس في سفح الجبل، ويرى الغزلان تقترب بمشافر أفواهاها من أيادي رهبان مملوءة بفتات الخبز الجاف، تأكل آمنة، ويرى اللذائب تطوّف مثل كلاب، ويرى الرهبان جثثا متحرّكة، يمشون ببطء، عضلات وجوههم تيبّست على رسم حالة من البؤس، لا يتخاطبون فيما بينهم، ربما تبادلوا ابتسامات شاحبة، ربما قال أحدهم للآخر كلمة فيمز الآخر رأسه، كانت أجسادهم قد بلغت درجة مفزعة من الهشاشة، لو سقط أحدهم لأى سبب ربما يتفتّت، لذلك يتحرّكون دائما ببطء، مثل حرباوات، يذهبون إلى الأشجار ويأكلون من أوراقها.

لم يعد "يوانس" الرّاهب يجلس مع "حجيزى"، وفي آخر جلسة، منذ أيام طويلة، قال له البير: الحديث معك يا "حجيزى" يحيى رغبة وأدتها منذ سنين طويلة، كلامى معك ينفخ فيها الرّوح، أتكلّم معك فأشعر أنى أحب الدنيا، تعيد لى ذكريات قاسية لكنّها تمنحنى إحساسا جميلا بأننى كنت واحدا من النّاس، مغموسا فى الآمال والمشاكل مثلهم، لا مجرد مطرود فى هذه الفيافى، أتكلّم معك فأشعر بالرّغبة فى العودة إلى نجع "أبو ليلة"، لكن هذا عذاب يا "حجيزى"، عذاب أن ترغب شيئا مستحيلا، فلا الجسد صار حمل سفر، ولا الرّوح صارت حمل غربة جديدة.

- لماذا تستمر يا مقدّس في عبادة رب يعذبك؟

صمت الرّاهب "يوائس" طويلا، ونظر في السّماء، وصمت طويلا، ونظر في الرّمال بين قدميه، وصمت طويلا، وهز عصاه بيده العجفاء، وصمت طويلا، ثم نظر مرة أخرى إلى السّماء وقال: لأنه في كل الأحوال إله، حتى لو أنه أوجدنا لمجرّد أن نتألّم فهذه محبّة كبيرة، الحياة مع الآلام أفضل كثيرا من العدم.

كان الرّاهب "برسوم" قد قطع بتنتيحه أى تردّد عن مغادرة جبل الرّهبان في نفس "حجيزى"، مات بعد أقل من خمسة عشر يوما من قدوم "حجيزى" إلى هذا الجبل، كان يميز الليالى بصراخه الذى ينطلق فجأة مثل الرّعد، ويزول فجأة مثل الرّعد، قال الرّاهب "يوائس" إن خلف "برسوم" حكاية مؤلمة، ألم من هذا النوع الذى لا يغادر الجسد مع مغادرة خلاياه المنيّئة، وإنما يلبد في العظام والتّخاع ويبت أحزانه، فتسيطر على اللسان وعلى الدّموع، فلا يشكو الإنسان ولا يبكى، ولكن يصرخ مثل المعاتيه.

- ما هى حكاية المقدّس "برسوم" يا مقدّس؟

- ما أعرف حرفا من حكايته، لكن وراءها امرأة.

- لماذا المرأة دائما هى التى وراء مصائبكم؟!

- لأنها هكذا منذ خلقها الرّب، أخرجت وليفها من الجنّة.

"حوّاء أخرجت آدم من الجنّة، وأدخلته قلبها، لكن نساءنا الآن يُخرجنا من عقولنا، ويُدخلنا جهنّم، الإنسان منّا لن يلقي بنفسه في منافى الرّب البعيدة لو أحبّته امرأة، لو كانت أحبّتى سيرين بإخلاص كنت الآن نابضا بالآمال، ولى أحفاد ينبضون بالأحلام".



صرخات ”برسوم“ المعتادة لم تنطلق هذا الصّباح، ولا انطلقت في كل مواعيدها حتى العصر، وفي المغرب، اكتشف أحد الرّهبان، وهو يسكن في كهف بجوار كهف ”برسوم“، أن جاره قد تنيّح، وكان قد مات ميتة عجيبة، تنشرح لها قلوب المُرتحلين إلى ”المسيح“، فلقد وجدوه ملقى على شقّه الأيسر، ويده اليمنى قابضة على شمعة لم يروا مثلها، تضىء ولا تتآكل، فعرفوا أن ”برسوم“ لم يعد مجرّد راهب يتنسّك في الصّحارى، وإنما ها هو قد صيّر الرّب قدّيسا.

ماذا فعل هؤلاء الرّهبان بالقدّيس المطهّر؟!

”إنه رجل مات على كرامة، ولو أنهم صادقون في حكاية القيامة والحياة، التي يعدّهم بها ربّهم، لما دفنوا رجلا مات وفي يده شمعة تشتعل من غير انتهاء، إنهم أيضا يدفنون أعز الناس.“

- كيف دفنتموه؟!

- كما رأيّت، حفرنا له قبرا، ووضعناه فيه، ثم أهلنا عليه الرّمال، وها نحن سننحت صليبا كبيرا من الصّخور، نضعه شاهدا على قبره، إكراما لقداسته.

- أنا لا أسأل عن هذا، ولكن أقول كيف هان عليكم دفن صاحب كرامة؟!

- وماذا كان يجب أن نفعل لصاحب كرامة ميّت؟!

- ”أنا هو القيامة والحياة، من آمن بي ولو مات، فسيحيا“، أليس هذا ما يقوله المسيح؟! كيف تقولون على صاحب كرامة أنه ميّت؟!

- إنه يجيا في العالم الآخر، ويجيا في قلوبنا، وسيحيا ذكره في محافل قديسينا،  
لكنه أمام أبقارنا هو ميت، وجنه، والجنة لا بد لها من دفن يا "حجيزى".

موت "برسوم" الراهب، لم يترك لـ "حجيزى" فرصة كي يفكر فى مواصلة  
البقاء بين هؤلاء الراهبان، لقد تأكد الآن أن مصير الميت عندهم، هو نفس  
المصير كما عند جميع الناس، لقد خدعه الراهب "يوانس".

- لماذا قلت لى إن كل مسيحي يموت، وأنه يقوم بعد موته.

- لأن كل مسيحي صالح يعيش بـ "المسيح"، و "المسيح" قام بعد موته،  
ترك القبر ومضى.

فتح "حجيزى" عينيه كالمصعوق، وهتف: أتم من دفن المسيح؟!!

نظر "يوانس" حوله مبهوتا، كانت كلمة "حجيزى" صادمة بالفعل، لم يكن قد  
فكر من قبل فى غرابية وضع جسد "المسيح" فى قبر، فعلا! كيف أمكنهم  
أن يضعوا المسيح فى قبر؟!!

\*\*\*\*\*

ظل الإنسان الحائر "حجيزى بن شديد الواعرى" يُشعل كل ليلة نيرانا يتدقاً  
بها، ويجلس ناظرا فى أفق الشرق، حيث خلف هذا الأفق تتلوى المدقات  
فى وسع المفاظات، رائحة وغادية، لكنّها تنتهى كلها على مشارف "الوعرة"،  
الواحة التى فيها أهله وماله وأيامه.

ظل منتظرا القافلة جميع وقته، لكن فى الليل العميق، وقبل الفجر، فى أحد  
الأيام التأشزة بغرابية ما يحصل للإنسان فيها، كان "حجيزى" قد غلبه الوسن،  
فانداح رأسه ليرتكب بذقنه إلى صدره.

ثمة شبح لشخص طويل، مفروود الجسم، ينساب فوق الرمال كأنه يتهادى فوق سحابة، قادما من أفق الشرق، ملابسه طويلة هفهافة، كما هي أكامه المتسعة، ويقترّب من "حجيزى" التّاعس جالسا أمام التّيران.

رَفَّ جناح طائر اخترق السّماء بسرعة برق، ففتح "حجيزى" عينيه، وأغلقها، حُيِّل إليه أنه رأى أحدا ما يجلس بجواره يتدفّقا أمام التّيران، حدّث نفسه بأنّه الرّاهب "يوائس" بكل تأكيد.

لكن للرّاهب "يوائس" رائحة الدخان، وأحيانا رائحة عرق منتنة، أما الرّائحة التى تعبق حوله الآن فهى رائحة عطر، عطر فوّاح ما لرائحته مثيل، وعندما فتح عينيه وتطلّع فى وجه الجالس بجواره يتدفّقا، أدرك أنه حتما فى دنيا الأحلام، فكما أن هذا العطر لا ينبغى وجوده الآن، كذلك هذا الشّخص.

وجه لم ير شبيهه بين وجوه الرّجال طوال حياته، وجه طويل مناسب منجلٍ مثل قمر، قمر حقيقى، وجه يسبح فى طراوة زيت المّاع، بشرة لا تعانى من جفاف الصّحارى، مثل بشرات الذين يخبون فيها، وعينان مطمئنّتان، تملؤها اليقظة، ثم شعره هذا الذى ينحدر على كتفيه يبرق من غزارة دهنه، هذا رجل لم تبلغه وعشاء السّفر فى الرّمال.

وإذا كان هذا الرّجل لم يسافر عبر هذه الصّحراء، فمن أين جاء؟!

هذا هو الإنسان الوحيد الذى يراه فى حياته ويشعر أن له مهابة ماحقة، رغم صغر سنه، تقاطيع وجهه تقول إنه فى أواخر عشرينيات عمره، أو فى أوائل الثّلاثينيات.

انتبه "حجيزى" تماما، لكن الرّجل ابتسم وقال: كيف حال إخوانك هنا؟

هذا ليس صوتاً إنسانياً، إنه شدة ملائكي، ما هو شدة الملائكة؟! لم يكن يسمع عن شدة الملائكة هذا، لكن سمع عنه من الرّاهب ”يوائس“ كثيراً، ما هو شدة الملائكة إن لم يكن هذا الصّوت؟! حتى رخامة صوت ”يوائس“ ليست شيئاً في هذا الرّونق المنبعث من حجرة هذا الشّاب الفخيم.

قال ”حجيزي“: إنهم ليسوا إخواني.

- إنهم يشاركونك المصير في هذه الصّحارى، فهم إخوانك.

- لكنهم نصارى، وأنا مسلم.

- ما نصارى؟! وما مسلم؟!!

نظر ”حجيزي“ في هذا الوجه الرائق، وساءل نفسه، من أى البلاد هذا الشاب المليح؟! لا بد أنها بلاد لا تعرف شيئاً عن نصارى أو مسلمين، أين هذه البلاد؟

- النّصارى نصارى والمسلمين مسلمين.

ابتسم صاحب الوجه المليح، ورفع وجهه إلى السّماء، وهمس: المجد لك في الأعلى أيها الآب، كن معي، واغمرني بمحبتك.

ثم نظر إلى ”حجيزي“، وقال: النّصارى بشر، والمسلمون بشر، لا يملأ النّصارى الأرض، ولا المسلمون، البّشر هم من يملأون الأرض، طوبى للإنسان على الأرض، والمجد للآب في السّموات.

- ما أفهم كلامك يا مليح الوجه.

- الآب الذى أرسلنى ما أرسلنى لنفسه، ولكن للإنسان.

- ما أفهم، الكلام يستغلق أكثر.

- كما أن الآب هو غاية الإنسان، فالإنسان أيضا هو غاية الآب.

- الكلام استبهم يا مليح الوجه.

- الله جعلك خليفته في هذا العالم، فلتكن الله في الأرض.

”الجنة مملوءة بالمرح، والأرض مملوءة بالشقاء، وعندما صنع الله آدم وضعه في مرح الجنة، لم يرد له شقاء ولا نكدا، وزادت محبة الله لآدم، فمنحه مرحا طاغيا، يشع حبا وعشقا، منحه حواء، وعندما عمل آدم خطيئته، أخرجه من المرح إلى الشقاء، لكن أخرج معه المرح الطاغى، ليصنعا بهجتها في بؤس الدنيا، بهجة الإنسان وسعادته هما المقصد الإلهي، لكن الإنسان يترك بصائره الحكيمية، ويقيد نفسه بأغلال حاكها لنفسه باسم الآب“.

- كيف أكون الله؟! هو يملك الأكوان، وأنا أملك بيتي الصغير وحقل زرع، وهو غنى، وأنا كلى عوز، وهو حى، وأنا أموت، ويريدون بعد موتى أن يدفنوني فى قبر!

ابتسم الشاب المليح، ومد يده إلى الرمال، وأخذ منها قبضة، ثم فرج بين أصابعه الطويلة الرشيقة، فأخذ الرمل يتسرب ساقطا من غير أن تعلق منه ذرة غبار واحدة.

- يا أيها الإنسان المسكين، لو عملت عقلك أدركت، ولو أدركت استرحت، الآب ملك الأكوان، وأنت ملكت بيتا وحقل زرع، لو اكتفيت بهما استغنيت، والآب مستغن، ليس الغنى سوى عوز مرفوض، ارفض عوزك بقناعتك تكفى بذاتك، والآب مستكف، الإنسان لا يموت، لأن الموت اختفاء، والانسان ظاهر فى الأرض يشيد خلوده، لا يموت الإنسان ولا يُدفن.

- مات النَّاسُ ودُفِنُوا أمامَ عيني.

- الواحد ليس إنسانا، الجماعة هي الإنسان، يموت الواحد، لكن الجماعة لا تموت.

- أنا لا أريد أن أموت، وإن كان لا بد، لا أريد أن أدفن.

- أنت هنا في سفح هذا الجبل من أجل هذا الأمر.

- من أنت أيها الشَّاب المليح؟! بالتأكيد أنت لست من هؤلاء الرُّهبان، فأنا لم أرك بينهم من قبل؟!

- أنا لست من الرُّهبان، كما أن الرُّهبان ليسوا مِنِّي، أنا يا أيها الشَّيخ القيامة والحياة، من آمن بي سيحيا ولو مات.

كان "حجيزي" قد سمع هذه الجملة كثيرا في كلام الرَّاهب "يوانس"، وكان قد علم أن الذي قالها هو "المسيح"، ربُّ النَّصارى.

هذه ذئاب تتوافد، وتربض ساكنة على حواف نصف دائرة واسعة وهمية أمامهما، وها هي غزلان أيضا تتقدَّم آمنة، ليس في عينيها خشية افتراس، ولا كأنها انتبهت لوجود قتلتها، أرانب بَرِّيَّة، وقطط وحشيَّة، وضباع، وفود تترى لتشكِّل جمهورا ينصت لكلمات بلسان غير ألسنتها، لكن لغة القلوب واحدة، وكان "المسيح" يكرِّز ممتنا.

"إنهم يخيِّون بقلوب مقفلة، يؤلِّهون تقاليدهم، ويحطِّمون الجمال، يخترعون قيا قاسية، كأنهم يحبُّون تعذيب أنفسهم، ما أردتُ من الإنسان تقديس ما يفقده

بهجته، أو ما يمنع خلوده، الآب الذى أرسلنى قال لى هذا، لكن ماذا يفعل  
الرهبان غير كل ما ينكره الآب؟! الآب قال إن مسرته فى أن يصير الإنسان  
ربا، لا عبدا، الآب أرسلنى لأعلم هذه الحكمة، ولأكرز بأن المجد لله فى  
الأعلى، حينما يصنع الإنسان مجده فى ملكوته“.

قلب ”حجيزى“ تزلزل من كل ما يجرى، وتزلزل من هذا السؤال: هل هذا  
الشاب المليح هو ”المسيح“ بنفسه؟!

فكر فى أن ينادى على الرّاهب ”يوائس“ ليرى ويشرح له ما يراه، وعندما هم  
بالوقوف، أشار له ”المسيح“ بالبقاء جالسا فى مكانه، فبقى جالسا يكتنفه  
خشوع.

ثم قال المسيح بنبرة صوت مرعبة: ما جئت لألقى سلاما على جبل الرّهبان،  
بل سيفا.

وهال ”حجيزى“ أن يرى ”المسيح“ وهو ينتزع سيفا من تحت ثيابه، ويشرعه  
أمام عينيه، كانت التيران تتوهج من غير حطب، وتنعكس التاعاتها فى عيون  
الحيوانات والطيور التى تجمعت من كل حدب وصوب، تقف منتبهة فى  
نصف دائرة تتسع.

- أنت ”المسيح“؟!

- أنا هو، أنا القيامة والحياة، من آمن بى، ولو مات، فسيحيا.

- مات الرّاهب ”برسوم“ منذ أيام، ورغم أنه عاش حياته يؤمن بك، إلا أنه  
لم يحيا، بل دفنوه وهو الميت بمعجزة.

- الحياة ليست أن تعيش، أولاد الأفاعى يملأون الأرض، يعيشون ولا يحيون، الحياة أيها الشيخ لا ينالها إلا من يعيش كإنسان.

- ألم يعيش الرَّاهب "برسوم" حياته كإنسان؟!

أشار "المسيح" إلى الطيور والحيوانات، وقال بصوت ساخر: الرَّاهب "برسوم" عاش مثل هذه المخلوقات البهيمية، هائمًا في مملكتها القاحلة، يعيش في المنافي يعد أيامه منتظرًا الموت، ما خُلق الإنسان ليجاور الحيوان، وما كَلَّمه الآب عن الحياة ليعكف مهتمًا بالموت.

"هل هذا هو المسيح فعلا؟! هل هذا الرَّجل هو رب المسيحيين الذى عُلق على صليب حتى مات، ودفنوه فى قبر، فغلب موته وقبره؟! لا يبدو أن هذا الرَّجل قد مات على صليب من قبل، أيها المسيح، لو تدلّنى على طريقة تنقذنى بها من الدفن".

- هذه مخلوقات البرية تقف أمامى خاشعة، من غير لقمة خبز، أو عشب جافة، ولا حتى شربة ماء، وإنما خشعت لروح الرب العاملة فى، ما أتعسهم فى جبل الرهبان، هؤلاء الذين يظنون أنهم أتباعى وما هم بأتباعى، يستدلون مخلوقات البرية بأطعمتهم، الدب وضع رأسه على فخذ الإنسان لما ذلت اللقمة روحه العزيزة، لكن أنت أيها الشيخ، وضع الدب رأسه على فخذك، خشوعا لروح الرب التى عملت فىك، فأرهبتة.



ونظر "المسيح" في عيني "حجيزي"، فشعر "حجيزي" بمياه باردة تجول في روحه الملتهبة، تطفئها من غير ألم، قال "المسيح": لماذا تريد ألا تدفن في قبر؟

- أنا لى نصيبي في هذه الحياة، عمرتها وزهرتها، ليس من الحق أن يسلبوني نصيبي بالموت، ثم الدفن.

ابتسم "المسيح"، ووضع كفه بين كفتي "حجيزي"، الذي شعر لحظتها بحنان غامر يحتاجه، حنان لا وصف له، سوى أنه ود لو يتمدد وينام.

قال "المسيح": هو أنت الإنسان أيها الشيخ، مفعم بالحياة، تتعلق بها حتى بعد موتك، بمثلك يُسَرُّ الرَّب.

فجأة استقام من جلسته، وسطع وجهه الحاني بغضب، وقبض على سيفه، واستدار ناحية المدق الصاعد إلى الجبل، نظر إلى الكهوف الفاعرة أفواهاها تلتهم الظلام، وقال: اتبعني أيها الشيخ.

ثم هتف: أنا هو القيامة والحياة، ربُّ كل حي، وأحكم على كل ميّت بالبكاء والندم.

\*\*\*\*\*

قطعا لم يتخيّل الرّاهب "يوانس" في أى لحظة من لحظات حياته أنه سيرى "المسيح" أمامه هكذا، بشحمه ولحمه، حتى وإن كان قد قال قريبا لـ "حجيزي" أنه لن يندهش لو رأى المسيح في قلايته، ولو تخيّل، ما كان سيخيّله مثلما يراه الآن، غاضبا ويمتشق سيفاً!

كان "يوانس" ممدداً في ظلمة الكهف، عندما رأى نورا يتحرك خارج فتحة الكهف، وظلال تتقاذف، قبل أن يدخل هذا الرجل الذي يقبض على سيف، ويدخل "حجيزى" خلفه يحمل خشبة تشتعل قمتها بنار ذات لهب. وعندما انعكست النّار على وجه "المسيح" ارتعش الرّاهب، ولم يحرك حركة، فصار كأنه تمثال.

هذا وجه يعرفه، رآه في الصّور التي كانت تزوّق جدران محلّ المعلم "نظير"، ورآه في تلك الصّورة التي بهتت على الجدار الكالح في البيت القديم في نجع "أبو ليلة"، الوجه الذي هو غالباً مرفوعاً إلى السّماء، ينظر إلى الذي أرسله نظرة مسكنة وحاجة، أو ينظر إلى الأرض متواضعا كإنسان، لكن هذه النظرة الغاضبة لم يرها إلا في غرفته في "أسيوط"، نظرة تستغضبه، لكنه الآن يشعر بأن نظرتَه هذه غاضبة عليه.

نظر الرّاهب "يوانس" إلى "حجيزى" نظرة مستفسرة، كأنه يريد أن يسأله: هل هذا هو الرّب "يسوع" فعلاً؟!

- تُزهق الرّوح يا مغرور ثم تأتي وتلتصق بي!

ارتعشت شفتا الرّاهب "يوانس"، وفضح الثّور المتراقص نظرة حيرة غمرتها دموع ضحالة: إلهي وسيدي.

- لا أحب أن أكون سيّداً، لأنى لا أحب العبيد.

- إلهي.

رفع "المسيح" وجهه إلى السّماء وتمتم، ثم نظر إلى الرّاهب وهمس: هل فهمت ما قالته أمك قديماً؟!

بدا أن ”يوانس“ لا يفهم، فقال ”المسيح“: لما قالت لأبيك أنا أنظر لمن ينظر إليه ”المسيح“، كنت أنظر إلى الإله، الآب الذي أرسلني.

- يا ابن الله، ارحمني.

- لم ترحم نفسك.

- لم أرحم نفسي حتى لا تغضب عليّ.

- الآب يرحم الإنسان، فكيف لا يرحم الإنسان نفسه!؟

- إن تركتُ نفسي للخطيئة لن أدخل ملكوت الرّب، لن يرحمني، وسيلقي بي حيث البكاء والندم.

”ما ألقى الآب في روعنا أن نبشّر بالخوف والرّعب منه، هو الممجّد في الأعلى أحب الإنسان، ومن يجب لا يعذب، يكره الإنسان نفسه، فيعذبها بالأعراف، ويبرّر كتبها بالخطيئة، ومخافة الرّب، مخلوق أيها الإنسان لتتحوّل الآب، وتصنع مشيئتك، لا أنت ملاك، ولا أنت شيطان، كمالك بنقصك، وفي نقصك أكمالك، والرّب هو الإنسان الكامل.“

- يا ابن الله، تقدّس اسمك، بلعنا من القديسين أنه بالألم يطهر الإنسان، نترك ما نحب لكي نطهر، وأنا أحببت ”سيرين“، لكن ما كان لي أن أتبع شهوتي وأفطف زهوراً محرّمة!

”ما أشقاك أيها الإنسان، تحترّم الزهور، وتحلّ الدّم.“

رأى الرّاهب في عيني ”المسيح“ ما هزّ أعصابه بالخوف، فهمس: أنا عبدتك طول عمري، لم أشغل عنك بسواك، و”سيرين“ ما فكّرت سوى في حبيّ، أنا العبد.

- انشغلت بي طول عمرك، ولم تفهم قصد الذي أرسلني، لكنّها فهمت، قلبها وسع عمل الرّب، وقلبك ضاق أيها الحزين.

ترقرقت الدّموع في عيني ”يوائس“، وانتحب: تبكّنتني يا ابن الله بعد كل هذا العمر.

- حرّمت الحب، واستحللت القتل، وظللت تخدع نفسك طول العمر، تعبد مسيحا ليس هو أنا، مسيحك المرعب.

ملاً الرّعب عيني ”يوائس“ وهو يرى ”المسيح“ يقدّم له السيف، كانت عيناه تدعوانه لقتل نفسه، وكان ”حجيزي“ يرى ما سيفعله ”يوائس“، سيفعل مثلما فعل كل رهبان الجبل قبله، سيغمد السيف في قلبه، ويموت.

وعلى المدق المنحدر إلى سفح الجبل، سمع ”حجيزي“ هذه الكلمات: ومع أنك عشت حياتك تفكّر في الموت، وكيف تهرب من الدّفن، ومع أنك ضيّعت مباحج حياتك، إلا أنك كنت تفتح الباب لحياة جديدة، يحياها الميّت في الدّنيا من غير دفن، الرّواد يتعبون من أجل القادمين، أنت أيها الشّيخ تحقّق رغبة الآب، إلا أنك عندما تموت ستدفن.

ارتعد ”حجيزي“، لكنّه سمع نفسه يقول: أنا لن أدفن.

- أنت أيها الشّيخ جدير بالدّفن.

- جدير بالدّفن!؟

- أنا سأذهب الآن، لكي أرسل إليك المعزّي، الذي يتكلّم بما تفهم، وسيقول لك كل شيء، ووقتها ستصرخ بكل قوتك في صحراء البريّة: أحفروا لي قبرا.

\*\*\*\*\*

ظلت حيوانات البرية حول جبل الرهبان أياما تطوف حول المكان، تنتظر أن يخرج إليها الرهبان بالأقوات التي اعتادتها، لكن الرهبان كانوا قد صرعوا أنفسهم بسيف "المسيح"، كل واحد منهم كان يغمد النصل في قلبه بيده، تحت أنظار الرب الغاضب، الذي هو الحياة، الذي كره الموت فقام منه، والذي كره الدفن فخرج من قبره.

ظلت الحيوانات تطوف، ثم تمضى متحيرة، وبدا عليها الهزال، لم تعد الذئب حتى تشبه الكلاب النشطة، وإنما صارت مثل جراء بأسة، والغزلان وهنت، وأرانب ظهرت هزيلة.

ظلت الحيوانات تطوف، والجوع يطوف في خلاياها، حتى أثار هذا الجوع وجدانها بالحقيقة، فنظر الذئب إلى الغزلان نظرتة الأولى، وأدرك أن الغزال بالحق فريسته، وكذلك هذه الأرانب، والغزلان أبصرت أوراق الأشجار، والأرانب أبصرت العشب، عادت إذن الحيوانات إلى سيرتها الأولى.

ومضت أيام لتظهر بعدها حيوانات البرية بجلود ملتمة، الذئب أشعارها تبرق مثل عيونها، وورق الشجر ازداد اخضرارا، توهمت الحياة بالافتراس والمطاردة.

من يدفن من إذا ما كان الجميع موتى؟! والحى الوحيد لا يؤمن بالدفن!

بقي "حجيزى" وحيدا ينتظر قافلة "عبدالله"، متشجعا بقاء "المسيح"، الذى مضى منذ أيام طويلة، أو ربما أسابيع، فى الظلام مبتعدا، رآه يومها يقوم من جواره ويبتعد، والنار لهيبها يضوى، كان "حجيزى" يرفع رأسه مغمورا بوهن النوم، ينظر إلى ذلك المبتعد تتبعه حيوانات الفلاة، كان ما حدث أعجب

وأغرب من أن يكون حقيقة، حتى أن "عجيزى" أحيانا كثيرة كان يسأل نفسه: هل أنا رأيت "المسيح" حقا؟

عندما أصابه الشك في هذه الرؤية أول مرة، فقرر أن يصعد إلى كهف الراهب "يوانس"، ليتأكد مما رأى في ليلة أمس، كان يصعد المنحدر ناظرا في البقع اللينة بالرمال السفيفة، عساه يرى أثر قدم غير قدم الراهب، لكنه لم ير إلا آثار قدميه هو، أين ذهبت آثار من قال عن نفسه إنه "المسيح"؟!!

سينادى على الراهب من غير أن يدخل، كان قد أصابه التيب، ولما نادى فلق صوته الصمت، صوته هو، لأن صوتا آخر لم ينبعث ليفلق الصمت.

همس "عجيزى" لنفسه: الراهب لا يجيب، إما أنه خرج لقضاء حاجة، أو أنه انتحر فعلا بسيف "المسيح".

سيتقدم إلى فتحة الكهف، مترددا من التيب، وسيدخل بمهل المرتعب، ستفاجئه روائح كريهة، مثلما فاجأته في ليلة أمس، روائح إنسان يجيا بمنأى عن الحياة وحيدا، وسيدور برأسه ينظر إلى الناحية التي كان الراهب مستلقيا على أرضها مذعورا أمام "المسيح" الغاضب، وسيجده ممددا على الأرض، مصلوبا على الصخر، ناظرا إلى مكان أبعد من السقف، ميتا، لكن لا آثار لدماء، ولا أثر لوخزة نصل سيف قاتل في أى مكان من الجسد العجوز.

الرهبان جميعهم كانوا ميتين، لكن لا آثار لدماء، ولا لوخزة سيف، وإنما كل واحد منهم مشبوح على هيئة صليب فوق الأرض الصخرية داخل كهوفهم.

وأصبح "حجيزى" غير قادر على تأكيد رؤيته ومحاورته للمسيح، كما أنه غير قادر أيضا على نفيها.

لقد رأى فى ليلة الأمس السَّيف وهو يخترق قلب كل واحد منهم، ورأى الدِّماء تتدفَّق من الجروح، والآن لا جروح ولا دماء!  
لكِنَّه "المسيح" من فعلها، وآلا ما ماتوا كلهم دفعة واحدة هكذا.

"ماذا تفعل الآن يا حجيزى؟ هناك موتى مبعثرون فى كهوف الجبل، تركهم يحيون معك، أم تدفنهم وترتاح؟  
أرتاح؟!

الميت سيبقى ميتا، هل تستطيع العيش الآن مع هؤلاء الموتى؟!  
كانوا موتى وهم أحياء، لن تفرق المسألة كثيرا.

طيب، لو أنهم وهم أحياء ملأوا الدنيا حياة من حولك ثم ماتوا، لابقوا حولك جثثا صامتة، تنشر حولك الصَّمت والحزن، هل كان الأمر سيختلف؟ هل سيكون بمقدرتك البقاء معهم، أو تتحمَّل وجودهم معك؟.

"أنت جدير بالدفن أيها الشيخ".

- أنا سأصرخ وأقول أحفروا لى قبرا؟! مستحيل!

"الآب هو الإنسان الكامل".

- الله إنسان؟!!!

”إنسان كامل، ليس كمثلِه إنسان مئاً“

- لم يقولوا لنا ذلك، قالوا إن الله لا يشبهنا، ليس كمثلِه شيء.

”وهل الإنسان الكامل مثله شيء؟“

- لكنَّه إنسان في النِّهاية، سيُشبهنا.

”وهل يعيب الآب أن يشبه الإنسان؟ أحب الآب الإنسان يا أيها الشَّيخ“

- أنا لا أحب الدَّفن أيها الرِّسول الكريم.

”ستجبه، لمَّا يكلمك المُعزِّي الذي سيأتيك، فيكلمك وتفهم“.

- ولماذا لا تقل أنت لي!

”كيف يتحرَّك الزَّمن إلى لأمام إذا قال أحدنا كل شيء في لحظة واحدة، العالم أيها الشَّيخ يعيش من أجل أن يكمل الآب كلماته، وحينما تكتمل ستقوم المحاكمة، وتُنصب أدوات الدينونة، سأذهب الآن، وسيأتيك المُعزِّي، فتُعزِّي“.



## العشقُ قتالٌ

- عندما حدث هذا الهول أمام عيني كرهت الله، وتمنيت لو أتى إله مثله لأستطيع أن أقتله، لماذا يعذبنا كل هذا العذاب، وعدنى بالنجاة فلماذا لا ينجيني من غير رعب أو ألم، يفعل ذلك كي أكون ربا؟! يا للعبط، إنه الله، الله يا حيزي، الله بجلال قدره لا يستطيع أن يوجد لنا طريقة تجعلنا أربابا من غير عذاب؟!

الشمس تحلّق نحو غروب العصارى، وظلال لثلاثة من البشر يمشون الهوينى تزحف على الرمال زحف الحيات الشبعة، ظل يد أحدهم ارتفع إلى ظل الرأس وبدا أنه يمسح الوجه.

كان "سعدون" ينشج بجمية، ويكي بعنف، فربت "حيزي" على كتفه، فانفلت يقول كلاما مخلوطا بالشهيق والزفير الحامين: ظللت أدعوه أربعين عاما ليعطيني ذرية، ولما أعطاني "جميل"، ودعوته في لحظة غضب أن يحرقه هو وأمه، حرقها من غير تأن! الله هذا لا يعرف طعم عذاب القلوب، لذلك يعذبنا وباله رائق.

"لماذا لا تشتكى لصاحبك همومك يا حيزي كما يفعلان معك؟ أنت تتعذّب مثلهم بالضبط، يشويك الله مثلهم في جحيم الآلام، ضيّع عليك حياتك،

ودفعك دفعا كى تبحث فيما لا أهمية فى بحثه، موت ودفن وفناء، تخاف الدفن والفناء، فدفنت حياتك وأفنيتها، لو عشت كما يعيش الناس لاختلف الأمر، كنت استمتعت بسريرة التى رقصت قلوب الرجال بالهوى، كنت أنجبت عيالا كثيرين، ولم تكتف ببيكر، كنت شاركت الناس حياتهم، كنت ضحكت كثيرا، ولعبت فى أفراحهم بالسيف، كنت عشت الحياة يا حجيرى، لكنك ها أنت عمرك يشارف على المائة، أو تجاوزتها، ولم....“.

- لما دخلت ناقتى هذا الحيز من الصحراء شعرت وكأنى دخلت الجنة التى يحكى لنا عنها الشيخ ”مزيد“، أشجار ”عاقول“ و”عبل“ منتثرة فى الرمال على مرمى البصر، هذه أشجار الحياة، ستلتهمها ناقتى وتمتلى قوّة، لتزداد فرصى فى النجاة من هذه المتاهة المميّنة، وأنا سألوك أوراق هذه الأشجار، سأكل شيئا يخرس أنين جوفى، ورق أخضر أمصّ ماءه فأغلب عطشى، ثم فى ظل إحدى هذه الصخور أنام، أنام بعمق.

كان قلب ”غنيمة“ يضطرب من الفرح، للدرجة التى شعر معها أنه يريد القفز من فمه، وإلا ما تفسير هذه الشّهقات الحادّة التى كانت تندلق من حنجرتة لتمرّق سكون الرمال!؟

لم تكن هذه الأصوات كلها لشهقات ”غنيمة“، وإنما كان بعضها يأتى من بعيد، حيث خمس أو ست نقاط سوداء، قادمة تركض من الأفق الذى يتعد خلف ”غنيمة“.

- قطيع ذئاب.

- قطع ذئاب؟! -

- وجائعة.

لم يكن "غنيمة" يشعر بقدوم قطع الذئاب، كان، مثل ناقته، قد انكب يقطع نبتة شجر من جذورها، ويمضغها متشججا من قسوة الجوع والعطش، فلم ينتبه للقطع القادم يزار من بعيد.

- فجأة سمعت هذا الصوت المرعب، فانتبهت، وعندما نظرت خلفي وجدت قادمة من بعيد تزار، معالمها واضحة، لا تسمح بلبس الرؤية، إنها الذئاب، بأذانها المشرعة، وعيونها الخارقة، وأنيابها البارقة، ورغبتها الأكيدة في القتل.

في لحظة سحب "غنيمة" المسحاة من الشدائد الخشبي المرتكز على سنب الناقة، لكن الناقة نفسها كان الرعب قد لسع قلبها، إذ أنها تركت قضم الشجيرات ونظرت حولها بعينين سوداوين، وفكر "غنيمة" في أن الدفاع عن نفسه بمجرد مسحاة أمام سنة ذئاب جائعة هو أمر بالغ المحاقمة، والأفضل الهرب والانزواء.

- آه يا "حجيزي"، آه يا "سعدون"، لو أئكم رأيتم حيرة الناقة، وهي ترى الذئاب وقد اقتربت جدا!

لقد رغت رغاء طويلا وهي ترفع رأسها محاولة الفهم، ثم حاولت الرّكض، لكن الدّئاب أحاطت بها من بعيد، فوقفت في مكانها، تنظر حولها وترغى، كأنها تنادى عليّ، كأنها تريد أن تقول: أنا ما تركتك للهلاك، فلماذا تتركني له؟

الدّئب قاتل قاس، يضرب ضربته المهلكة فتسقط الفريسة، وقبل أن تموت ترى بعينها قلبها يتمزق بين أنيابه التّاهشة.

انطلقت ثلاثة ذئاب تناوش سيقان التّاقة، بينما بقيت الثلاثة الأخرى تزار وقد أخذت وضع الاستعداد للهجمة الحاسمة، كانت التّاقة تحاول عض هذه الدّئاب التي تناوش سيقانها، لكن ماذا يفعل التّثيل أمام الخفيف الرّشيق، كانت الدّئاب تقفز مبتعدة، لكنّها في كل مرّة كانت تبتعد، كان الدّم يتدفّق بغزارة من جروح كثيرة في سيقانها، وفي المرّة الأخيرة، أفلح أحدهم في تهشيم مفصل ساقها الخلفية لتسقط على مؤخرتها.

أجهش "غنيمة" بالبكاء وهو يحكى قصّة مصرع ناقته، كانت الشّمس قد أقبلت على الغروب، وكان "سعدون" كعادته في مثل هذه الجلسات، يعد الشّاي ويصبّه في الكوب الصّغير، و"حجيزي" يرشف الشّاي رشفاته القلقة المخطوفة.

- سقوط الكبير أمام الصّغار يحز في النّفس، التّاقة ضخمة، شكلها مؤلم وهي تنهار، وعيناها السوداء لم تعدا جامدتين، وإنما رأيت فيها دموع مظلمة، عندما سقطت انطلقت كل الدّئاب في هجمة واحدة ناحيتها، وتكالبوا عليها، أحدها يغرس أنيابه في رقبتها، بينما الجميع كانوا يقرون بطنها، وفي لحظة كان قلبها بين أنياب أحدها، ورفعت رأسها الرّفعة الأخيرة، لترى قلبها وهو يتمزّق.

بقيت الذئاب تهش في التّاقة الصّريعة، نهشا مريعا إثر جوع فاتك، وكانت تغيب وتنظر ناحية الصّخرة التي يختبئ خلفها ”غنيمة“، وكان ”غنيمة“ يرتعش من الرّعب.

- كنت أراقب الذئاب وهي تهش لحم ناقتي، وكل ما أفكر فيه هو ماذا ستفعل هذه الذئاب بعد ذلك؟ هل ستشبع بطونها فتمضى مبتعدة، أم أن شهوة القتل عندها ما زالت جائعة، وسأروح ضحيّتها؟  
لكن الذئاب مضت مبتعدة، مخلّفة بقايا لحم ملتصقة بعظام نافرة.

لم يستطع ”غنيمة“ أن يفرح بمغادرة الذئاب، كانت تبتعد وهي تلعق أفواهاها بألسنتها، وكان هو ينتبه إلى ما لم يكن منتبها إليه.

لم تعد هناك ناقة، وعدم وجود ناقة في فلاة لا نهاية لها، لا يستطيع الإنسان فيها أن يكون على هدى، فهذا يعنى حضور الموت.

”ستموت يا غنيمة، لا تأمل كثيرا فيما قاله لك الله في صلاتك، لو كانت هناك نجاة للاحت بوادرها، وكل ما يحدث لك معناه الدّفع بك وبمنتهى الإصرار نحو الهلاك“.

- تصاريف الله عجائب يا ”حجيزي“، كانت ”الوعرة“ خلف ظهرى ولم أكن أدري، لو حدّقت في الأفق جيّدا لربما رأيتها، لكنّي كنت قد بيّست، فأسندت ظهرى إلى الصّخرة واستسلمت للموت، هنا الهلاك قادم لا محالة، حتى مع كل هذه الأشجار، المسألة ليست طعاما أو شرابا، ماذا سيفيد

الطعام أو الشراب من غير ناقة تقطع بك المسافات نحو العمران، هذه الشجيرات الكثيرة تعنى وجود آفات كثيرة قاتلة، أفاع ودفان وطريش وعقارب، هنا ذئاب وضباع، وماذا يفعل الإنسان المسكين وسط كل هذا الشر، خاصة إذا كان جائعا ومهدودا ويأسا مثلى.

”المشاكل الكبرى، تلك التى تجعل الإنسان من الممكن أن يُجن أو يقتل نفسه، حلها فى الاستسلام، لا تفكّر كثيرا، وإنما حاول أن تهدي من دقات قلبك، ونم“.

- نمت وأنا جالس مستندا إلى هذه الصخرة، نوم العجز، الذى يشبه نوم المرض، ملئ بالهلاوس المريبة والكوايس، رأيت ”الزبير“ يضربنى بكفه على وجهى، ويركلنى وهو يدفعنى خارج بيت، وهو يصرخ: أخرج من هنا، لا أريد أن أراك ثانية.

ورأيت ”لبنى“ الله يرحمها، تجرى بين نخيل لا حصر لها ولا عد، وتصرخ مرعوبة: الذئاب يا ”غنية“.

أستفيق، فأنظر حولى، وأتذكر أننى ملقى فى الصحراء، وأنى أنتظر الموت، فأنام.

طلع الصّباح بعد ليل بارد، كاد ”غنية“ فيه أن يتجمّد، طلع الصّباح عليه، وهو منكمش يرتعد فى رمال تمزّقه ببرودتها، لم يكن يفكّر فى شيء، فقط انطبعت فى عقله صورة هذا المتعاطم فى ضخامته، الباسم الوجه، وهو يعده بأنه سينجيه، وبأنه لا يجب للإنسان أن يكون مجرّد عبد، وإنما خليفة ربّانى،

لا يأخذ فقط مثل عبد، وإنما يعطى كإله، أن يعطى من أعظم ما يملكه، من حياته، يعطى أوقاتا للألم والعذاب، ويتجمل بالصبر، صبر يليق بخليفة ربّاني.

طلع الصّباح، ونور الشّمس لاح، واندفع يغمر الأرض، لم يكن بإمكان "غنيمة" الوقوف، كان مستندا إلى الصّخرة في الظّل، ونور الشّمس يبدو دافئا بجواره، كان يتميّ لو بمقدوره أن يزحف، حاول، لكن عظامه كانت قد تجمّدت، فثبّت عينيه بالثّور، وحاول أن يمتصّ الدفء بعينه.

أصوات الرّعاة الصّغار تأتي من بعيد مثل سرسعة فئران تتعارك، وأصوات ثغاء أغنام القطيع، ويفتح "غنيمة" عينيه، هل هذه الأصوات حقيقية، أم أنها من بشائر الموت القادم، تحيّلات أخيرة تمهد للنّهاية بلطف، أمل مباحث يعمى الإحساس بضربة اليأس القاضية.

نصب "غنيمة" رأسه، رفعها عن متكّئها الصّخري المستسلم، يتأكّد من إن كان يسمع أصواتا حقيقية أم إنه ينصت إلى سراب.

الأصوات تقترب، نصب رأسه وقتا طويلا، والأصوات تقترب، هذه هي الحقيقة، الوهم خاطف، لكن الحقيقة ممتدة، وهذه الأصوات ممتدة، وتقوى بالاقتراب، وفتح فكّيه ليصرخ، ليسمع الرّعاة صوته، فتحها بصعوبة، سمع صوت تفكّكها من جمود الصّمت، كأنها صخرة تنشق، وقال بصوت واهن: يا ولد.

الدفء يسرى في جسد "غنيمة"، وعندما سمع صوته دبّت فيه الحياة مرة أخرى.

- أقوى ما يمكنه أن يحول يأس الإنسان إلى أمل يا ”حجيزى“ هو صوته،  
جريت هذا، لما سمعت صوتى وأنا أنادى على العيال عادت لى الحياة.  
تذكر ”حجيزى“ كلمات الرّاهب ”يوائس“ عن صوت الإنسان فى وحدته،  
فهمس: سمعت مثل هذا الكلام زمان، منذ عشرين عاما.  
قال ”سعدون“: كلام يصح.

وقال ”غنيمه“: وأول ما رأيت الأغنام تتدقق، انفكت أعصابى المشدودة مرّة  
واحدة، وشعرت بهدير مفاجئ يحتاج عروقى، ولما ظهر أول ولد من الرّعاة،  
ونظر ناحيتى كنت أسقط فى غيبوبة، ولم أشعر بشيء.

\*\*\*\*\*

- يا ”حجيزى“، الشّمس غربت، والظّلام قادم، هل سنقضى الليل فى  
المقبرة؟!

نظر ”حجيزى“ إلى ”بكير“ وقال: اعمل لنا شايا آخر، لا تحلّه بالسّكر.  
- لماذا يا والدى؟! أنت طول عمرك تشرب الشّاى بطعم العسل من كثرة ما  
تمزجه به من سكر!  
- اسمع يا ”بكير“، أمامى يومان، وسأموت فى الثّالث، إياك وأن تدفننى.

بقايا واهنة من نور النّهار المنقضى، ليست كافية لرؤية وجه ”بكير“، وكيف  
صارت ملامحه وهو يسمع هذا الكلام من والده، لكنّه صمت تماما.

- سمعت الكلام، أم أصاب الصّم أذنيك؟

- سمعت يا ”حجيزى“، لكن كلام لا أدرى كيف أعقله؟!



- وأنا لا أريدك أن تعقل كلامي، لأنك لن تستطيع، أنا أقول لك وصيتي، لا تدفني.

أشعل "بكير" النار مرّة أخرى ليعد الشّاي، كانت أفكاره قد ارتبكت، نعم هو قد كبر في ظل تصرّفات أبيه المغيرة لتصرّفات النّاس في "الوعرة"، لكنّه لم يكن يوما غريبا لهذه الدّرجة مثل ما هو غريب اليوم، يمكن وفاة صاحبه "سعدون" بالأمس تكون هي السّبب! ربما!

مرّة أخرى يرى "حجيزي" يميل برأسه ناحية قبر "سعدون" ويصيخ السّمع.

- البكاء يعيب الرّجال يا "سعدون".

- أنا قتلت "زليخة" يا "حجيزي".

- هي التي زوّجتك!

- وأنا ما كان يجب أن أصدّق إنها تريد تزويجي، لو كنت فاهما لما رضيت.

- كانت تريد تسعدك بذرية تعزّك.

- ومن قال إن السعادة في الذّرية؟ من قال هذا أبله، لا يفهم، السّعادة امرأة تحبّك وتحبّها.

اعتدل "حجيزي" مبتعدا برأسه عن القبر، ونظر إلى السّماء التي غمقت تماما، وظهرت فيها بعض النّجوم المستطعة، كان "بكير" يقدّم كوب الشّاي لأبيه، الذي أخذه سارحا، بينما "بكير" يحاول متابعة تصرّفات والده، كان "حجيزي" يخرج كيسا كبيرا من سيّالة قميصه الطّويل، أخذ منه شيئا ووضع في كوبه.

- ما الذى وضعته فى كوبك يا والدى؟!

”السعادة امرأة تحبُّك وتحبُّها، كلمة تشبه ما قاله الرَّاهب يوائس: لو وجد أحدنا امرأة تحبُّه ما ألقى بنفسه فى منافى الرِّب“.

”يمكن لو أحببتنى سريرة ما كنت فكّرت فى مواضيع الموت والدّفن! لو كانت غمرتنى بالحياة لما اهتمت بدفن أو غير دفن، كانت سريرة دائما بعيدة، وكنت أفضل دائما فى التقرب إليها، وكانت هى تجيد الابتعاد، لو أنها حاولت من زمان ما حاولته معى اليوم، لو دعتنى بنفس الحب، والرغبة فى، كانت اختلفت كل هذه الحياة“.

ابتسم ”حجيزى“ بسمة مغموسة فى الأسى، كان الظلام قد حل، والنّار خبت، فلم يكن بإمكان ”بكير“ أن يراها.

”وماذا كنت تنتظرين منى اليوم يا سريرة؟!“

دخل ”حجيزى“ الغرفة مرتبكا، وأغلق بابها خلفه، كانت ”سريرة“ قد تخلّت عن عصاها، ووقفت بجوار السّرير تستند على مرتبته العالية، نظر ”حجيزى“ إليها نظرة خاطفة، استجمعت أهم ملامحها بالنسبة إليه، العينان اللتان ضاقتا وغامتتا، الأنف الذى تهالك على مجموعة من الأخاديد حول فمها الذى انهار، لا شىء تبقى فيها يمكنه أن يشير شهوة، نداؤها هو الذى أثار شهوته، نداؤها الذى يشى برغبة ملتبهة، ينظر إليها مرّة أخرى، كانت ترفع نفسها إلى السّرير

العالي وقد استعانت بكرسى خشبي تضعه خصيصا لهذه المهمة، الصعود إلى الفراش، كان منظرها وهي تعاني من أجل الصعود مثيرا للشفقة، إنها ليست أكثر من هيكل عظمي يرتدى ثيابا، جلست على السرير، ونظرت إليه وابتسمت، بسمتها هي الشيء الوحيد فيها الذي ما زال يحمل الكثير من بهجتها القديمة، ونظرتها الداعية أيضا، رغم أنها تنبعث من عينين تغيمان بسحب الزمن الطويل الذي انقضى.

تحرك نحو السرير، خطواته بطيئة، في عينيه حيرة، هذه أول مرة يبدو فيها تصرف لـ "سريرة" مشحونا بكل هذا الجنون.

تذكر مرة قديمة، ربما من أربعين سنة، كانت مرة لا تنسى، عاش على ذكراها سنين، كانت "سريرة" قد استطاعت في هذه الليلة أن تنسيه الجثث المحنطة والموت، أخذته بسرعة وهو لم يزل جالسا على حافة السرير، لم تتمدد أمامه، وإنما أتته من الخلف وقبضت على ذكره، وصهرت روحه بأنفاسها الساخنة وهي تعض حلمة أذنه.

وصل إلى السرير، لم تكن قد تمددت بعد، صعد هو الآخر على الكرسي الخشبي قبل أن يجلس على حافة الفراش.

"لو أنها أخذتني في كل مرة فجأة! طيب، وإذا كانت هي لم تفعل، فلماذا لم تطلب منها أن تفعل ذلك؟! أطلب؟! أنت جنت يا "حجيزي"؟! تطلب ماذا؟! تطلب الوساحة وقلة الأدب؟! هذه لحظات وتنقضي، يكون الواحد منا فيها مثل البغل، حيوان مطلوق، أطلب؟! من أجل لحظات أضيّع هيبتي طول العمر؟!!"

"لم تضيّع هيبتك يا حجيزي، وإنما كل عمرك هو الذي ضاع."

شعر بيد "سريرة" قوية، تجذبه من رقبته لتلقيه ممدداً بجواره، واضعاً رأسه على ذراعها المقدود من عظام، قرّبت رأسها من رأسه التّأظر إلى أعلى مبهوتا، وهمست: حجيزى.

أمال رأسه ناحيتها، ولم ينظر في عينيها، وإنما نظر إلى نور الضّحي الذى يتدفّق من بين أسياخ حديدية تقاطعت في طاقة ضيّقة اقتربت من السّقف، نور يتدفّق عقيماً إلا أنه هادئ، يسكن جو الغرفة، ويجعلها مريحة للتّفس، رغم قدّم كل ما فيها، وشحوب ألوانه، ورغم الملابس المبعثرة هنا وهناك من غير ترتيب، كانت الغرفة مريحة للتّفس.

- "حجيزى" كيف تموت وتركنى؟!

"ومتى كنت معك، حتى إذا مت أكون قد تركتك؟! أنتِ فى آخر العمر يا سريرة تتصايين!؟"

- لن تموت يا "حجيزى".

- سأموت يا "سريرة"، عشت الحياة مع اثنين وماتا، "غنيمة" مات منذ أربعة أيام، و"سعدون" مات بالأمس، وأنا جائتني الرّؤيا الصّادقة بأننى سأموت بعد يومين من الآن.

- إذا كنت ستموت ودّعنى الآن.

ما الذى تفعله "سريرة"؟! لقد قامت من اضطجاعتها لتنام بكامل طولها فوق جسد "حجيزى"، الذى نفر الدّم فى عروقه، فركضت الشّهوة تحت كل جلده، فتململ بالحركة.

كانت "سريرة" تلقى برأسها فوق رأسه، تبحث بشفتين منحوتتين غارتا نحو فراغ الفم عن شفتين محاهما تتابع قرن من الزّمان، وكانت أنفاسها تخرج

هرمة، تتكئ على عظام صدرها، لكنّه أحاط ظهرها بكفيّه العجاوين، يريد ضمّها.

”ما عاد في جسدك غير عظام يا سريرة، وجلد ذابل، وأنا سكنى الثلج، أريد نارا تذيبني، وأنت الآن لست غير رماذ“.

انهار القائم، وارنخى المشدود، وهطلت الدموع من سحب عينيها الغائمتين.

دفعها لتنزل من فوقه، فارتمت بجواره، وقالت بالحاح: ودّعني يا ”حجيزى“.

”لماذا تريد البقاء بعد موتك بين الأحياء إذا كنت لم تستطع وأنت حتى أن تعيش بينهم؟ الأفضل أن تبحث لك عن منفي من منافي الرّب، وتبقى هناك حتى الموت، هل بعد كل ما حدث يمكن لسريرة أن تطل عليك وأنت مجرد جثة محفوظة في غرفة مغلقة؟ ماذا قدمت إليها لتطل عليك، وتمسح التراب عن أعضائك التي ستكون متيبّسة، ماذا قدّمت لها لتستطيع تحمّل التّظر إلى عينيك الميتتين“.

- ودّعني يا ”حجيزى“.

”حاول يا حجيزى“.

مال ناحيتها، نظر في وجهها مرّة أخرى نظرة سريعة، هذه امرأة يجب أن تكون الآن جثة محنّطة، لا جسد يشتعل بالاشتفاء.

تغرس أصابعها الممصوصة في رقبتّه، وتهمس منتحبة: ودّعني.

”حاول، حاول، حاول يا حجيزى“

تشعر بمحاولته، فتسحب عنها جلبابها، تخلعه وتلقى به جانبا، ويرى ”حجيزى“ الجلد وقد التصق بالعظام التي زهقت من الجسد فبرزت تريد

الهروب، ونهدين صارا مجرّد ورمين مملوئين مرضا، ورأى يدا تمتد لتشق هذه الجثة، لا دمء تنبثق من الجرح، ولا دمء تزين الجوف، ويد "شديد" تُخرج أحشاء باهتة، ويسمع صوته قائلا: الأجساد الشّابة ترحب بالتحنيط، نحن نعمل التحنيط للمحافظة على الحياة الكامنة في الجسد، لكن هذا جسد مصّه الموت.

يرتد "حجيزى" كالمدوغ، وعندما تحاول "سريرة" التعلّق به لمنعها من المغادرة، يدفعها في جنبها، وينزل من السرير، ويغادر الغرفة.

- هذا مطحون الـ"قرض" يا "بكير".

- ولماذا تضعه في شايك يا والدى؟!

- لماذا يدفن الثّاس أعز الثّاس يا "بكير".

- قلت لك من قبل يا "حجيزى" لو لم يدفنوهم لتعفنوا، وأكلت الكلاب جثّهم.

- الـ"قرض" يا ولدى سينبت لحما مرا، لحما يقتل دود العفن، فيبقى الجسد إذا مات سليما لا يفسد.

- أنت تتكلم جادا يا والدى؟!

- ومنذ متى كنت أتكلم بهزر؟!

- لكن يا والدى أنت هكذا ستموت في منتصف طريق الدّهاب!

- تعرف شجرة البرتقال؟

- نعم.

- سأموت هناك، اسندني جالسا إلى جذعها، وأكمل رحلتك إلى "موط"، بع التمور، واشتر ما يحتاجه البيت، واترك لى مكانا على التّاقة، لتأخذنى وأنت عائد.

- لن أستطيع تركك وحيدا فى هذه الفلاة، ربما جاءت الدّئاب يا والدى و...  
وانهار "بكير" بأيا، و"حجيزى" ينظر إليه وهو يبتسم.

\*\*\*\*\*

عندما دخلت "هبيجة" المولدة خلف "سعدون" إلى غرفة "بثينة" اضطرب قلب "زليخة"، وعندما خرجت مبتسمة، وخلفها "سعدون" يكاد يطير من الفرح، سقط قلب "زليخة"، خرجت المولدة من الباب، وعاد "سعدون"، وقبل أن يدخل إلى "بثينة" أمسك بكتفى "زليخة" وهزّهما فرحانا، وهو يقول: "بثينة" حامل يا "زليخة".

وهرول إلى غرفة "بثينة"، وكان وتد مدبّب بحدة قد انغرس فى قلب "زليخة"، وبدأ الدّم يظهر نارا فى ابيضاض عينيها.

"لماذا تتألّمين الآن من مرارة كأس أنت التى قدّميتها لنفسك؟".

ذهبت "زليخة" إلى عشّة الحمام، وجلست على بايها، وأخذت تنظر إلى الأعشاش.

"كل عش فيه طائران فقط، حمامة ووليفها، عاشرت الحمام طول عمرك، ولم تتعلمى منه شيئا".

طال النّهار على "زليخة"، وهى قاعدة تسمع هديل الحمام، وضحكات مكبوتة هاربة من شقوق باب غرفة "بثينة"، الشّمس لفتحها فى الضّحى والظّهيرة، فترفع رأسها تنظر إلى عصفير تطير خلف بعضها فى مناورة غزل، وقبل

العصاري قامت، لما خرجت "بثينة" تعد طعاما لها ولـ"سعدون"، وهي تمضي إلى حجرة الخزين، نظرت إلى "بثينة"، وجهها متورّد بالفرحة، اللّماء تركض في خلاياه، وعيناها مبهجتان، الأبيض فيها أبيض كدفقة لبن، والأسود فيها أسود مثل لقحة ليل مستبد، ورأت الولد يمرح في بطنها، يتقلّب ويلعب، وينادى أباه، و"سعدون" سيأخذه في أحضانه، والولد سيكون عند أمه، و"سعدون" سيكون عند الولد، سيعمر عالم "بثينة" أكثر، لكن عالمها هي الذي سيحل فيه الخواء التّام لا محالة.

مضت إلى حجرة الخزين، وفي قلبها حسرة شمّت لها رائحة دخان.

- عدت بغنمي في المغارب يا "حجيزي"، كنت في المرعى أعذب نفسي من أجل أنها لم تستطع كبت فرحة ستصيب قلب "زليخة" بالكمد، كلّما تذكّرت حالها أشفقت عليها، "زليخة" التي كانت ملكة على كل بيتها، الحلوة بضحكها الذي يجلجل في الليل والنّهار، تصير هكذا؟ يضيق عليها بيتها فتنام في غرفة الخزين؟ يهرب منها الضّحك لتعشّش في صدرها أسراب كآبة؟

عدت بغنمي، فما دخلت عند "بثينة"، ولا غسلت جلدي، ولا حتى شربت ماء، لم تكن في غرفتها، فعرفت أنها في غرفة الخزين.

دفع "سعدون" باب الغرفة برفق كما اعتاد، ضوء الشّمس الغاربة بالكاد يبين ملامح الغرفة، أجولة من غلال مترابطة في أحد الأركان، وأجولة تمر مجفّف في ركن آخر، وحبال من ليف سميك، وأوتاد من خشب ملقاة في ركن آخر مبعثرة، وكانت "زليخة" ممدّدة على ظهرها فوق جوال الغلّة الذي اعتادت أن تستلقى عليه، اندهش "سعدون" من هيئة هذه النّومة، نائمة مستلقية على



ظهرها، رأسها محذوف إلى الورا، وذراعاها انفرطا إلى جنبها ليلا مسا الأرض في جمود، وساقاها تمددا يخرقان الهواء المعتم.

- "زليخة".

ليس من صوت إلا صوت حممة الغم وهي تتلاصق في حظيرتها تستعد للهجوع.

- "زليخة".

ليس من صوت إلا أصوات طيور القرايين البيضاء، تضرب بأجنحتها ناحية أعشاشها في الأشجار المبعثرة على مدى الغيطان، تسبح في وهج شمس تغرب، فتطير بلون نحاسي فاقع.

\*\*\*\*\*

قافلة كبيرة من سبعة جمال تقترب من "الوعرة"، جمال غريبة يركبها غرباء، يرتدون ملابس مثل ملابس الناس البندرية، قمصان قصيرة وسراويل طويلة، وقبّعات رأس تشبه تلك التي يرتديها عساكر الإنجليز، يصطحب القافلة حداة عرب قادوها عبر الصّحراء المتداعية، وعلموهم أصول التعامل مع أهل هذه الواحات، ألا يدخلوها إلا بعد استئذان مشايخ قبائلها، وأن يُنيخوا جملهم خارج الواحة، وأن يمضوا في الطّرقات فيلقوا السلام على من يلقاهم من رجال أهلها، وأن يحدروا مجرد الالتفات لأي أنثى، صغرت أو كبرت.

في الديوان الكبير جلس الغرباء، خاصة الإنجليز منهم، ينظرون إلى أهل "الوعرة" نظرتهم إلى أناس من عالم قديم، تاريخي، ينبعث الآن أمامهم حيا.

قال الشيخ "زويد" وهو ينظر في وجوه الغرباء بتوجّس: مرحبا.

قُدِّمَت الأَطْعَمَة لِمَن أُعْتَبِرُوا ضِيُوفًا، وَقُدِّمَ الشَّاي، وَقَالَ الشَّيْخُ ”زُويِد“  
دُون أَن يَتَخَلَّى عَن تَوَجُّسِهِ: مَرْحَبًا.

رَطَنَ أَحَدَ الغُرَبَاءِ المِصرِيِّينَ مَعَ أَكْبَرِ الإنْجِلِيزِ سِنًا، لَهُ شَارِبٌ ذَهَبِي يَشْتَبِكُ  
طَرَفَاهُ بِلِحْيَةٍ مَهْدَبَةٍ، وَعَيْنَانِ بَرَّاقَتَانِ بِاخْضَرَارِ مَاءِ بَرِّ ”الرَّاهِبِ“، وَأَنْفٌ  
مَعْقُوفَةٌ مِثْلَ مَنْقَارِ صَقْرٍ، وَرَطَنَ الإنْجِلِيزِي بِكَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ، ثُمَّ تَوَجَّهَ المِصرِي  
بِالْكَلامِ إِلَى الشَّيْخِ ”زُويِد“: مِستَر ”سَمِث“ يُوَجِّهُ لَكُم الشُّكْرَ عَلى كَرَمِ  
ضِيافَتِكُم، نَحْنُ وَفَدٌ مِّنْ مِصْلِحَةِ الأَثَارِ التَّابِعَةِ لِلحُكُومَةِ المِصرِيَّةِ، لَدِينَا  
مَعْلُومَاتٌ عَن وِجُودِ أَثرٍ مِهمٍّ فِي واحْتِكَمِ، أَثرٌ عِثْمَانِيٌّ، مَعْنَا فِي القَافِلَةِ عِلماءُ  
سَيُحَدِّدُونَ هَذَا الأَمْرَ لِاتِّخَاذِ الإِجْرَاءاتِ اللّازِمَةِ فِي حَالَةِ صِحَّةِ هَذِهِ  
المَعْلُومَاتِ.

نَظَرَ ”غَنِيمَةَ“ إِلَى ”حِجِيزِي“ الجالِسِ بِجِوارِهِ بَيْنَ النَّاسِ المُتَواجِدِينَ فِي الدِّيوانِ،  
نَظْرَةً مُتَعَجِّبَةً، لَكِن ”حِجِيزِي“ قَلَبَ شَفْتَيْهِ، وَهَمَسَ ”سَعْدُونَ“ فِي أذُنِ  
”حِجِيزِي“: يَقتَصِدُونَ المَسْجِدَ.

قال الشَّيْخُ ”زُويِد“: أَي أَثرُ هَذَا، ما عِنْدنا آثارُ.

- السِّجْنُ، العِثْمَانِيُّونَ بَنَوْا هُنَا سِجْنَاً لِلْمالِكِ الَّذينَ كَانُوا يَقبِضُونَ عَلَيهِم بَعْدَ  
مِطارَدَتِهِم.

اتَّسَعَتِ الأَحْداقُ بِالذَّهْشَةِ، وَقَالَ الشَّيْخُ ”زُويِد“: سِجْنُ؟! ما عِنْدنا سِجُونُ  
فِي ”الوَعْرَةِ“.

- أَتَمَّ تَصَلُّونَ الآنَ فِيهِ.

هتف الشيخ "زويد": المسجد؟!!

- نعم، كان معتقلا للتعذيب.

- المسجد؟!!

هز الإنجليزي "سميث" رأسه مبتسما، كأنه يفهم ما يُقال.

أحاط الوفد بالمسجد، ينظرون إليه بعيون متفحّصة، بعضهم أخذ يتلمس جدرانه بأصابع مستكشفة، بينما أخرج أحد الانجليز أدوات دقيقة لامعة من حقيبة كبيرة، وأخذ يغرسها في بعض الشقوق ببطء وحذر، بينما تحلّق رجال "الوعرة" حول ما يحدث، يراقبون بقلق.

- سجن؟!!

قال "سعدون" بأسى: نعم يا "غنيمة"، المسجد لم يكن مسجدا، والعثمانيون لم يكونوا مؤمنين رحماء.

ثم استدرك الكلام بنبرة مكسورة، يلعب بها على أعصاب "غنيمة" الدّاهل: كانوا قساة قلوب، عدّبو المماليك، و"شقمق" بيك علّقوه من قدميه في هذه السّلاسل المدلّاة، كتّا نظّتها سلاسل تعلقّ فيها المصاييح! لكن علّقوا فيها "شقمق" بيك.

صرخ "غنيمة": اغلق فمك يا "سعدون".

- ولماذا يغلق فمه يا "غنيمة"؟ يتكلّم "سعدون" كلاما سليما، نحن البهائم، صدّقنا أن أناس ليسوا أصحاب مكان يمكن أن يبنوا مسجدا، العساكر الغرباء يبنون سجوننا لا مساجد، وصاحبك "شقمق" تعلقّ من قدميه في السّلاسل.

انكسرت عينا "غنيمة"، وصوته كركب: حتى أنت يا "حجيزى"؟!  
فهقه "سعدون" وهو يقول ساخرا: صليت بينكم صلاة العشاء! كان يصلي  
وهو مدلى مقلوبا.  
لكن شيئا رآه "سعدون" في وجه "غنيمة" جعله يتوقف عن الضحك، كانت  
عيناه تنطفئان.

\*\*\*\*\*

من الذى لا يرى بزوغ القمر فى آفاق الصحراء المفتوحة ولا يرتعد قلبه  
برعشة خشوع، اعتاد "حجيزى" هذا البزوغ، آلاف الأقمار رآها تبرز من  
الشرق فلم يرتعد قلبه، لكن هذا القمر الصاعد الآن يرهج بالذهب يصدع  
قلبه ويفتته، هذا هو القمر قبل الأخير، لم يتبق غير قمرين فى حياته، هذا  
أحدهما.

"متع عينيك يا حجيزى، لكن هذه المرة لن تستطيع أن تغسل قلبك بنوره  
فتبتج، لا يبتج الذاهبون إلى الموت وهم يعلمون".

فجأة تنوَّجَّج في ذاكرته صورة طائر الإوز الذى غرق فى إناء الماء، فى عشة  
"سعدون"، لو أنه رضى بالماء الآسن ربما عاش أطول وأمتع، لكنَّه بحث عن  
الماء الرائق فى قعر الإناء، فانقلب فيه وغرق.

ألقي نظرة إلى الخلف، كانت ناقة "بكير" تسعى خلف ناقته، و"بكير" شبج  
غامض يهتز على سنامها هذا رتبيا سرمديًا، بينما هناك الصخرات الأربع  
العملاقة تلتفح بظلام سينتفش حتما أمام ضوء هذا البازغ الصبور، وقبور  
تفترش الموات، حتى هذا يراه "حجيزى" الآن لآخر مرة.

## المُعزّي

وقف "سعدون" أمام الغرفة المغلقة بالقفل، غرفة "زليخة"، كم عام ظلّت هذه الغرفة مغلقة؟ لا يتذكّر، لكنّها أعوام طويلة، أبقاها مغلقة، لأنه كان يحاول أن يبقى حيًّا، الآن هو كما قال لـ"حجيزي" منذ قليل "كره الموت"، فلم يعد يحب الحياة، ويا للسخرية، على من لا يحب الحياة، لأنها صارت مؤلمة بدرجة لا تطاق، أن يلوذ بالموت، وليس أجمل من الذكريات الحلوة وسيلة للانتحار.

تحرك المفتاح بصعوبة، فأصدر القفل تكّة رشقت في قلبه، نزع القفل من مكانه، ضغط على الباب فلم يفتح، تبيّست ضلفتاه مع طول الغلق، لكنّه بضغطة أخرى أشد قوّة انفتح.

ضوء الضّحي ينسل باهتا من فواصل ضلفتي التّأفذة، ومن شبكة السّلك التي تسد طاقة ضيقة مفتوحة قرب السّقف، إلى براح الغرفة، فيكشف حالها كشفا هادئاً.

لكن قلب "سعدون" ارتبك، وتخبّط في ضلوعه، الغرفة اختفت تحت كومة من تراب، وشعر كثيف من خيوط العنكبوت عشّش في كل مساحات السّقف، وكل الأركان والزّوايا، كانت الغرفة ميّتة تماماً.

خطا إلى الدّاخل، فغاص نعل خفّه في طبقة كثيفة من تراب ناغم مثل الدّقيق، لم يمنعه هذا من إكمال خطوته، فصار في داخل الغرفة بكل جسده، وأغلق خلفه الباب.

مباشرة تقدم نحو السّرير العالى، كانت عمامته تصطدم بخيوط العنكبوت المدلّاة، فتلصق هذه الخيوط بها، ولم يكن حريصا على إزالة هذه الخيوط، وإنما لأجل صدره الذى بدأ يشعر به ينتفض مثل شاة تذبح، يكاد يفقده توازنه، كان حريصا على الوصول إلى السّرير.

كان يشهق وهو يندفع مستندا إلى حافة الفراش العالى، وانبعثت سحابة غبار صغيرة غاضبة من المرتبة، رفع جسده التّثميل، واعتلى الفراش، فتوالى سحابات الغبار، واستمرت تنطلق من أسفل جسده وهو يحاول التمدّد، رافعا رأسه على الوسادة العالية، وأخذ يسعل.

عندما ركبت سحب التّراب، وذهب السّعال، جال بنظره فى الغرفة، وقال لنفسه: هيا أيتها الذّكريات الحلوة، اقتليني.

”زليخة“ تأخذ قميصه وسرواله اللذين خلعهما، وتعلّقهما فى شمّاعة صنعها النّجار على هيئة شجرة واقفة، وتقول: ما فى مرّة تخلع هدومك وتعلّقها فى العليقة؟  
فيرمى العمامة ناحيتها، ويقول: طيّب خذى هذه علّقها.

ويضحك، وينظر إليها وهى تذهب إلى الخزانة، تفتحها، وهى تقول: متى سنسافر إلى ”أسيوط“؟

أخرجت قميص نوم حريرى أصفر، وأخرجت زجاجة عطر تأخذ شكل أوزة، وقال: نسيتى يا ”زليخة“؟! الطّبيب قال أرضك بور.

وأخذ يضحك، كانت تخلع جلبابها الذى أزاح طرحتها، وقالت: وقال بذورك ضعيفة.

مرّت السنون الطويلة، وما مر ألق جسد "زليخة"، النساء يكبرن وهى تصغر، أخذ يتأمل عرى ذراعها وصدرها وهى ترتدى قميص نومها الأصفر، المحاط بزيق نحيل ذهبياً براق، نهدها مشدودان، وحلمتها تريدان ثقب الحرير، عينا "زليخة" من غير كحل توهة، فلماذا تجلس إلى مرآتها وتكتحل؟! - يا بنت الناس أنت طيّرت عقلى من زمان، تكتحلين لتصرعى قلبى؟!!

ويقهقه بضحكته الصافية، الضحكة التى تفجّر منابع الحنان فى روحها.

تترك تسريحتها، وشعرها مياس، نجري، يمز وجدان "سعدون"، وتتجه إلى السرير، تقفز إليه مثل غزالة الصحراء، وترمى جسدها فوقه فيغرق فى فيضان عشق دافئ.

- نذهب مرّة أخرى إلى "أسيوط"، وأخرى، وأخرى.

يحيط خصرها الممصوص بذراعيه السمينتين، ويهمس: ماذا تريدان من "أسيوط" يا روح "سعدون"؟

تُعرض بوجهها عن وجهه إعراض الدلال، وتقول: عيّل.

- أنا عيّل يا "زليخة"، حتى انظري، أنا جائع وأريد أرضع، واء، واء. ويقهقه.

وتنظر إليه من فوق، تبتسم بوجه رائق، ثم تدنو برأسها منه، وحمرة التيران فى شفيتها، وذراعها يحيطان برقبتة، وتهمس: ما تشبع من الضحك أبداً، ستموت يا "سعدون" وأنت تضحك.

فتح عينيه يتأملها وهي تنسال بوجهها ناحيته، وجه يمنح الحياة بكرم، وابتسم.

\*\*\*\*\*

- وجدناه يا "بكير" ممددا على سريره ضاحكا، وعيناه تنظران إلى فوق، وفيها لهفة، لكن "غنية" مات ووجهه متكدر، منكفى على وجهه خلف باب بيته.

كان "بكير" يرتج فوق سنام ناقته، يسمع صوت أبيه القادم إليه رقيقا، فيه بحة كأنه يبكي، وناقتهما تمضيان في نور صباح ابتعثته شمس مبهرة، رغم حرارة الصيف القائل في "مسرى" إلا أن اللسعات كانت طرية، ترطب الصدر.

- الولد "سليم" سيعيش حياته، أعلن حبه للبت، وها هو ينحت لها أضخم تمثال.

فتح "بكير" عينيه ليندهش، لكن عينيه انكسرتا بسرعة، لأن "حجيزى" ما توقف عن قول العجائب منذ خرجا من "الوعرة".

- كنت وعدت "سليم" إننى سأقول له عندما يكبر كيف يمكن للقصة غير الحقيقية أن تكون حقيقية في نفس الوقت، هو كبر الآن وصار يجب البنات، قل له جدك يقول لك، الحكاية التي لا تجرى في بلدك يمكنك أن تقول عنها إنها غير حقيقية، لكن الدنيا كبيرة، والناس يملأون الأرض، والحكاية التي لا تجرى تفاصيلها في بلدك، تجرى حتما في بلد آخر، الحكايات دائما تكون حقيقية.

ثم هتف: وُلِد يا "بكير"، متى تنحت تمثالا أنت الآخر لـ "ثرثيا"؟!



كان كلام "حجيزى" هذه المرّة مباعثا جدا لـ"بكير"، ففتح عينيه على اتساعها، لكنّه لم يجب.

- عندما تغيب شمس اليوم ستكون روحى قد غابت معها، اسمع كلامى جيدا، كلام المغادرين دائما ثمين وصادق، حافظ على امرأة تحبك، حتى لا تلقى بنفسك فى منافى الرّب.

"منافى الرّب؟ وما منافى الرّب؟!"

- الحزن يا "بكير".

الصّحراء تتحرك ببطء، والمدق الضيّق يتلوّى بثناقل شديد، مثل أفعى تلفظ أنفاسها الأخيرة، وبعد أن مالت الشّمس بكل جبروتها الملتهب عن كبد السّماء، بدا فى سراب الأفق شبح شجرة يرتعش، شجرة البرتقال، وهمس "حجيزى": "التهاية".

\*\*\*\*\*

الشّجرة وارفة ومزههه رغم نار الصيف المشتعلة، وعندما وصلا إليها، أناخا ناقتيهما تحت ظلالها، رغت النّاقتان بابتهاج، ونزل "بكير"، لكن "حجيزى" بقى جالسا على سمن ناقته، فقال "بكير": "تدلّ يا والدى".

لكن "حجيزى" لم ينزل، بقى جالسا فوق السنام، صامتا.

تذكّر "سعدون"، فى أى منطقة تحت ظلال هذه الشّجرة ركب "سعدون" على "زليخة" ونا..، وأين كانت تريض ناقتهما لما ضبعت.

- ما تستطيع التزول، راحت قوتك يا "حجيزي"، ثلاثة نهارات وليلتان وأنت لا تشرب الماء، وتسف القرض، قلت لك أن هذا هو الذي سميتك، وليست الرؤيا أبدا.

"الولد كبير لا يعرف شيئا، لا تُعجز قلة الماء المُصر على بلوغ الهدف، لكني الآن سأنزل من على سمن ناقتي التزول الأخير، لن أركب الثوق مرّة أخرى، وهذا السنام الذي ما ركه غيري سيصير مشاعا، بالتأكيد أنا الآن ألفظ أنفاسي الأخيرة، وكل ما سأفعله في هاتين الساعتين القادمتين لن يكون بمقدوري فعله مرّة أخرى".

أراد أن ينزل فارتعشت أعصابه، وأحس بوهن يسيطر على عظام مفاصله، فنادى بصوت خافت: يا ولد، تعال ساعدني كي أنزل.

"لأبد الآن من تناول ثمار البرتقال، أحب راحته، عليها تنبعث من جسدي بعد موته فيطاق بقاؤه بين الأحياء".

تخذله قدماه تماما، كان متعلّقا برقبة "بكير"، وكان "بكير" يسحبه حتى أجلسه مستندا بظهره إلى جذع الشجرة، وعندما رفع رأسه لينظر في أغصانها باحثا عن ثمرة برتقال لم يستطع رؤية سوى جزء صغير من هذه الأغصان، فزحزح نفسه ليرتمي على ظهره، فتصبح كل الأغصان في مجال رؤيته.

- "بكير"، هات لي هذه البرتقالة.

رأى "بكير" صدر أبيه يعلو ويهبط بعنف، وراه يدخل يده في جيبه، يُخرج كيس "القرض" ويسف منه، فرأى عضلات وجهه تتقلّص من قسوة المرارة، ونظر إلى الشجرة، فلم يجد بها أيّة ثمرة من ثمار البرتقال.

- شجر البرتقال لا يثمر في "مسرى" يا "حجيزى".

قال "حجيزى" بصوت مخنوق: لكّتى أرى واحدة هناك.

أخذ "بكير" ينظر إلى المكان الذى يذهب إليه بصر والده، فلا يرى شيئاً: أين هي؟!!

رفع "حجيزى" ذراعه بوهن، وأشار بسبّابة مهتزة، وقال: هناك يا أعمى.

أخذ "بكير" يدقّق النّظر، وهو يلوى عنقه ويدور برأسه فى كل نواحي أغصان الشّجرة، ليس ثمة أى برتقالة.

صرخ "حجيزى" وهو يعتدل من رقدته، جاءته قوّة، وقال: أنا سأصعد الشّجرة وآتى بالبرتقالة.

وكان قد وقف على قدميه كأشد ما يكون الرّجل، لمّا رأى "بكير" ينظر إليه فى غاية الاندهاش، قال هاتفا بحنق: قَرّب لى الثّاقّة، ضَعها تحت هذا الغصن القريب.

ليس بمقدور "بكير" إلا أن ينقذ أوامر أبيه، فقَرّب الثّاقّة، ليعتلى "حجيزى" سنمها برشاقة، ثم يتعلق بالغصن مثل قرد، والبرتقالة نصب عينيه.

"لن يضيع كل شىء هكذا ببساطة، الأعمى لا يريد أن يرى البرتقالة، وأنا أريد أن يصير جسدى بعد الموت فوّاحة عطر، كى لا يلتون بى فى الأماكن المعتمّة المهجورة من البيوت، عندما أصير فوّاحة عطور سيضعونى فى جوارهم، فى أماكن أنسهم، يأخذون من عطرى، وأخذ من ونسهم، الولد بكير لا يفهم شيئاً، سيضيع بعمى قلبه وبصيرته كل ما أسعى إليه طوال هذا العمر".

وفي قلب الشجرة شعر بالوهن يضربه مرّة أخرى، كانت الشمس تتّجه نحو المغرب، وكان ينظر إليها بعينين محمومتين، مع غروب هذه الشمس ستغرب حياته تماما، فنظر الى البرتقالة التي كانت تتأرجح باهتزاز الغصن المعلقة فيه تحت ثقل حركة ”حجيزي، برتقالة كبيرة، صفراء برّاقة، تنضح بمرح ليس هذا الوقت أوأانه.

لم يكن بينه وبين البرتقالة سوى أقل من ذراع واحدة، لكن الجهد الذي بلغ منه، جعل المسافة أبعد ترامياً من آفاق الصّحراء، كان يجارب الآن كل عجزه، وليس من المعقول أبدا أن يعمل لهذه اللّحظة امتداد عمره، ثم يفشل في الذراع الأخيرة منه.

كان ”بكير“ يراقب والده من أسفل، ودموع تنساب من عينيه، لم يكن يتخيل أن حال أبيه سييسوء هكذا، لم يكن ”بكير“ يعتقد أبدا أن ”حجيزي“ سيموت فعلا، كل ما هنالك، اعتقد أن أباه قد أصابه الخرف أخيرا.

ما هذا الغبار الذي ينبعث في الأفق، ويتعالى نحو الشمس الغاربة؟! ثم بدت في وسط الغبار نقطة سوداء، نقطة تكبر وتكبر.

كانت فرسا ينسكب على الرّمال مثل فيضان هادر، يأتي من قلب الصّحراء المهجورة، وفوقه فارس يجلس عليه جلسة الصّناديد.

وتعلّق بصر ”حجيزي“ به، وشعر بقلبه يحن، وهتف هاتف في وجدانه: إنه المعزّي.

”لو صدق المسيح في وعده لى فلا بد وأن يكون هذا الفارس هو المعزّي، وإلا متى سيجيء إن لم يأت الآن؟“.

توقّف الفرس تحت أغصان الشّجرة، أسود غُرا محجّلاً، عليه فارس ربعة، هامته كبيرة، وشعره سيّاحا من أسفل عمامة خضراء يندلق على كتفيه، وعيناه واسعتان سوداوان، فيها ألق الرّاحة، تحيط خصره بذراعيها امرأة وجهها يسكب دما أحمر، غاية في الجمال والفتنة، وشعرها يتضوّع مع اللّسمة الخفيفة مثل مسك دافئ، وعيناها تنضحان العشق.

”مال بكير لا ينظر إليها؟! أعمى هذا?!“.

سمع ”حجيزي“ صوتا رائقا مثل ماء التّبّع يناديه: يا ”حجيزي“.

التفت إلى الفارس، كان ”حجيزي“ متمدّدا فوق الغصن متشبّثا به يحاول الثبات فوقه، بينما الفارس ينظر إليه باسما، والمرأة التي خلفه ما زالت تحيط خصره بذراعيها، وهي تضع رأسها ما بين كتفيه وقد أسبلت عينيها، والفرس يحمم، رقبته معقوفة، ينقل أقدامه كأنه يرقص في مكانه.

- إذا صرت فوّاحة عطور، ستفتح طريقا واسعا لمهانة الإنسان يا ”حجيزي“، وما أراد الله للإنسان أن يكون مُهاناً حتى بعد موته.

”عندما تتحوّل الأجساد الميتة إلى فوّاحات عطور، ولا يكون حولها من الأحياء إلا أحفاد، سيتبادلون الجثث الفوّاحة فيما بينهم، سيتعاملون معها كما يتعاملون مع أي فوّاحة عطور جامدة، وعندما تمتلئ البيوت بهذه الفوّاحات، سيحطّمونها بأيديهم ليتخلّصوا منها وهم يشربون الشّاي، لا مكان للموتى بين الأحياء وإن صاروا فوّاحات عطور“.

- من هذه المرأة التي تجلس خلفك.

ابتسم الفارس وقال: هذه أسيرتي، أسرته بالحب، وأنا مليكها، ملكتي بالعشق، هذه التي سألتُ الله أن يقبض روحى بين سحرها ونحرها، وأن يكون آخر ماء يدخل جوفى رضاها.

- تحبها كل هذا الحب؟!

- وهل كان ممكنا أن أبلغ رسالتي من غير حب امرأة؟!

- وما رسالتك؟! من أنت أيها الفارس؟

- المجد للإنسان الذى يعرف قيمة نفسه، ربُّ هذه الأرض، والعزّة لله، الذى خلقه ليكون خليفة، وأوّل ما علّمه سرّ أسماء مفاتيح الرّبوبيّة، أنا الذى قلت للإنسان أعظم كلمة: اقرأ، وأيقظ العقل، لتعرف كم أنت عظيم. أنا الذى قال لك "المسيح" انتظره.

- إذن أنت المُعزّي.

نظر الفارس إليه بعينين حائيتين، بينما يربت على ركة المرأة التى كانت تريح صدغها بين كتفيه، تمسح وجهها بدلال فى شعره الذى ينساب مياسا من تحت عمامته الخضراء.

"كم هو جميل ورائق هذا المُعزّي، ما اسمه؟! "

- يا "حجيزى"، القبر منبع الذّكرى، والذّفن حياة، يبقى الإنسان حيا فى ذاكرة الأحياء بكامل هيئته وصورته طالما هو مدفون فى قبر.

- تريدنى أترك الدّنيا التى عمرتها، وأروح فى طى النّسيان؟!

- ارجع إلى الورا، وانظر لحال الجثث التى عاشت مواتها، هل تحب أن تعيش حيا بجوارها حتى وإن فاحت منها العطور؟، لذلك اسمع كلامى، الدّنيا التى عمرتها بجياتك لا تخربها بموتك، ولن يستطيع النسيان أن يقترب من رجل ظل عمره يحاربه، لقد قتلت النّسيان يا خليفة الله.

كان "حجيزى" بائسا وهو يقول: كيف وأنت تريد لى الذّفن؟!

شارفت الشّمس على المغيب، ولم يعد بينها وبين حد الأفق سوى طول رمح، وسكون الصّحراء ناصع، وينبثق صوت المُعزّي: حتى وإن دُفن

جسدك، فلن تُدفن ذكراك، فأنا أعلم اليوم الذى سيوحى فيه بقصتك إلى قلب كاتب ملهم، سيكتبها سفرًا مفضلاً، تضرب الرّوعة فى أطنابه، فيذيع خبر هذا السّفر فى كل الأرض، ليعلم النّاس فى كل أزمان العالم القادمة قصة "حجيزى بن شديد الواعرى"، خليفة الله الحق، الذى صام عن الحياة ليعيشها أبداً، وحارب النّسيان مائة عام، ففاز بالذّكر ما دامت الدّنيا تحيا.

ابتسم "حجيزى"، بسمة مرتاحة، ما ابتسم مثلها من قبل، وهدأت روحه.

"كاتب مُلهم، وما كاتب مُلهم، وما السّفر؟!!"

— السّفر الخلود، والكاتب المُلهم هو واهب الخلود، كأنى أراه يمشى بين النّاس مهموماً بك، يحمل روحك التى أضناها هم الفناء، يريد الهروب معك إلى دوام الحياة، حيث بقاء أبدياً.

وبينما يركن رأسه إلى الغصن، رأى الفرس يتحرك وهو يحمحم، ورأى المرأة تقبل المُعزّى بين كتفيه، وخطر خاطر فى وجدانه: يا لسعادة هذا الفارس بهذه المرأة العاشقة.

وعندما طرقت هذه الخاطرة عقله، كان الفرس قد تحوّل إلى نقطة سوداء تزحف نحو قرص أحمر ضخم، يقترب جدا من رمال الأفق البعيد: ما اسم هذا المُعزّى الذى هدأ روعى، لو كنت حكيت لـ"غنيمة" عنه كان أخبرنى باسمه، ابن كلب دار فى البلاد وعرف.

وابتسم: اسمه ليس مهمّاً، المهم انه قد جاء وعزّانى، والمهم أن "المسيح" لم يكذب على.

رفع رأسه وأخذ يزعمق: يا "بكير"، يا ولد.

وأجابه "بكير" مفزوعاً من صراخه: نعم يا "حجيزى"، ماذا تريد؟





عندما تخلى الجسد عن الغصن اهتز بعنف، وتراقصت البرتقالة مثل نهد فجره  
عشق، فتضوّعت رائحة البرتقال، بينما انطلقت جثّة ”حجيزى“ متّجهة إلى  
القبر، كأسرع ما يمكن لجثّة أن تتّجه إلى قبرها.

تمت

صدر للكاتب:

- الجبريلية / مجموعة قصصية / الهيئة العامة لقصور الثقافة 1995  
الصم / رواية / الهيئة العامة لقصور الثقافة / 1999  
الفرس ليس حرا / مجموعة قصصية / الحضارة للنشر / 2011  
السكاته / مجموعة قصصية للأطفال / الهيئة العامة لقصور الثقافة 2013  
منافى الرب / رواية / الحضارة للنشر / 2013

تحت الطبع

أهواك / مجموعة قصصية / أخبار اليوم- كتاب اليوم.